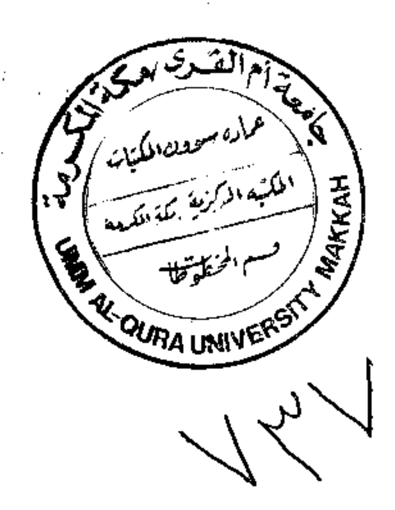

جامعة أم القرى مكة المكرمة
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

٧٣٧

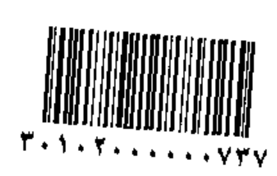

بسم الله الرحمن الرحيم


جامعة أم القرى مكة المكرمة
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب



٧٣٧



٠٠٢٧١٨

ديوان الإنشاء

بمصر والشام في القرن السادس الهجري وأثره في تطور الأساليب النثرية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب

إعداد
عايض سعد سعيد الحارثي

إشراف
الأستاذ الدكتور محمد نبيه حجاب

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ)

المقدمــــة

لم يكن القرنان الخامس والسادس الهجريان عصر غروب شمس الأدب العربي، أو العصر الفضي – كما وصفه المستشرقون (١)، ومن تابعهم في رأيهم أو قاربهم من الدارسين المحدثين (٢).

فقد ظهرت فيه عدة مؤلفات قيّمة في شتى العلوم. ونظرة الى كتاب كشف الظنون أو معجم المؤلفين، أو فهارس المخطوطات، تثبت ذلك.

كما ظهر نقاد ومؤلفون خدموا الأدب وأخصبوا واديه. صحيح أن أغلب كتاب العصر قد أغرقوا كتاباتهم بالحلية اللفظية على حساب الأفكار والعواطف، غير أنهم لم يكونوا بدعا في ذلك، فقد سبقهم

---

(١) انظر مقدمة كتاب ابن نباتة ص٧١ .. ويقول جب – عن القرن السادس والسابع –: " انه العصر الفضي حيث كان العصر السابق هو العصر الذهبي، وأنه لم يكن يمتاز بالعبقرية والابداع بقدر ما امتاز به من براعة في الصنعة ومهارة في الصياغة الفنية "، ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد ص٢٠.

(٢) يقول شوقي ضيف عن القرون التالية للقرن الرابع: " أو قل: لقد أجدب معين الحضارة العربية فلم يعد يظهر من جديد الا هذه الضروب من التعقيد والتصعيب، وان الانسان ليشعر كأن الحياة العربية قد أصيبت بعطل شديد، وانه عطل يتسع فاذا مصانع النثر لا تستطيع أن تخرج ضربا جديدا أو مذهبا حديثا، الا هذه الطرق الملتوية المحملة بالتصنع لمصطلحات العلوم والتكلف لأشياء شاذة كالأمثال والاشارات التاريخية والأدبية .. وقد جمدت العصور التالية عند هذا الأسلوب ". الفن ومذاهبه ص٣١.

كتاب القرن الرابع أولئك الذين أسسوا تلك الطريقة الجافة واحتكموا الى المحسنات البديعية التي قلدهم فيها كتاب قرننا الذى نحن بصدده .

وصحيح أيضا أن نتاج هذا القرن الأدبي والفكري لا يوازى نتاج القرن الرابع الهجرى ـ المصطلح عليه بالعصر الذهبى للأدب ـ لا من حيث الوفرة ولا من حيث الجودة الفنية ـ الا أننا لا نرى الفرق بين الأدبين كالفرق بين معدنى الذهب والفضة ، وهو المثل الذى أطلقه المستشرقون وأصبح أول انطباع للمطلع على أدب هذه الفترة .

ونحن اذا قارنا رسائل القاضي الفاضل برسائل الصاحب بن عباد مثلا ، لا نجد ذلك الفرق الكبير الذى يشير اليه أولئك المؤرخون . بل لعلنا نجد بعض رسائل الفاضل تفوق رسائل الصاحب من حيث غزارة المعلومات والبراعة فى الصنعة التى فتن بها القوم .

ومثل تلك المقولات قد تدعو الناشئين وعشاق الأدب ومحبى الثقافة ، الى الزهد فى كل نتاج هذا العصر قبل أن يطلعوا عليه .

ان هذه الفترة من مسيرة الحضارة الاسلامية لم تخل من مجددين ونوابغ فى الفكر والأدب عامة ، ومن مؤلفات تعدّ من أهم مصادر الأدب العربى . . وما زاد نتاج هذه الفترة ، أهمية معاصرته للحروب الصليبية ـ سواء فى مراحل الهزائم أم فى أطوار الانتصارات التى فجرت ينابيع الشعر ، وعبر عنها الكتاب فى رسائلهم ، وهناك حقيقة لها أهميتها ، هى أن المحققين فى العصر الحديث ـ حينما نشطوا لبعث التراث العربى الاسلامى ـ اتجهت عنايتهم تلقاء القرون الأولى باعتبارها فترة ازدهار الآداب والعلوم ، ووجود الأدباء الكبار والمؤلفات المشهورة ، وأغفلوا

ـ أو لم يتيسر لهم ـ كل نتاج القرون التالية ـ وبخاصة منذ القرن السادس الهجرى ـ ولعلهم زهدوا فى أدب هذه الفترة متأثرين بمقولة المستشرقين تلك ... فبقى معظم نتاجها حبيس المكتبات .. حتى أنه ليصح أن نقول : ان ما حقق منه لا يمثل الا نسبة ضئيلة من مجموعه .

ولا يخفى على مطلع أن الدولة العثمانية قد نقلت الى الاستانة محتويات مكتبات مصر التى كانت تعدّ مستودع ذخائر العربية فى شتى العلوم ـ بعد كارثة التتار فى بغداد .

والذى أريد الوصول اليه بهذه المقدمات : أن الحكم على هذا العصر بالجدب والركود ليس دقيقا ولا منصفا لسببين :

الأول : أن بين أيدينا من علوم هذا العصر ونتاجه الأدبى والعلمى ما ينفى هذه التهمة عن أهله .

الثانى : ـ وهو الأهم ـ أن الحكم على الشىء فرع من تصوره ، ولا أظن أن الذين أطلقوا تلك الأحكام أحاطوا بنتاج هذا العصر ـ قراءة ومقارنة بغيره ـ لأنّ معظمه لا يزال قيد الأسر والاعتقال ، فى مكتبات العالم نعرف منه القليل ، والكثير لا يزال مجهولا فى مكتبات استنبول ، وغيرها من مكتبات العالم .. وبعضه لم يفهرس أحيانا .

ومن زار مكتبات استنبول وحدها واطلع على فهارس مكتباتها الكثيرة جدا ، عرف مصداق ما أقول ..

ثم لو صدق على نتاج هذا العصر ما وصفه به المستشرقون من أنه لا يعطى الا أقل من نصف الدرجة التى تعطى لأدب القرون الأولى الى نهاية القرن الرابع ، ألا يستحق نتاج قرن أو أكثر من الزمان العناية

والبحث والدراسة من الباحثين ؟ اذ ليس على الباحث الا أن يدرس أدب فترة زمنية ، ويخرج منها بنتائج ، ويلقى مزيدا من الضوء على نتاج تلك الفترة ، ولا ينقص من عمله أو يقلل منه أن تكون تلك النتائج في غير صالح ذلك الأدب أو أن أدب تلك الفترة أقل جودة من غيره .. ولا يعني كونه أقل جودة من نتاج القرون الأولى أنه ردىء أو لا يستحق البحث والدراسة .

فأي أمة في الأرض ترضى أن يغفل أو يهمل تاريخ حضارتها — بما فيها الأدب — لقرون كاملة ؟

ولقد كان هذا من البواعث التي دعتني الى الخوض في غمار أدب هذا العصر ، وتكبد مشاق مجاهله ووعورة طرقه ، رغم ما يكتنف البحث فيه من عناء وملل بسبب قلة مراجعه المطبوعة ، وتفرق المخطوطة منها في مكتبات العالم .. ولأن أدب هذه الفترة لم يحظ بعناية الباحثين والمحققين العناية الكافية وبخاصة الرسائل الديوانية .

ولما كان ديوان الانشاء ، المنار الذي تهوى اليه أفئدة عباقرة الأدباء منذ نشأته زمن بني أمية ، فقد سلطت الأضواء عليه ، لأنه كان مهبط التجديد في الأساليب الفنية ، ومركز اشعاع أدبي .. أثرى الأدب ، واستقطب رواده .. وتخرج منه كثير من أدباء العربية الكبار .. كما كان له دور مهم في ريادة المدارس الكتابية عبر العصور الأدبية .

لهذا آثرت أن يكون موضوع رسالتي لنيل درجة الدكتوراه :
(ديوان الانشاء — بمصر والشام في القرن السادس الهجري — وأثره في تطور الأساليب النثرية) . أعني بذلك أثر الديوان منذ نشأته وعبر القرون في تطوير الأساليب حتى نهاية القرن السادس الهجري .

والذى دعانى الى قصر بحثى على الرسائل الديوانية ،أننى لم أر من بين الدارسين من اعتنى بهذا اللون من ألوان تراثنا النفيس عناية خاصة .. مع أنها تعدّ من أهم ألوان الأدب العربى .. و من تعرض لها من الدارسين .. كان تناوله لها ضمن دراسة موسعة عن أدب عصر من العصور .. فضلا عن أن النثر بعامة والرسائل بخاصة ، لم تحظ باهتمام نقاد الأدب ودارسيه منذ القدم كما حظى الشعر ..

هذا وقد استقر البحث فى تمهيد وأربعة أبواب ، تناولت فى التمهيد الكتابة الفنية وألوانها ، ديوانية واخوانية — اذ كانت الكتابة اذا اطلقت قديما أريد بها ،كتابة الرسائل .. وتطرقت فيه أيضا لقضية تحديد بداية النثر الفنى ،وسبب ضياع الكثير منه وكيف دخلت الرسائل الديوانية باب الأدب وأصبحت تزاحم فنون الأدب الأخرى فى بلاطات الخلفاء والأمراء .

وتناولت فى الباب الأول ، نشأة الديوان وتطوره ، حيث قسمته الى ثلاثة فصول .

أفردت الفصل الأول للحديث عن انشاء ديوان الرسائل فى عهد معاوية .. وتسميته بديوان الانشاء فى عهد عبد الملك بن مروان ،وظهور ديوان التوقيع فى عهد الرشيد .

كما تحدثت فى الفصل الثانى عن غلبة الموالى على الديوان منذ عهد هشام بن عبد الملك واشتهار سالم و تلميذه عبد الحميد بطريقتهما الجديدة فى أسلوب الرسائل التى اعتبرت أول خطوة فى تطوير الأسلوب .

و فى الفصل الثالث كشفت عن نشأة الديوان فى مصر ،حيث لم يكن

له وجود فعلى الا منذ عهد الطولونيين ،حين أصبح لهم استقلال داخلى ، فولوا أمره كبار الكتاب أمثال ابن عبد كان .

واهتم الباب الثانى بكتّاب الديوان ، حيث أوردت فى الفصل الأول منه صفات الكاتب وآدابه وثقافته ،ومنزلته الاجتماعية والأدبية واختصاصاته الرسمية .

أما الفصل الثانى ،فتناولت فيه أثر تنافس الأدباء وتزاحمهم على مناصب الديوان فى نهضة الأدب .

وخصصت الفصل الثالث لسرد أشهر الكتّاب فى القرن السادس الهجرى وتناولت بالدراسة ثلاثة من أبرزهم ،وهم : القاضى الفاضل ،والعماد الاصفهانى وضياء الدين بن الأثير ، اذ كانوا أعمدة الأدب فى هذا القرن ، مع ايضاح مدارسهم الفنية ،وما امتاز به أسلوب كل منهم من صفات والاستشهاد على ذلك بنماذج من أدب كل منهم باعتبارهم يمثلون أدب الديوان فى عصرهم أصدق تمثيل .

و قصرت القول فى الباب الثالث ، على الرسائل الديوانية ، حيث تناولت بالدراسة فى الفصل الأول ألوان الرسائل الديوانية فى هذا القرن ،ونماذجها ، من ولاية عهد وأمان ،ومشائر بالفتح ،وما لم يدخل من النماذج تحت مسمى هذه الأغراض أثبته فى آخر الفصل تحت عنوان " أغراض أخرى " ليتسنى لى ايراد أكثر النماذج .

أما فى الفصل الثانى ، فكان الحديث عن نظم الرسائل الديوانية بين العهدين ــ الفاطمى والأيوبى ــ .

أما الباب الرابع ، فقد أفردته لأثر الديوان فى تطور الأساليب

النثرية الذى يعدّ بيت القصيد من هذه الدراسة ، فكان الفصل الأول يعالج تطور الأساليب وطبعها بطابع الصناعة اللفظية ، منذ أواخر القرن الرابع وغلبتها فيما تلا من قرون ، مما دعانى لتتبع تطور الأساليب منذ نشأة النثر الفنى حتى نهاية القرن السادس الهجرى . . وكانت هذه المعالجة محاولة لتتبع مصادر تلك الصناعة اللفظية التى طبعت الأساليب بطابعها وبخاصة منذ أواخر القرن الرابع وهل هى عربية أم عجمية فارسية أم يونانية . ولما كان للرسائل الديوانية من أثر فى تطور الأساليب الأدبية عامة ، ولأن الصناعة اللفظية بدأت تسرى للفنون الأدبية الأخرى عن طريقها ، فقد كان الفصل الثانى يدور حول هذا الموضوع .

ولكى تتضح منزلة الرسائل الديوانية بين فروع الأدب ، ولكى نعرف ما قاله النقاد عنها قديما وحديثا ، فقد أوضحت ذلك فى الفصل الثالث.

وبعد : فقد كان بحثى يتطلب منى أن أرجع الى كثير من المراجع التاريخية والأدبية والنقدية فى جميع العصور لبيان تاريخ نشأة الديوان وتطوره وابراز أهميته ودوره فى نهضة الأدب ، وتطور الأساليب . . وتأثير الآداب الأخرى فى الأدب العربى ، لأن كتاب الديوان — كما أرى — هم أول حلقة اتصال بين الثقافات الأجنبية والثقافة العربية وعلى أيديهم انتقلت الى الأدب العربى بعض الظواهر الأسلوبية . . . مما دعانى للبحث فى معظم المراجع التى تحدثت عن الديوان أو الرسائل الديوانية واستقراء آراء النقاد فيها عبر العصور الاسلامية . . وقد استغرق منى ذلك وقتا وجهدا كثيرا .

وانى أرجو من الله أن أكون قد أبرزت تاريخ ديوان الانشاء عبر عصوره — باعتباره مركز اشعاع أدبى ومدرسة استقطبت بلغاء العربية ،

وتنافس عليه فحول الأدباء منذ انشائه ..

كما أرجو أن أكون قد أوضحت أهمية الرسائل الديوانية وقيمتها الفنية بين فروع الأدب العربي .. باعتبارها تمثل جنسا أدبيا كالشعر والخطابة .. له ميزاته وأسلوبه وأصوله .. وباعتبار أن تلك الرسائل لا تقل أهمية عن غيرها من فروع الأدب في جمال التعبير واحتوائها على الأمثال والأشعار والحكم والاشارات التاريخية، مما يجعلها من أهم الوثائق التاريخية في التراث الأدبي .

واني وان لم أستطع الادعاء بأنني قد أحطت بكل ما يتعلق بديوان الانشاء وما صدر عنه من رسائل أدبية فنية ، ولم أستعرض من نماذج الرسائل الا بعض رسائل القرن السادس الهجري .. فحسبي أني وجهت الانتباه الى أهمية هذا الفرع من تراث أدبنا الأصيل ..

وجمعت ما كان متفرقا من معلومات في المراجع المتعددة ، قديمة وحديثة ، عن تاريخ ديوان الانشاء وكتابه وثقافتهم ،وتأثيره في الأدب ، عبر العصور الاسلامية ،وأشرت الى أهم المراجع التي تناولت هذا الموضوع مخطوطة ومطبوعة .

ولعل هذا الجهد المتواضع يضاف الى الجهود التي اعتنت بالنثر الفني في التراث الأدبي الذي لم ينل حقه من الدراسة والاهتمام اذا ما قورن بالشعر ..

ولعله يعدّ من الخطوات الرائدة التي تسهم في الكشف عن مجاهل أدب وتراث القرون الوسطى من الحضارة الاسلامية الذي لا زال يحتاج الى كثير من البحث والاستطلاع والتمحيص والكشف ــ رغم ما يكتنف

ذلك من مشـقة وعناء كبيرين .

وفي الختام أتوجه بالشكر والعرفان لأستاذي الفاضل الدكتور محمد نبيه حجاب على ما أولانيه من رعاية وتوجيه ، وما بذله من جهد كثير في الاشراف على هذا البحث ،

وأسأل الله السداد والتوفيق ،وأستمد منه العون والتأييد .

مكة المكرمة .

عايض سعد سعيد الحارثي

التمهيد

التمهيــــــــــد

الكـتابة وألوانها (ديوانية واخوانيــــة)

كانت للكـتابة — قديما — اذا أطلقت أريد بها صناعة الانشاء[1] — الرسائل — والكـتابة خطيبة كانت أم فنيـة ، مظهر من مظاهر الحضارة ، وأثر من آثار العمران والمدنيـة ، وهـي نوعـان :

ديوانيــة : وهي التي تصدر من ديوان الانشاء وقد يطلــق عليها — الرسائل السلطانيـة — .

واخوانيــة : وهي التي تصدر من شخص لآخر ،وقد تتسع دائرة الرسائل لتشمل ما سوى الديوانيـة والاخوانية .

وقد وقـف الباحثون طويلا لتحديد بداية الكتابـة الفنية فـــي اللغـة العربيـة .. أهي معروفـة منذ العصر الجاهلي ، أم أنها وليـدة العهد الاسلامي ؟

فذهب بعضهم الى انكار معرفة الجاهليين للنثر الفني[2] ، لقلة المروى منه ،ولشكهم في صحة ما ورد منـه .. اذ يبدو على بعضـــه — مع قلة ما ورد منه — أثر الصنعة والتمحل (٣) ، وعلى البعض الآخــر الليونة والتفكك (٤) ،المنافيـة لما عرف عن العرب من الجزالة في الألفـاظ ،

---

(١) انظر صبح الأعشى ١/ ٥٢ .
(٢) انظر في الأدب الجاهلي ص ٣٦٩ ،ومن حديث الشعر والنثر ص ٢٤ ، والفن ومذاهبه ص ١٩ .
(٣) أنظر رسالة المنذر لانوشروان في جمهرة رسائل العرب ١/ ١٠ .
(٤) انظر ما دار بين الملك النعمان والربيع بن زياد في أمالي المرتضى ١/ ١٩٢ .

والقوة في التراكيب والبلاغة في القول .. من غير تكلف أو ضعف ، بل تجرى على ألسنتهم بالسليقة ، فيغلب عليها الطبع والسماحة ، و ذهب آخرون الى اثبات أن للجاهليين نثرا فنيا له خصائصه و قيمته الأدبية .. اذ لا يمكن عقلا أن يوجد النثر الفني عند الأمم المجاورة للعرب قبل الميلاد بخمسة قرون — كالفرس والهنود والمصريين واليونان — ثم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون (١) .

ولكل من الفريقين أدلة ، بعضها عقلي وبعضها حسي .. وأغلبها يدور حول صحة ما روى من نثر تلك الفترة .. فمع أن اسحاق ابن ابراهيم الكاتب يقول : " ولم يزل الشعر ديوان العرب في الجاهلية لأنهم كانوا أميين ، ولم تكن الكتابة فيهم الا لأهل الحيرة و من تعلم منهم " (٢) .

فقد وردت بعض النماذج لكتابة الجاهليين ، كصحيفة مقاطعة قريش لبني هاشم و بني عبد المطلب ، التي علقوها في الكعبة (٣) ، وكحلف ربيعة واليمن (٤) ، وكرسالة النعمان بن المنذر الى كسرى (٥) .
واذا جاز الشك في تلك النماذج التي وردت عن الجاهليين قبل ظهور الاسلام فمن الصعب الشك فيما ورد منها مرتبطا بأحداث ظهور الاسلام .. كصحيفة مقاطعة بني هاشم ورسالة حاطب بن أبي بلتعة الى أهل مكة

---

(١) انظر النثر الفني ١ / ٣٧ ومابعدها والنثر الفني وأثر الجاحظ فيه ص٦١ ، والعصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ٣٩٨ .
(٢) نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ص ٧٩ .
(٣) انظر الكامل في التاريخ ٢ / ٥٩ .
(٤) انظر الأخبار الطوال ص ٣٥٣ ومابعدها .
(٥) انظر الأغاني ٢ / ١٢١ .

ينذرهم بغزو الرسول صلى الله عليه وسلم لهم(١) .

وقد جاء الاسلام وفي مكة — وحدها — سبعة عشر كاتبا وفي المدينة أحد عشر(٢) . . ولا أظنهم يقصدون بالكاتب ، الكاتب الأدبي وانما الذى يعرف الكتابة .

على أن قضية بداية النثر الفني في اللغة العربية ومعرفة الجاهليين للكتابة الفنية من عدمها . . والشكوك التي أحاطت بما ورد عنهم من نصوص ، قضية يطول بنا البحث لو تقصيناها . . وخلاصة القضية كما يبدو لي . . أن الجاهليين عرفوا نوعا من الكتابة التي تعينهم على قضاء حوائجهم ،ولكنها محدودة الأغراض ، محصورة في نفر منهم ، لا ترقى الى النصوص الأدبية الفنية التي يعنى بها ويقصد بها الاجادة والامتاع والتأثير ،ولها رسوم وسمات خاصة . ولا يعنى هذا أن العرب في الجاهلية لم يشتغلوا بالأدب ، فقد بلغ الشعر في هذا العصر من الابداع مرحلة كبيرة ، كما وجدنا من آثارهم النثرية نماذج تتمثل في الخطب والأمثال والوصايا ، والقصص . . غير أن هذه النماذج النثرية نقلت عن طريق الرواية والحفظ مما يدل على أنها قيلت مشافهة .

أما الكتابة الفنية التي تعبر عن الأحاسيس والمشاعر ويقصد بها التأثير في الآخرين ، ويحتفل بصياغتها وطرق أدائها فلم تعرف الا في الاسلام.

---

(١) انظر صحيح مسلم ١٦٨/٧ . وانظر تفاصيل ذلك في اتحاف الورى (٤٩٠/١ .
(٢) انظر الفن ومذاهبه ص ١٧ .



وقد تعرّضت لنشأة النثر الفني لأنّ الرسائل الديوانية تعد من أهم أنواعه وأقدمها ، فقد كانت دواوين الانشاء ـ كما سنرى ـ مدارس أو جامعات يتخرج فيها كبار الكتاب ، وكان لهذه المدارس دورها الكبير في تطوير أساليب الكتابة الفنية .

وكتاب دواوين الانشاء هم أمراء البيان العربي ، وهم الذين ارتقوا بالنثر العربي الى أرفع درجات الكمال .

وحين نتصفح كتب تاريخ الأدب العربي عبر عصوره ، نجد كتّاب الدواوين يأخذون المكانة الأولى من عناية المؤرخين ، من أمثال عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وابن الزيات ، والصابي ، والصاحب بن عباد ، وابن العميد ، وغيرهم ، ونرى الرسائل تستحوذ على القسم الأكبر من اهتمامهم حتى أننا اذا رجعنا الى كتابة أولئك المؤرخين من الكتابة النثرية نجد وكأن المقصود بها انما هو الرسائل .

ولا يخفى أن المقصود بكلمة "رسائل" لا يقتصر على الرسائل الديوانية والاخوانية ، بل يشمل كل كتابة نثرية لا تبلغ أن تكون كتابا . وقد تكون فقها أو توحيدا ، كما قد تكون نقدا أو في مجالات علمية مختلفة ، وهناك كتب أطلق عليها رسائل مع أنها أكبر من أن تكون رسائل ، كرسالة الغفران ، ورسالة الهناء لأبي العلاء المعري ، وغيرها . ولعل سبب تسميتها رسائل أنها موجهة الى شخص يخاطبه المؤلف .. سواء كان هذا الشخص حقيقة أو متخيلا ، لمجاراة تيار العصر العام .

غير أن مصطلح اسم " الرسائل " أو الرسالة الانشائية أصبح مقصورا في عرف الأدباء والمؤرخين للأدب على الرسائل الديوانية والاخوانية ... وهذا ما يهمنا من النثر الفني في بحثي هذا .

وحسب ما وصلنا ، ان الرسائل الديوانية أقدم تدوينا من الرسائل الاخوانية .. حيث انها من متطلبات الحكم ، وتدبير أمور الدولة الخارجية والداخلية ، ولعل أول رسالة ديوانية — فيما نعلم — تلك المعاهدة التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزوله بالمدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود (١) .

فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب يستملون منه الرسائل التي كان الرسول يبعثها الى ملوك الأرض (٢) ، بالرغم من أنه لم يكن هناك ديوان بالمعنى المفهوم لكلمة ديوان .

والرسائل الاخوانية أدخل في باب الأدب من الرسائل الديوانية ، ذلك أن منشىء الرسالة الاخوانية انما يعبر عن احساسه و معاناته ،ويفضي بما يشعر به بعيدا عن الملق والتزلف ،فهو أصدق احساسا في التعبير عن أفكاره ،وأحر عاطفة وأكثر حرية من كاتب الرسائل السياسية

---

(١) الفن ومذاهبه ص ٢٣٠ عن مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوى والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف ص ١٣) وانظر جمهرة رسائل العرب ١ / ٣١ .

(٢) أول من لقب بالكاتب هو حنظلة بن الربيع بن صيفى التميمى ت نحو سنة ٥٠ هـ .
أنظر : أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٦ ،وانظر بعض تلك الرسائل في جمهرة رسائل العرب ١ / ٣١ ومابعدها .

الذى انما يعبر عن احساس غيره ويكتب ما يريد سيده لا ما يريده هو ، الا اذا كان الموضوع عاما يهم الأمة كلها ، كبشائر النصر والفتوح .

فالرسالة الاخوانية كقصيدة الفخر أو الشكوى ، أو الرثاء أو الوصف ، التي لا يقصد بها الشاعر سوى التعبير عن خلجات نفسه وترجمة احساسه واظهار عواطفه في ثوب من البلاغة والبراعة جميل .. ليشعر بالراحة عند انشادها ويحس بالمتعة والغبطة من استمتاع الآخرين واعجابهم بها .

أما الرسالة الديوانية ، أو السياسية ، فهي أشبه بقصيدة المدح التي قد لا تعبر عن الاحساس الصادق للشاعر ولا تصدر عن عاطفة حارة - كما هو الحال في الرسائل الاخوانية - ، برغم جودة سبكها وبلاغة صياغتها .

غير أن الرسائل الديوانية دخلت الأدب من أوسع أبوابه ، لاعتبارات كثيرة ، أهمها : أن منشئيها هم صفوة الأدباء وبلغاؤهم ، فالخلفاء والسلاطين لا يختارون لرئاسة ديوان الانشاء الا من برّز في الأدب علما وفنا ، واشتهر بالبلاغة والفصاحة وسعة العلم ، ودقة الفهم - كما سنرى - ، وكاتب هذا شأنه لا يتوقع أن ينشئ الا أدبا رفيعا بأسلوب بليغ جميل وان كان في موضوع سياسي أو ادارى يدخل في التاريخ أكثر من دخوله في الأدب .

ثم ان هذه الرسائل حينما تولى انشاءها أمثال عبد الحميد ، وابن الزيات ، والصابئ ، وابن العميد ، والقاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني ، وابن الأثير ، احتفلوا بأسلوبها وذهبوا يختارون

ألفاظها ، ويدققون في اختراع الاستعارات الجميلة ، والكلمات الطريفة ، وأخذوا يطعّمونها بما جاد من الشعر ، وملح من الأمثال ، كما ضمنوها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والاشارات التاريخية .. حتى ظهرت تلك الرسائل وكأنها عروس جليت بأنواع الزينة ، أو كأنها مائدة احتفل في اعدادها ، وزودت بما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من أطايب الطعام والشراب . فبهر بها الكتاب والأدباء فضلا عن القراء وعشاق الأدب والبلاغة .. حتى صار تقليدها مدار اهتمامهم ، فنسجوا على منوالها ، وتمثلوا أسلوبها حيث أصبح هو الأسلوب الأمثل ، وطغى حتى على الكتابة التاريخية . واشتهرت بعض الرسائل وتناقلها الأدباء ، وتدارسوها وحفظوها ، كما اشتهرت عيون القصائد وتناقلها الرواة .

زد على ذلك ما أحدثه أولئك الكتّاب في أسلوب النثر من تغيير لم يألفه العرب من قبل ، كما فعل عبد الحميد الكاتب ، من الاطالة في التحميدات والازدواج ، والاحتفال الى حد ما بالصور البيانية .

ثم أتى بعده ابن العميد ، فقرب أسلوب الرسائل من أسلوب الشعر ، وجاء القاضي الفاضل ومعاصروه من كتاب القرن السادس الهجري فجعلوا من الرسالة قطعة شعرية مزخرفة بأنواع البديع ومحلاة بالصور البيانية الجميلة بحيث لا تختلف عن القصيدة الا في التقفية والوزن ، مع أن فقراتها لا تخلو من الوزن ، والفواصل في أواخرها تقوم مقام التقفية ، فطغت هذه الرسائل على الشعر وأخذت دوره ، وأصبح تاليا لها في المرتبة .. فكما كان سيف الدولة الحمداني (ت ٣٥٦) هـ يستصحب المتنبي في غزواته ليصفها ويشيد بها ويقوي عزائم المحاربين

بشعره المؤثر في النفوس ، استصحب صلاح الدين العماد الكاتب والقاضي الفاضل وابن الأثير ليقوموا بنفس الدور .

وبذلك استطاع كتاب الديوان احتلال المنزلة الأولى في الأدب ، كما احتلوا المراكز المهمة في الدولة ، فشدوا اليهم طموحات الأدباء ، وأصبحوا قدوة لهم ومثالا . فما من أديب الا تمنى أن يبلغ هذه المنزلة .. وكان جل اهتمام ناشئي الأدباء ، أن يترسموا خطى هؤلاء الكتاب الكبار طمعا في بلوغ تلك المنزلة .

وهكذا أصبحت الرسائل الديوانية جنسا أدبيا مستقلا وتقدمت الرسائل الاخوانية ، لاحتضان الخلفاء لكتّابها ، واكرام المجيدين فيها ، ولكثرة عناية الأدباء والنقاد والمؤلفين بها ، وما كان ذلك الا لفتنتهم بها كما فتنوا فيما بعد بالمقامات الأدبية .

وكان من الطبيعي أن تكون الرسائل الديوانية فرعا تابعا للنثر الفني ، تستفيد من أساليبه المتجددة ، وتقتبس من أخيلته وصوره ومعانيه ، ولكن الذي حصل هو العكس ، فقد أصبحت هذه الرسائل هي الأصل الذي يقاس عليه النثر .. يقول صاحب كتاب الحضارة الاسلامية : " كانت كتابة الرسائل مجالا للتمرين على اظهار صور البلاغة وأساليبها "(١) . ويقول في موضع آخر : " على أن الرسائل الديوانية كانت هي مقياس العرف اللغوى العام "(١) . ولا غرو ـ ما دام منشئوها هم رواد الأدب وقادة البيان ـ أن تكون لها هذه المنزلة ، وهذا الاهتمام .

---

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ١/٤٤٥ .

ومن هنا كان لها هذا المكان الرفيع في الأدب العربي حتى أنه لم يحظ أي جنس نثري - فيما ظهر لي - من عناية وكثرة مشتغلين ما حظيت به من تدوين وتأليف ودراسة وتحليل - اذا استثنينا العصر الحديث - . وهذه الرسائل الديوانية ، هي التي سوف تكون مدار بحثي هذا .

الباب الأول

نشأة الديوان وتطوره

ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول :-

تنظيم ديوان الرسائل في عهد معاوية وتسميته بديوان الإنشاء في عهد عبد الملك وظهور ديوان التوقيع في عهد الرشيد .

الفصل الثاني :-

غلبة شخصية الموالي على ديوان الإنشاء .

الفصل الثالث :-

نشأة الديوان بمصر .

الفصل الأول

تنظيم ديوان الرسائل في عهد معاوية وتسميته بديوان الإنشاء في عهد عبد الملك وظهور ديوان التوقيع في عهد الرشيد .

الفصل الأول

تنظيم ديوان الرسائل في عهد معاوية ، وتسميته بديوان الانشاء في عهد عبد الملك ، وظهور ديوان التوقيع في عهد الرشيد .

الديوان : اسم للموضع الذى يجلس فيه الكتاب (١) ، معرب من الفارسية وهو من الأسماء التي لا يعتد بعجمتها لدخول "أل" التعريف عليها (٢) . قال الأصمعي : " أصله فارسي ومعناه "الشياطين" أى أن الكتاب يشبهون الشياطين في نفاذهم" (٣) .

وذهب قوم الى أن الديوان عربي .. قال النحاس : " المعروف في لغة العرب أن الديوان الأصل الذى يرجع اليه ، ويعمل بما فيه ، ومنه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنه : " اذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فان الشعر ديوان العرب" (٤) .
ويقال دونته أى أثبته واليه يميل كلام سيبويه (٤) .

---

(١) صبح الأعشى ١/٨٩ وآثار الأحكام السلطانية ص ١٩٩ .
(٢) أدب الكتّاب للصولي ص ١٨٠ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٨ ، والمعرب من الكلام الأعجمي ص ١٥٤ ، وأساس البلاغة ص ١٩٩ ، والقاموس المحيط ٢/٢٢٦ .
(٤) صبح الأعشى ١/٨٩ — ٩٠ ، ومنه قول عبد الله بن مسعود : " مكتوب في ديوان المحسنين : من عفا عفي عنه " البيان والتبيين ٢/٥٧ .

وكلام القلقشندى يوحي بأنه يرجح الرأى القائل : ان أصله عربي. ولا حجة له .. لا في كلام النحاس ،ولا في النص الذى أورده عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، فمعروف أن الديوان لفظ معرّب ، وأن النص المنقول عن ابن عباس ،لا يثبت أن أصله عربي ، ولكنه يثبت معناه الذى اكتسبه بعد أن عرّب .

أما كلمة الانشاء : فالمفهوم من لفظها لغويا أنها تعني الخلق من العدم ،كما قال تعالى ﴿ انا أنشأنا هن انشاء ﴾[1] .

أما معناه الاصطلاحي الذى نفهمه اليوم ، فهو : الكتابة النثرية بأسلوب بليغ ، أو هو التعبير عن المعاني بأسلوب نثرى جميل ،و يمكن اختصاره في ثلاث كلمات هي : فن التعبير النثرى .

قال الصولي : " أنشأ الكتاب ابتدأه على غير مثال يحتذى به "[2] .
ويقول القلقشندى : " الانشاء : من أنشأ الشيء ينشئه ، اذا ابتدأه واخترعه ، واضافة الديوان الى الانشاء ، اما أن الأمور السلطانية من مكاتبات وولايات وغيرها تنشأ عنه وتبتدىء منه ، واما أن الكاتب ينشىء لكل واقعة مقالا "[3] .

وقديما كانت كتابة الانشاء اذا أطلقت يفهم منها كتابة الرسائل الديوانية . يقول القلقشندى : " أهل التحقيق من علماء

---

(١) سورة الواقعة آية ٣٥ .
(٢) أدب الكتاب ص ١١٨ .
(٣) صبح الأعشى ١/ ٩٠ .

الأدب ما برحوا يرجحون كتابة الانشاء ويفضلونها ويميزونها على سائر الكتابات ويقدمونها ، ويحتجون لذلك بأمور ..."[١] . وقد فرق صاحب كتاب "صناعة الكتابة" بين مدلولي "كتابة الانشاء" و "انشاء الكتابة" فكاتب الانشاء اتباعي ، لأنه يتصرف في المعاني المتداولة ويعبر عنها بألفاظ غير الألفاظ التي عبر بها من سبق الى استعمالها ، أو لأنه مختص بالسلطان .

أما منشىء الكتابة فابداعي لأنه يخترع المعاني الابكار للأمور الحادثة التي لم يقع مثلها ، ولا سبق كاتب الى كتابتها[٢] .

وكان ديوان الانشاء يعرف "بديوان الرسائل" حتى زمن عبد الملك بن مروان فأطلق عليه "ديوان الانشاء"[٣] .

أول من وضع الديوان :

ظهر الديوان أول ما ظهر عاما لا يختص بكتابة الرسائل فقط .. بل كانت أعماله متعددة بتعدد حاجات الدولة الادارية والتنظيمية ، ثم ما لبث أن تطور واستقلت عنه فروع تدريجيا ، فتعددت الدواوين بتعدد

---

(١) صبح الأعشى ١ / ٥٤ وما بعدها ، وانظر كتاب التعريفات حيث عرف الكتابة بقوله : "يقال في عرف الأدباء لانشاء النثر ص ١٩٢ ، ويعرفها الحميدي بأنها التصرف في معاني الخطاب ومقابلة كل طبقة بما يؤثر في أنفسها ويستميل خواطرها .. فان انضاف الى ذلك سرعة الخاطر وقوة البديهة كان أتم / كتاب تسهيل السبيل ص ١١ .

(٢) صناعة الكتابة ص ٥٩ ومابعدها .

(٣) انظر صبح الأعشى ١ / ٩٠ ، وتاريخ الأدب العربي للسباعي بيومي ٣ / ١٩٣

الأعمال ، وحاجات الدولة على مر العصور .. فهناك ديوان الجند وديوان الخراج ، وديوان الزكاة ، وديواة الخاتم ... الخ [١] .

والعرب لم يألفوا الدواوين الا بعد أن أصبح لهم دولة منظمة لها مسئولياتها واقتصادها وشئونها التي تحتاج معها الى تنظيم وضبط . وقد ظهرت تلك الدولة متكاملة في ظل الخلافة الاسلامية .. ففكر الخلفاء في ممارسة أعمال الدواوين التي سبقتهم في وضعها الحضارات المجاورة [٢] .

ويذكر الموءرخون أن السبب المباشر لوضع الديوان هو أن المال الوارد على بيت المال في عهد عمر رضي الله تعالى عنه (١٣–٢٣هـ) زاد الى درجة لم يعد في استطاعة الخليفة توزيعه على المسلمين بالطريقة البدائية ، واحتار في الفاضل بعد اعطاء كل ذى حق حقه .

ويكاد يجمع الموءرخون أن أول من دون الدواوين في الدولة الاسلامية هو عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، باشارة من خالد بن الوليد ، وذلك حين أتى عامله أبو هريرة رضي الله تعالى عنه بمال من البحرين بلغ مائة ألف درهم سنة ٢٠ هـ ، فقد صعد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه المنبر ثم قال : " أيها الناس قد جاءنا

---

(١) انظر تيارات ثقافية بين العرب والفرس ص ٢٢٣ .

(٢) وقد يكون المناذرة في العراق والغساسنة في الشام مارسوا هذا العمل نظرا لارتباطهم بالحضارتين الفارسية والرومية ، وقد كان النعمان بن المنذر يرسل رسائل الى ملك الفرس . أنظر العقد الفريد ١/ ١٧٠ .

مال كثير ، فان شئتم كلناه كيلا ، وان شئتم نعد عدا " فقام اليه رجل (١) فقال : " يا أمير المؤمنين قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً لهم " . قال : دونوا الدواوين (٢) ، وقيل أن القصة حدثت في عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه (٣) .

وأول ديوان وضع في الاسلام هو ديوان الجيش في عهد عمر (٤) رضي الله تعالى عنه . ويرى القلقشندى أن أول ديوان وضع في الاسلام هو ديوان الانشاء ، اعتمادا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكاتب أمراءه وأصحاب السرايا من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، ويكاتبونه كما كتب صلى الله عليه وسلم الى من قرب من ملوك الأرض ، يدعوهم الى الاسلام (٥) .

---

(١) هو خالد بن الوليد حيث قال : " قد كنت بالشام ورأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا جنودا ، فدون أنت ديوانا وجند جنودا" " لمع القوانين " ص ٦٥ . وقد أشار عليه علي رضي الله تعالى عنه أن يقسم كل سنة ما اجتمع من المال ولا يمسك منه شيئا . أنظر نفس المرجع ص ٦٥ ، وانظر هناك الكتاب الذين أوكل اليهم أمر الكتابة .

(٢) أنظر الوزراء والكتاب ص ١٧ ، وأدب الكتاب ص ١٨٩ ، نهاية الأرب ١٩٧/٨ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩ ، ولمع القوانين المضيئة ورقة ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) أنظر أدب الكتاب ص ١٨٩ وما بعدها .

(٤) نهاية الأرب ٩١/١ .

(٥) صبح الأعشى ٩١/١ .

واعتمادا على ما رواه عن القضاعي من أن الزبير بن العوام ، و جهيم بن الصلت ، كانا يكتبان للنبي صلى الله عليه وسلم ، أموال الصدقات ، وأن المغيرة ابن شعبة ، والحصين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات ويقول : " فان صح ذلك فتكون هذه الدواوين أيضا قد وضعت في زمنه صلى الله عليه وسلم الا أنها ليست في الشهرة وتواتر الكتابة في زمانه صلى الله عليه وسلم ، كما تقدم من متعلقات كتابة الانشاء " (١) .

فرأي القلقشندى اذا : أن ديوان الانشاء وجد زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن ديوان الجيش وجد زمن عمر رضي الله تعالى عنه ، الا اذا ثبتت رواية القضاعي ، ورواية القضاعي أوردها غيره فهي صحيحة غالبا ، وهو أول من اتخذ بيت المال .. وقيل بل أبو بكر رضي الله تعالى عنه (٢) .

والكلام عن أول من وضع ديوان الجيش في الاسلام ليس من ورائه طائل ، فسواء أكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب للأموال أم لم يكن ، فان ديوان الجيش لم يعرف الا في عهد عمر رضي الله تعالى عنه . فلا يعني وجود كاتب للأموال وجود ديوان للخراج ، اذ لا أحد يدرى ماذا كان يكتب ذلك الكاتب ، وبخاصة أن الأموال كانت تهمل

---

(١) صبح الأعشى ١/٩١ ، وانظر ما رواه الجهشيارى من أن معيقيب بن أبي فاطمة كان يكتب مغانم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الوزراء والكتاب ص ١٢ .

(٢) انظر الوسائل الى معرفة الأوائل ص ١٠١ ، والراجح أنه في زمن أبي بكر رضي الله تعالى عنه لأن أول من ولي بيت المال ابن الجراح وذلك في عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه . انظر نفس المرجع ص ١٠٦ .

عهد عمر رضي الله تعالى عنه تنفق في وجوهها منذ الحصول عليها ،ولم تدخر الا في عهد عمر ، كما دلت على ذلك الروايات السابقة .
وحين زادت الأموال وادخر المال احتيج الى كتاب لتقييده و معرفة ما يرد بيت المال وما يخرج منه و معرفة وجوه الانفاق منه و هذه هي وظيفة ديوان الخراج .

أما أوليّة ظهور ديوان الانشاء ، فلنا منه موقف . ذلك أننا نعرف أن ديوان الانشاء تشكل ووجد بمعناه المفهوم على أقرب التقديرات في خلافة معاوية[1] (٤١—٦٠ هـ) ، والقلقشندى يرى ،أنه وجد منذ زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بدليل اتخاذه عليه الصلاة والسلام كتابا لرسائله ،حتى قيل انهم بلغوا نيفا و ثلاثين كاتبا[2] ، و كانت تصدر عنه الرسائل الى ملوك الأرض تدعوهم للاسلام ، والى امراء سراياه ، وكذلك الحال في عهد خلفائه[3] ، نضيف الى ذلك ،أن أول من لقب بالكاتب حنظلة بن الربيع بن المرقع ابن صيفى ابن أخي أكثم بن صيفي .. اذ كان خليفة كل كاتب من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، اذا غاب عن عمله فغلب عليه لقب الكاتب، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يضع عنده خاتمه[4] ، وكل هذه الأشياء من متعلقات ديوان الانشاء .

---

(١) أنظر تيارات ثقافية ص ٢٢٤ .
(٢) صبح الأعشى ٩٢/١ .
(٣) انظر نفس المرجع ٩١/١ .
(٤) انظر الوزراء والكتاب ص ٢٣ ، ١٢٠ .

فاذًا وجد مسمى الديوان وتأخرت التسمية الى عهد معاوية أوعهد عبد الملك بن مروان ، وهذا ما ذهب اليه القلقشندى ، أما ما نفهمه نحن ففير ذلك ، اذ أن كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ما كانوا ينشئون الرسائل ، بل كانوا يكتبونها كما يمليها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم . ومن ذا الذى يجرؤ على تغيير صيغة كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سواء في الأسلوب أو في المعنى .. ورسائل الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن لتعنى بالنواحي الجمالية ، أو الأسلوبية ، أو على الأقل لم يكن هذا من أهدافها .. بل كانت موجزة على قدر المعاني المرادة (٢) .

فوظيفة الكاتب حينئذ لا تتعدى الاستملاء ، فهي أقرب الى وظيفة الناسخ ، ويظهر أن هذا الحكم ينسحب على كل الكتاب الى عهد معاوية ، على الأقل . فالرسائل في هذه الفترة لا تعدو أن تكون حاجة ادارية ولم تكن فنا مقصودا "(٣) . وقد عرفنا أن الانشاء غير ذلك . يقول القلقشندى : " ولم يزل أمر المكاتبات في الدولة الأموية ، جاريا على سنن السلف الى أن ولي الوليد بن عبد الملك (٨٦—٩٦ هـ) فجود القراطيس وجلل الخطوط وفخم المكاتبات "(٤) .

---

(١) انظر جمهرة رسائل العرب ص ٣١ ومابعدها للاطلاع على نماذج رسائله صلى الله عليه وسلم.

(٢) الرسائل والمقامات ص ٤ .

(٣) نفس المرجع ص ٤ .

(٤) صبح الأعشى ٦ / ٣٩١ .

فلم يصدق على الكاتب أن يلقب بكاتب انشاء ، الا بعد أن أصبح هو الذى ينشيء الرسالة بأسلوبه و يجملها ببلاغته و يعمل فيها فكره حتى يظهرها في الشكل الذى قد لا يستطيع الخليفة أو السلطان أن يظهرها فيه ، اما لأنه ليس عنده الوقت الذى يستغرقه الكاتب في انشاء الرسالة ، واما لأن مقدرته البلاغية والأدبية لا ترقى الى مقدرة الكاتب [1] — وذلك بعد مضي صدر الاسلام — ولم تكن الحال كذلك زمن الرسول صلى الله عليه وسلم و خلفائه .. اذ لم يكونوا محتاجين لذلك الكاتب الذى يدبج لهم تلك الرسائل الطوال ، لأنهم مستغنون ببلاغتهم و منطقهم .. فلما كانت خلافة معاوية واتسعت الدولة وبدأ الأمويون يستفيدون من الحضارات المجاورة وخاصة حضارة فارس عينوا على كتابة الرسائل كاتبا معروفا . يقول الجهشيارى : "وكان يكتب لمعاوية على الرسائل عبد الله بن أوس الغساني" [2] .

وقد اعتمد بعض المؤرخين المحدثين على هذا النص ليثبتوا أن معاوية هو أول من اتخذ ديوانا للرسائل [3] .. وليس فيه ما يدل على ذلك ، فليس معنى اتخاذه كاتبا لرسائله أنه أنشأ ديوانا للرسائل ،

---

(١) يقول أبو الحسن هلال الصابى : "وقرأت في أواخر كتب عبد الملك بن مروان "وكتب سالم مولى أمير المؤمنين" وهذا يعني أن سالما هو الذى تولى انشاء الرسالة . أنظر رسوم دار الخلافة ص ١٧٥ .

(٢) انظر الجهشيارى ص ٢٤ .

(٣) انظر تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف (العصر الاسلامي) ص ٢٠ والعصر العباسي ص ٥ ، والفن ومذاهبه ص ٩٩ ، وقادة البيان ص٢١ و تيارات ثقافية ص ٢٢٤ ، ٢٦٢ .

وقد عرفنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ كتابا وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده .. والمعبرة باستقلال الكاتب بانشاء الرسالة . ويظهر أن هذا تأخر الى أواخر خلافة بني أمية . وان كانت كلمة " يكتب على الرسائل " توحي بأن هناك شيئا من التنظيم مما يمدّ نواة لديوان الانشاء بمعناه المعروف ، والشيء الذي لا نجزم به ما اذا كان الكاتب يستملي تلك الرسائل من الخليفة أم أنه ينشوءها بنفسه وبأسلوبه ؟؟ .

معاوية أول من اتخذ ديوانا للخاتم :

لقد حظيت الدواوين زمن معاوية بزيادة عناية ، فقد نظّم ديوان الرسائل — كما عرفنا — ولعل هذه التسمية تشعرنا أن هذه الرسائل لم تكن رسائل انشائية بأسلوب محتفل به .. ولم يكن الكتاب قد فوض اليهم أمر انشائها .. ولعل مما يدل على اهتمام معاوية بأمر الدواوين أنه أول من أنشأ ديوان الخاتم ، وذلك أنه كتب لعمرو بن الزبير كتابا الى زياد واليه بالعراق يأمره فيه باعطاء ابن الزبير مائة ألف درهم ففيرها عمرو الى مائتي ألف درهم ، فلما علم بذلك معاوية اتخذ ديوان الخاتم ليضمن عدم فض كتبه (١) كما أنه أول من وضع البريد في الاسلام (٢) .

---

(١) الجهشياري ص ٢٤— ٢٥ .

(٢) انظر الوسائل الى معرفة الأوائل ص ١٠٢ .

تسميته بديوان الانشاء في عهد عبد الملك وتعريب الدواوين :

وأول من أطلق على ديوان الرسائل " ديوان الانشاء " عبد الملك بن مروان [١]؛ الا أنه لم يظهر لكتّاب ديوان الانشاء شخصية بارزة .. ولم يبرز دورهم في رقي الأساليب الأدبية الا في زمن أبي العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) وتلميذه عبد الحميد الكاتب ، اذ غدت صناعة الانشاء على أيديهما حرفة عظيمة لا يجيدها كل واحد ،وأصبحت لها قيمتها الأدبية خلاف أهميتها السياسية . بل لعل أهميتها الأدبية الفنية تفوق أهميتها السياسية .

ولعبد الملك فضل كبير في تطوير الدواوين وتعريبها ، فقد حدث في عهده أن عربت من اللغات الرومية والفارسية والقبطية الى العربية سنة ٨١ هـ [٢] .

وتذكر المراجع عن سبب ذلك ،أن سرجون بن منصور النصراني كان يتقلد الديوان لعبد الملك في الشام،فأمره عبد الملك يوما بشيء فتثاقل عنه ،وتوانى فيه ، فعاد لطلبه ، وحثه فيه ، فرأى منه تفريطا وتقصيرا ،فقال عبد الملك لأبي ثابت ، سليمان بن سعد الخشني ، وكان يتقلد له ديوان الرسائل ، أما ترى دلال سرجون علينا ؟

---

(١) أنظر تاريخ الأدب العربي للسباعي بيومي ١٩٣/٣ .
(٢) انظر الوسائل الى معرفة الأوائل ص١٠٤ ... وفيه أن أول مسلم ولي الدواوين كلها وحولها الى العربية هو سليمان بن سعد الخشني .

وأحسبه قد رأى ضرورتنا اليه والى صناعته ، فما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت الحساب الى العربية ، قال : افعل . فحوله ، فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام (١) .

وفي العراق كان يتقلد الديوان زاذان بن فروخ وينوب عنه صالح بن عبد الرحمن ، وكان الحجاج يميل الى صالح ، فقال صالح لرئيسه يوما : اني لست آمن أن أزيلك عن محلك لتقديم الحجاج اياي وأنت رئيسي . فقال زاذان : لا تفعل ، فانه أحوج اليّ مني اليه .. قال : فكيف ذلك ؟ قال : لا يجد من يكفيه الحساب ، فقال صالح : اني لو شئت حولته بالعربية . قال : فحول منه سطرا ، فحول منه شيئا كثيرا ، فقال زاذان لاصحابه : (التمسوا مسكنا غير هذا) (٢) .

أما في خراسان ، فبقيت الدواوين تكتب بالفارسية الى عهد هشام (٣) ، ومع أن تعريب الدواوين لم يتم الا في عهد عبد الملك الا أن الفكرة قديمة ، وجدت منذ عهد عمر رضي الله تعالى عنه . ذكر صاحب كتاب أعتاب الكتاب ، أن أبا موسى الاشعري كتب الى عمر رضي الله تعالى عنه ،

---

(١) انظر العقد الفريد ٣ / ١٠ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩ ، وأدب الكتاب ص ١٨٩ ، ١٩٢ ، ونهاية الارب ٨ / ١٩٩ ، والوزراء والكتاب ص ٤٠ ، والفخري ص ١٢٢ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٣٨ ، وفي مقدمة ابن خلدون : " أطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم " ص ١٠٩ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ٤٠ ومابعدها .

أن المال كثير من يأخذه ، فلسنا نحصيه الا بالاعاجم ، فاكتب الينا بما ترى ، فكتب اليه عمر رضي الله تعالى عنه : " لا تعيدوهم في شيء سلبهم الله اياه ، واخشوهم على دينكم ، وأنزلوهم حيث أنزلهم الله ، وتعلموا ، فانما هي الرجال "(١) .

ولا ندري لماذا تأخر تنفيذ فكرة عمر الى عهد عبد الملك ، ولعل الخلفاء انما استعانوا بالمسلمين من الأعاجم في دواوين الخراج أو انهم لم يجدوا من يكفيهم هذه المهمة لصعوبتها ، لما تتطلبه من تعلم وطول مران .

ظهور التوقيع في عهد الرشيد :

معنى التوقيع لغة : التأثير القليل الخفيف (٢) ، وفي الاصطلاح : الكتابة على جوانب الرقاع والقصص (٢) بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات بعبارات موجزة بليغة وقد تكون ببيت من الشعر مثلا أو آية .. وهي عادة من عادات ملوك الفرس ، فقد كانت تعرض عليهم الكتب في شكوى حال أو طلب نوال أو غيرها من أمور الرعية ، فيوقعون عليها

---

(١) ص ١٠٥ ، وقد قال رضي الله تعالى عنه لأبي موسى الأشعري حين علم أنه اتخذ كاتبا نصرانيا ... ولما عوتب قال : " لي كتابته وله دينه " . لا أكرمهم وقد أهانهم الله ، ولا أعزهم اذ أذلهم الله ، ولا أدنيهم اذ أقصاهم الله ، أنظر المستطرف ١ / ١١١ .

(٢) سموها بذلك لما تحكي من قصة الشاكي وظلامته ، كما سموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثوب ، العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ص ٤٨٩ ، وانظر الى معانيه في لسان العرب ، مادة " وقع " .

بعبارات موجزة تفي بالغرض (١) .

ونفى صاحب كتاب تيارات ثقافية أن يكون العرب أخذوها عن الفرس لمعرفتهم بها منذ عهد عمر (٢) رضي الله تعالى عنه ، والحق أنها معروفة عند الفرس قبل أن يعرفها العرب ، فقد يكون العرب نقلوها عن الفرس أو أنها حاجة ادارية لكل دولة ذات نظام وتدبير ، يحتاجها السلطان في الكتابة على المظالم وغيرها من غير أن يتعلمها من غيره .

والتوقيع ، كما يقول القلقشندى ، أمر جلل ، اذ هو سبيل الاطلاق والمنع ، والوصل والقطع والولاية ، والعزل الى غير ذلك من الأمور المهمات (٣) . وهو من الناحية الفنية ، خط معاكس لمنهج الرسائل الديوانية ، فحين نرى الرسالة تطول وتتشعب ، ويكرر المعنى في أكثر من عبارة ، لدرجة الاطلال أحيانا ، نرى التوقيع لا يتعدى أحيانا بضع كلمات ، ومع ذلك يكون معبرا عن معان قد تحتاج الى صفحات ، اذا أراد الكاتب الاسترسال . ولهذا أصبح فنا قائما بذاته ، يتبارى فيه كبار الكتاب والوزراء ، خاصة في عهد الرشيد ، وقد اشتهر جعفر بن يحيى البرمكي بتوقيعاته التي كان يوقعها على القصص بين يدى الرشيد ، فكان البلغاء يتنافسون في الحصول عليها حتى قيل

---

(١) أنظر صبح الأعشى ١/١١٠، ١١١ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٢١٢ ، وتاريخ الأدب العربي للزيات ص ٢١٩ ومابعدها ، والعصر العباسي الأول ، لشوقي ضيف ص ٤٨٩ .

(٢) انظر تيارات ثقافية ص ٢٦٥ ومابعدها .

(٣) الصبح ١/١١٠ ، وقانون ديوان الرسائل ص ١٤٧ .

انها كانت تباع كل قصة منها بدينار [١] ، وذلك لبلوغها الغاية في الايجاز مع الجمال والبلاغة .

ولا نستطيع أن نحدد ظهور التواقيع بزمن ، فقد عرفت كما أسلفت عند الفرس قبل أن يعرفها العرب ، وقد نقل لنا ابن عبد ربه جملة توقيعات بدأها بتوقيعات عمر بن الخطاب [٢] رضي الله تعالى عنه ، الا أنها اشتهرت في العصر العباسي ، وبخاصة في عهد الرشيد ، وذلك أن العباسيين استكثروا من النقل عن النظم والادارة الفارسية ، فضلا عن أن الحضارات في ذلك العهد قد امتزجت و تبلورت ، وطبعت بالطابع الاسلامي ،وكونت الحضارة الاسلامية بحيث خفي الأصل الذى أخذت عنه .

ومن أمثلة التواقيع :

وقع جعفر بن يحيى في قصة محبوس : " العدل أوثقه والتوبة تطلقه " ، ووقع في كتاب رجل شكا اليه بعض عماله : " قد كثر شاكوك و قل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت " [٣] .

و وقع هارون الرشيد في نكبة جعفر بن يحيى : " أنبتته الطاعة و حصدته المعصية " [٤] .

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢١٢ .
(٢) العقد الفريد ٣ / ٣٣ وما بعدها .
(٣) نفس المرجع ٣ / ٤٠ .
(٤) نفس المرجع ٣ / ٣٧ .

ولخطورة وأهمية التوقيع على الشكايات، كان يتولاه الخلفاء، والرؤساء بأنفسهم، الى أن كان عهد الرشيد، فوكل ذلك بالكتاب. يقول الجهشيارى في سبب ذلك: " ولم تزل كتب الملوك والرؤساء تجرى في التوقيعات على أن يوقع الرئيس في القصة بما يجب فيها، ويذكر المعاني التي يأمر بها ولم يكن للكتاب في ذلك شيء أكثر من أن يكتبوا تلك الجملة من التوقيع الفاظا تشرحها ويقرب من العامة فهمها، ولا يخرجها عن معنى قصد الرئيس الى أيام الرشيد، فان المتظلمين كثروا على باب جعفر وتأخر جلوسه أياما، ثم جلس، وكانت القصص قد كثرت فنقض أكثرها، وجاءه رسول الرشيد يأمره بالمصير اليه.. ثم جاءه الرسول ثانية يستحثه، وكان في القصص قصة طويلة دقيقة الخط رديئته، وأعجله أن يستتمها وكره — وقد نظر اليها في يده — أن تطرح فيما لم ينظر فيه، فوقع على ظهرها.:

" يعمل في ذلك بما يعمل في مثله على سنن الحق وقصده ووجه الانصاف وسبيله ان شاء الله، فورد على الكتاب من ذلك ما لم يرد مثله، وامتثلوه، ثم صار ذلك رسما للرؤساء"(١).

على أنه لا معنى لشرح الكتّاب للتوقيع لأنه مستغنٍ عن الشرح وافٍ بالغرض، والا لم يعد من الكلام البليغ، الا اذا كان الكتاب يعيدون صياغته بأسلوب أجمل بحيث يحذفون بعض الألفاظ ويضعون أخرى يرون أنها أجمل وأوقع، أو أن من توجه اليه عاميٌ لا يفهمها فتشرح له.

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢١١.

ومن خصائص أسلوب التواقيع ، التزام السجع في أواخر فقراته .

ومن طرائف ما يروى من التزام السجع في التوقيع ، أن الصاحب ابن عباد ، كتب في رقعة لقاضي بمدينة قم :

" أيها القاضي بقم ، قد عزلناك فقم " ، فكان القاضي يقول اذا سئل عن سبب عزله : أنا معزول السجع من غير جرم ولا سبب "(١) .

والحقيقة أن التوقيع فن جميل .. يخصب الأدب ويمتع النفوس .. ويدل على بلاغة ومقدرة أدبية بحيث لا يتصدى له الا من أوتي موهبة وطبعا يمكنه من التحكم في الكلام بحيث يجمع بين الايجاز والبلاغة وجودة السبك وشرف المعنى .. وهي من التراث النفيس الذى تركه لنا الكتاب والخلفاء على مر العصور . وتعتبر عودة الى سليقة العرب وجزالتهم وميلهم الى الايجاز في القول مع البلاغة ووضوح المعاني ... بعد أن كاد العرب ينسون ذلك في زحمة تلك الرسائل التي تفرع القول وتطيله وتسهب في التعبير وتشعبه . غير أنها كادت تقف عند القرن الرابع الهجرى ، فلم يؤثر عن القرن الخامس والسادس تواقيع للكتاب ولم نعثر في المصادر على ما يدلنا على عنايتهم بها .

---

(١) معجم البلدان ١٦١/٧ .

الفصل الثانى

غلبة شخصية الموالى على ديوان الإنشاء .

الفصل الثاني

غلبة شخصية الموالي على ديوان الانشاء .

قد يفهم من هذا العنوان ما يوحي بتأييد الرأى الذى يقول : ان العرب لم يسهموا مساهمة فعّالة في بناء الحضارة الاسلامية ،وان هذه الحضارة انما قامت على أكتاف الموالي من الأعاجم ، وخاصة الفرس منهم . . اذ أن ظهور ديوان الانشاء من أهم مظاهر تلك الحضارة .

وهو رأى قديم تبناه ابن خلدون حيث قال : " من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملّة الاسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية ،الا في القليل النادر ، وان كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية ،وصاحب شريعتها عربي ".[1] ويعلل ابن خلدون ذلك بأن العرب في جاهليتهم وعصر الصحابة والتابعين ،لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دفعوا اليه ولا دعتهم اليه حاجة ، وأن العلوم حضرية ،وتعدّ من الصنائع ، والعرب أبعد الناس عن الصنائع ،والحضر لذلك العهد ، هم العجم أو من في معناهم من الموالي . . فلم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الأعاجم . وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٢ ، وانظر ما قاله في ذلك صاحب كتاب كشف الظنون ١ / ٤١ .

وسوقهـا ، وخرجوا اليها عن البداوة ،فشغلتهم الرئاسة في الدولة العباسية وما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع ... ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم المولدين (١) . وقد تبع ابن خلدون على رأيه كثير من الكتاب .

فطه حسين ، أيضا يرى أن معظم طبقة عمال الديوان و كتاب الخلفاء أعاجم (٢) .

و لذلك فان ما أصاب الكتابة العربية من الصنعة والزخرف الفني انما هو من تأثير الكتاب الأعاجم وبخاصة الفرس (٣) .

ويقابل هذا الرأى ،رأى آخر يرى: أن حملة العلم في الملة الاسلامية جلهم من العرب لا العجم (٤) .

فالقضية موضع خلاف ، و هي قضية كبرى يهمنا منها مايتعلق بديوان الانشاء .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ .
(٢) مقدمة نقد النثر المنسوب لقدامه ص ٦ .
(٣) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ص ١٥٢ ،والنثر الفني لزكي مبارك رواية عن المستشرق فهن ١/٥٠ .
وانظر ما ذهب اليه طه حسين من تأثير البلاغة اليونانية على الأدب العربي / مقدمة نقد النثر ص ١٢ ومابعدها .
(٤) انظر عروبة العلماء المنسوبين الى البلاد الأعجمية ص ١/٣٤ .

ونحن لا نستطيع أن نجارى من يرى أن الموالي غلبوا على الديوان غلبة مطلقة ولا أن ننكر مساهمتهم في تطويره ، بل لا بد من التفصيل .

فقد قام العرب بمقاليد الديوان من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عهد هشام بن عبد الملك ، ومن هنا نستطيع أن نقول : ان نشأة الديوان عربية خالصة وأن من نهضوا بالكتابة السياسية في هذه الفترة انما هم عرب .

الا اذا اعتبرنا أن الكاتب في هذه الفترة ليس كاتبا فنيا ، وذلك أن الخلفاء كانوا يملون رسائلهم بأنفسهم ،فلم يكن للكاتب دور سوى كتابة ما يملى عليه . مع أننا نقرأ قول عبد الملك في كاتبه روح بن زنباع الجذامي : " ان روح بن زنباع ، شامي الطاعة ،عراقي الخط ،حجازى الفقه ، فارسي الكتابة "(١) .

فلم تصبح الكتابة حرفة لها أصولها الا منذ أن تولى كتابة الديوان سالم مولى هشام ، وتلميذه عبد الحميد الكاتب . ومن هنا بدأت غلبة شخصية الموالي على الديوان(٢) .

ولا شك أن كتابة الديوان قد تطورت وأصبحت فنا له خصائصه ، لا يجيده الا من تمرّس به وأتقن أصوله وتثقف بشتى العلوم منذ أن تولاه الموالي . .

---

(١) الجهشيارى ص ٣٥ ، وفي هذا القول ما يوحى بأن الكاتب كان ينشىء الرسالة من نفسه .
(٢) انظر نشأة الكتابة الفنية ص ٦٩ .

وهذا لا يعني أن سالما وعبد الحميد ومن تبعهم غيروا أساليب الرسائل الديوانية تغييرا كاملا ، أو أنهم نقلوها عن منهجها وأسلوبها العربي الى أسلوب آخر فارسي أو يوناني ، بل نقول : انهما دخلا ديوان الانشاء وقد نظّم ،وأصبح للكتابة أصول مرعية ، فبنوا على الاسّاس الذى وجدوا وطوروا في الأساليب والصيغ متأثرين بأدب لغاتهم الاصْلية ، وبما اكتسباه من الثقافة العربية وفنونها الأدبية ، فاستطاعا أن يصبغا الرسائل بصبغة جديدة ، بحيث يمكن أن نقول : ان كتابتهما تعتبر نقطة تحول كبير ،ونقلة أكبر في منهج الرسالة السياسية وأسلوبها ، لا تبعد كثيرا عن النقلة التي تحول بها أسلوب النثر في العصر الحديث ، من الأسلوب المسجع الى الأسلوب المرسل الذى تأثر به الكتاب من تعلمهم للغات الغرب وأساليبها . وقد بدأت غلبة شخصية الموالي على ديوان الانشاء منذ ظهور هذين الكاتبين .

والسؤال الوارد هنا : لماذا تهافت الموالي على مناصب ديوان الانشاء واستحوذوا عليها في الغالب وابتعد عنها العرب ؟ .. لعل ذلك يعود الى سببين :

أحدهما : أن تعريب الدواوين في عهد عبد الملك حرم الكتّاب الموالي من وظيفة خطيرة كانت مصدر رزقهم ومكانتهم ، ومحط أهدافهم السياسية ،مما قلل من اعتماد الخلفاء على قدراتهم وكفاءاتهم وقد احتكروا قبل ذلك كتابة الدواوين لأنها بلغتهم التي لا يجيدها سواهم .

فلما فقدوا هذه الميزة ، اجتهدوا أن يجيدوا العربية ليعيدوا

سيطرتهم من جديد على هذه الدواوين بلغة العرب أنفسهم . واستطاعوا أن يستحوذوا على أخطرها ، وهو ديوان الرسائل الذي يعتمد عليه الخليفة في تسيير أمور الدولة الادارية والسياسية .

وثانيهما : أنهم بعد أن تمكنوا من السيطرة على أمور ديوان الانشاء، اجتهدوا أن يجعلوا للكتابة الديوانية منهجا وأصولا وقواعد وأساليب متطورة ، لا يجيدها الا من تعهد نفسه بتثقيف وتحصيل وممارسة تبلغ به حد الجهد . فجعلوا الكتابة الديوانية حرفة ، وجعلوا لها أنماطا يحتاج من يمارسها الى جهد كبير ليتقنها ، ويجاريهم فيها ، فابتعد العرب عنها قليلا ، لما تتطلبه من مهارة وتكلف وجهد جهيد ، ولأنها أصبحت حرفة ونوعا من الخدمة التي تجعل الكاتب غير مطلق الحرية فيما يعمل أو يكتب . . والعربي جبل على حب الحرية في الرأى والتفكير والتعبير ، كما جبل على كراهة القيود والخضوع والتكلف ، ولعل ذلك سبب هروب الجاحظ من الديوان حينما ولاه المأمون اياه ، فلم يمكث به سوى ثلاثة أيام (١) . . ولو ثبت به لكان له شأن عظيم ، وهذا ما عناه سهل بن هارون حينما قال : " ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب " (١) .

وهذا لا يعني أن العرب لم يتأثروا بهذا الأسلوب المصنع ، فقد تأثروا به مع مرور الزمن ، ولكنهم حين أرادوا أن يظهروا براعتهم فيه ، أظهروها خارج خدمة الديوان . . فمقامات بديع الزمان الهمذاني، وهو العربي الصميم ، أصبحت فنا قائما بذاته ، وأسلوبها لا شك

---

(١) انظر معجم الأدباء ١٦/٧٩ .

مستوحى من أسلوب الرسائل الديوانية .

ولما تولى العربي رئاسة الديوان في القرون المتأخرة ، أظهر مقدرة لا تقل عن مقدرة الموالي في الانشاء والصنعة ، كالقاضي الفاضل وابني الأثير ، الذين نسجوا على منوالهم واقتفوا آثارهم .

والحق أن للموالي الدور الأكبر في انتهاج تلك الطريقة الجديدة في كتابة الانشاء ، فهم أصحاب السبق فيما طرأ على الكتابة العربية عموما من صنعة ، وزخارف متنوعة ، وترف لفظي غطى على المعاني ، سواء كان ذلك في المحسنات اللفظية أو المعنوية ، أو حتى في أوجه البيان والمعاني ، حتى أصبحت تلك هي الطريقة المثلى لمنشئي العصر ، والميدان الذى تبارى فيه أرباب الأقلام وأعلام الكتاب بحسب الأذواق المعاصرة .

ولا أدرى ، أكان انتهاج هذا الأسلوب المصنع قد أثرى الأدب العربي وتقدم به الى الأمام ، وأفاد متذوقيه ، أم أنه نحا به منحى يخالف الذوق العربي والفطرة السليمة والعفوية المحببة ، وبخاصة بعد احتكامهم الى السجع وطغيان الصنعة ؟ ؟

فلو ترك المجال للعرب وحكّموا أذواقهم السليمة في أساليب لغتهم ، وطوروا أساليبهم حسب سليقتهم التي توازى بين جمال الأسلوب وشرف المعنى ، وترجح جانب المعنى على جانب اللفظ .. لو ترك المجال لهم لكان لنا اليوم — في رأيي — تراث أدبي رفيع ، لا تأباه أذواقنا ، ولوجدنا فيه ما ينمي لغتنا وأساليبها وأفكارنا ولأقبلنا عليه راغبين ، مقتدين ومقلدين .

الا ان الأسلوب الذى صبغ به الموالي الكتابة الديوانية فأصبح طابع الكتابة عامة — وخاصة منذ ظهور طريقة ابن العميد — لا نميل اليه اليوم ،ولا نتذوقه ولا نحاول أن نقلده ،لأنه يهتم بالشكل على حساب الأفكار ، و فيه من الصنعة والتزويق ، والتكلف والاسهاب ، ما يثقل علينا ،و يجعل المعاني التي يحتويها باهتة سطحية مكررة ، ليس فيها عمق ولا جدة ،ولا ابتكار ،رغم ما فيه من فن ، و تحمل و جهد ، و عمق ثقافة ، قد لا نحسن اجادة مثله في عصرنا هذا . . فلو وجدنا هذا التراث في غير هذه الثياب المزخرفة ، لكان لنا منه موقف آخر ، ولاستفدنا منه أكثر ،ولجعلناه أساسا نبني عليه و نطوره . ولكنّا وجدناه غير صالح لعصرنا ، وغير صالح لاستيعاب أفكاره و بخاصة في العصور المتأخرة ، ولهذا كان الفصام بين أسلوبهم والأسلوب الذى نكتب به اليوم .

ومما يوضح الفرق بين أسلوب العرب وأسلوب الموالي قول الجاحظ : " . . كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم انما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأى ، وطول خلوة ،وعن مشاورة و معاونة ،و عن طول التفكر ودراسة الكتب ،وحكاية الثاني علم الأول . . . و كل شئ للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام ،و ليست هناك معاناة ، ولا مكابدة ولا اجالة فكر ولا استعانة . . . وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون "(١) .

---

(١) البيان والتبيين ٣ / ٢٨ .

الفصل الثالث

نشأة الديوان بمصر .

الفصل الثالث

نشأة الديوان بمصر

كانت مصر منذ فتحها عمرو بن العاص والزبير بن العوام سنة ٢٠هـ [١] في عهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه (١٣-٢٣ هـ)، الى أول عهد الطولونيين (٢٥٤-٢٩٢هـ)، ولاية تابعة للخلافة الاسلامية الأموية ثم العباسية، يتوالى عليها الولاة حتى عرف هذا العهد بعهد الولاة (٢١ - ٢٥٤ هـ).

ولم يكن لهؤلاء الولاة عناية بديوان الانشاء، انما كانوا يقتصرون على ما يكتبونه للخلفاء عن أحوال مصر .. أو يتلقونه من أوامر أولئك الخلفاء [٢].

وقد يتخذ بعض الولاة كاتبا، كما هو الأمر في بعض الولايات الأخرى [٣] الا أن انشاء ديوان الرسائل بمصر تأخر الى مجيء الطولونيين [٤]، لأن انشاء ديوان الرسائل عادة لا يكون الا حيث يكون مقر الملك المستقل، ولم يتحقق ذلك في مصر الا على يدى أحمد ابن طولون، لأنه استقل بها عن خلافة بغداد.

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ص ١٣٢.
(٢) انظر صبح الاعشى ١/٩٥، ١١/٢٨.
(٣) انظر الفهرست ص ١١٣، وخطط المقريزى ٢/٢٢٦.
(٤) انظر كتاب تلقيح فهوم أهل الآثار ٢/٢٣٠-٢٣٢

ويمكن أن نعده المؤسس الأول لديوان الانشاء بمصر ، فمنذ توليه حكم مصر سنة ٢٥٤ هـ ، احتاج الى انشاء ديوان للرسائل لا تساع ملكه واحتياجه الى مكاتبة الملوك والخلفاء ، لعظم دور المراسلات في زمنه ، ولأن كل خارج عن الدولة العباسية يحاول أن ينافسها في نظمها وفي مظاهر حضارتها ، وكانت مصر الى ذلك الوقت لا تضاهي في الأدب ، المواصم الثقافية في العالم الاسلامي ... ولذلك استعان ابن طولون بكتاب من خارج اقليم مصر .. فاستدعى ابن عبدكان (محمد بن أحمد ابن مودود) فجعل لديوان الانشاء بمصر شأنا ، وكان من الكتاب البلغاء[1] .

ثم تولاه بعده ابن نصر العبادى[2] النصراني ،في عهد ابن خمارويه بن أحمد بن طولون[3] ، ثم تعاقب الكتاب على رئاسة ديوان الانشاء بمصر[4] مما كان له الأثر اليمن في رفع شأن الكتابة والأدب بها . وما زالت منزلة كاتب الانشاء تعظم في مصر حتى لقب في عهد الاخشيديين بالوزير ،وأول من لقب بذلك النّجيرمي (ابراهيم بن عبد الله)[4] .

---

(١) صبح الأعشى ٣/ ١٣ ، ١١/ ٢٩ ،وانظر نماذج من كتابته في صبح الأعشى ١/ ٢٩ ، ٧/ ٥ ، ٨/ ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٥٤ .

(٢) صبح الأعشى ١/ ٩٥ ، وتلقيح فهوم أهل الآثار ٢/ ٢٣٠ .

(٣) صبح الأعشى ١/ ٩٥ ،والأدب العربي في مصر من الفتح الى نهاية العصر الأيوبي ص ١٣٤ ومابعدها .

(٤) انظر معجم الأدباء ١/ ١٩٨ ،وانظر الأدب العربي في مصر من الفتح الى نهاية العصر الأموى ص ١٩٠ .

وقد ولد ديوان الانشاء بمصر متكاملا ، لأن الطولونيين والاخشيديين من بعدهم ، كانوا يختارون لرئاسته أجل الكتاب وأبلغهم ممن وفدوا على مصر من بغداد ، حاضرة العالم الاسلامي في وقتهم / ومن هنا لم يكن هناك فرق يذكر بين الكتابة في مصر والعراق ، وكيف يكون هناك فرق وجل من نهضوا بالكتابة في مصر جاءوا من بغداد ، كابن عبد كان ومحمد الواسطي ، وأبي يعقوب : اسحاق بن نصير ، وأحمد بن علي الماذرائي ، وابن الداية (أحمد بن يوسف) وغيرهم (١) ، وكل هؤلاء من كتاب الدولة الطولونية ...

وبالاضافة الى ذلك ، كانت بغداد في ذلك الزمن ، كعبة الأدباء ، وكان أدباؤها المثال الذى يحتذيه عشاق الأدب وطلاب العلم ... فقد بلغ تأثر الأدباء بالمشارقة أن وجدنا الأندلسيين على بعدهم عن بغداد وتنافس الدولتين ، يمشون على خطى المشارقة ولم يصبح للأندلسيين شخصية مستقلة عن المشارقة الا بعد أجيال . وما قاله الصاحب بن عباد عن كتاب ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) (العقد الفريد) ، شاهد على ذلك ، فقد قال بعد أن قرأه : " هذه بضاعتنا ردت الينا " ... فقد كان الصاحب يتوقع من ابن عبد ربه أن يتحف المشارقة بشيء من أدب الأندلس ، ذلك العالم الجديد الذى كان حريّا أن يفجر في الأدباء خيالات واحساسات وأفكارا يستوحونها من جمال طبيعته وعليل هوائه واختلاف مظاهر حياة أهله ، ولكنهم بقوا متأثرين بأدب بغداد ، معجبين بأدبائه ، ومن أعجب بشيء حاول تقليده .

---

(١) انظر الأدب العربي في مصر من الفتح الى نهاية العصر الأيوبي ص ١٣٤ وما بعدها .

وكذلك الحال مع أدباء مصر الذين جاءوا اليها من بغداد وغيرهم من العلم والأدب والثقافة اذ جعلوا اهتمامهم أن يصلوا الى مستوى كتاب دواوين الانشاء في بغداد .. لا أن يستدعوا طريقة جديدة تفوق ما وصل اليه أولئك .

وكانت دولة الاخشيديين امتدادا لدولة الطولونيين ، من حيث الاهتمام بديوان الانشاء واختيار الخلفاء لرئاسته ،حتى وصلوا الى مرتبة الوزارة ، كما أسلفت ، ومن أشهر كتابهم : النجيرمي ، وقد سبق ذكره ، ومحمد بن كلا [1] . وللنجيرمي هذا ، رسالة موجهة الى ملك الروم تجعلنا نستغرب الفرق في الأسلوب ،ليس بينها وبين رسائل المشرقه بل بينها وبين كتابات من سبق النجيرمي ، أو لحقه من كتاب الدولة الفاطمية ، لخلوها تقريبا من الصنعة ،ولتركيزها على المعنى ، وعدم الاحتفال بالصيغ البديعية [2] .. ولعل سبب ذلك معرفته أنها سوف تترجم الى لغة أخرى .. والترجمة لا تحتفظ الا بالمعنى فقط .

ولما استولى الفاطميون على الديار المصرية ،صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الانشاء وكتّابه ،فارتفع بهم قدره وشاع في الآفاق ذكره وولیه منهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي [3] .. وقد أورد القلقشندى أسماء أولئك الكتاب

---

(١) انظر نفس المرجع ص ١٩٠ ومابعدها .
(٢) صبح الأعشى ٧ / ١٠ ومابعدها .
(٣) نفس المرجع ١ / ٩٦ .

فذكر أن : أبو المنصور بن سورد بن النصراني (١) ،كان يكتب للعزيز بالله ثم لابنه الحاكم ،وأن القاضي أبا الطاهر البهزكي كتب للحاكم ثم لابنه الظاهر ، وأن ابن خيران ،وولي الدولة موسى بن الحسن ،وأبا سعيد السعيدى ،كتبوا للمستنصر ، وأن الشيخ أبا الحسن على بن أبي أسامة الحلبي ،كتب للآمر والحافظ ،وكتب من بعده للحافظ ولده أبو المكارم .

وكان يكتب بين يديهما ابن الصيرفي ،وابن قادوس وابن أبي الدم اليهودى ، ثم كتب للحافظ والعاضد ابن الخلال الذى تخرج القاضي الفاضل على يديه (٢) .

وفي عهد الفاطميين ،قام للأدب سوق نافقة بمصر نافسوا بها عواصم العالم الاسلامي ،في بغداد وقرطبة وغيرهما . ولأن ديوان الانشاء واجهة الدولة الثقافية في عصرهم ، بلغوا به منزلة فاقت منزلة موطنه الأصلي في بغداد . فقد بلغ من شهرة القاضي الفاضل في آخر أيام الفاطميين أن غطت على شهرة كل من كان يعاصره من الكتاب حتى في بغداد وقد تخرج من هذا الديوان ضياء الدين ابن الأثير ، وعماد الدين الأصفهاني ... اللذين يعدان من أشهر أدباء عصرهما .

---

(١) ذكر صاحب كتاب تلقيح فهوم أهل الآثار أن كاتب العزيز هو ابن كلس وزيره ،ثم أبو عبد الله الموصلى ،ثم أبو المنصور النصراني ٢/٢٣٠–٢٣٣ .

(٢) انظر صبح الأعشى ١٠/٩٦ وانظر تلقيح فهوم أهل الآثار ٢/٢٣٠–٢٣٣ .

وهكذا يمكن أن نقول : ان ديوان الانشاء في هذا العهد ، كان في مستوى دواوين الانشاء في بقية العواصم الاسلامية ، بل لعله فاقها وبخاصة ابان الحروب الصليبية ، لاهتمام المسلمين بأخبارها التي كانت تنقلها الرسائل وتذيعها .. وتولاها في ذلك العهد أدباء ذاعت شهرتهم الأدبية حتى طبقت الآفاق وعلا شأن الرسائل الديوانية في عصرهم وبخاصة بعد أن اقترنت بأحداث الحروب الصليبية وما نتج عنها .

الباب الثاني

كتّاب الديوان

ويشتمل على الفصول التالية :-

الفصل الأول :-

صفات كاتب الديوان

الفصل الثاني :-

تنافس الأدباء وتزاحمهم على مناصب الديوان وأثر ذلك في نهضة الأدب .

الفصل الثالث :-

أشهر كتاب القرن السادس الهجري ومدارسهم الفنية .

الفصل الأول

صفات كاتب الديوان

الفصـــل الأول

صفات كـاتب الديـــــــــــــوان

آدابه وثقافتـه ــ منزلـته الأدبية والاجتماعيـة ــ اختصاصاته الرسمية

آدابـه :

احتل كاتب الديوان منزلة سامية عبر العصور الاسلامية ، فكـان رئيس ديوان الانشاء ــ كما سنرى ــ بمنزلة الوزير ، وربما تولى رئاسـتـه الوزير نفسه ، وبخاصة منذ ابتداء العصر العباسي (١) .

ومن هنا كان لا يتولى هذا المنصب الا من اتصف بصفات مثالية نادرة ، ذاتيـة و مكتسبة ، سلوكية وثقافيـة ، فقد اشترطت فيه شروط لم تشترط حتى في الوزير (٢) .

---

(١) قال ابن فضل الله العمرى : " كانت كتابـة الانشاء في المشـرق في خلافة بني العباس منوطـة بالوزراء " (كـتاب تلقيـح فهوم أهل الآثار ٢ / ٢٣٠ـ٢٣١)وانظر صبح الأعشى ١ / ٩٣ .

(٢) من الكتب التي تعرضت لآداب الوزراء : قوانين الوزارة ، والأحكام السلطانية . . للماوردى ، والوزراء والكتاب للجهشيارى ، وتحفـة الأمراء في تاريخ الوزراء للصابى ، والفخرى في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ، وأخبار الوزراء للصاحب بن عباد ، والاشارة الى آداب الوزارة لابن الخطيب . . وانظر ما يشترطونه في الوزير في كتاب " الخراج وصنعة الكتابة " ومن تلك الشروط أن يكون كاتبا مرسلا أديبا ص ٤٨١ ، وانظر ما اشترطه صاحب كتاب بدائع السلك في طبائع الملك ص ٩٨ وما بعدها .

وقد أفاض من كتب في هذا الجانب ــ وهم كثير في هذه الشروط ــ وقسموها الى صفات عامة ، وأخرى فرعية . ومن تلك الشروط : الاسلام ، والعدالة ووفور الفضل ، وأصالة الرأى ، وقوة العزم ، وحدة الذهن ، وحضور الحس ، وقوة النفس ، وجودة الحدس ، وحلاوة اللسان ، والجرأة والتؤدة والأنفة ، والوقار ، والهيبة ، والحلم ، والنزاهة (١) .

ولما كان كاتب الديوان ملازما للسلطان ، اشترطوا فيه شروطا مما يليق بعشرة الملوك والعظماء في السلوك والآداب ، كالاخلاص ، والنصح ، وكتمان السر ، والوفاء ، وعدم الادلال على السلطان (٢) .. الخ وهي شروط دقيقة خاصة فيما يتعلق بالنواحي النفسية ، وكأن أولئك الذين اشترطوا تلك الشروط قد اطلعوا على مباحث علم النفس الحديث ، كقول القلقشندى في تعليل اشتراط أن يكون الكاتب ــ قوى العزم عالي الهمة ــ : " لأن كل كاتب يجذبه طبعه وجبلته في الكتابة الى ما يميل اليه ... فكلما كان الكاتب أقوى نفسا ، وأشد عزما ، وأعلى همة ، كان ذلك أمضى ، وأقدر في الأمور ، وكلما نقص من ذلك نقص من كتابته " (٣) وكقوله في تعليل اشتراط الكفاية : " لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن في أمر المسلمين " (٣) .

---

(١) انظر صبح الأعشى ١ / ٦١ ، ومابعدها ، وقارن بالاحكام السلطانية ص ٢٢ ومابعدها و ص ٢١٥ .

(٢) انظر صبح الأعشى ١ / ٧٧ ومابعدها وانظر مزيدا من هذه الصفات في كتاب قوانين الدواوين لابن مماتي ص ٦٦ ومابعدها ، ويظهر أن القلقشندى نقل أكثر هذه الصفات من ابن مماتي .

(٣) انظر صبح الأعشى ١ / ٦٧ ومابعدها .

وقد بلغ بهم الاشتطاط في تلك الصفات ،أن طلبوا من الكاتب الأخذ بنصيب من اللذات ،ويعلل ذلك القلقشندى بقوله : " لأن الطبائع جبلت على الميل اليها ... وأهل هذه الصناعة لاختلاطهم بالملوك ، ومشاركتهم لهم في آدابهم لا غنى بهم عما يقيم مروءاتهم من اللذات المشابهة لأقدارهم ومواضعهم من السلطان "(٢).

ولا ندرى ماذا يقصد القلقشندى باللذات ؟ فاذا كان يقصد بها اللذات المحرمة — وهو الظاهر من كلامه — فبرغم أنها تناقض اشتراطه اتصاف الكاتب بالتقوى — فانها تعد هفوة منه .. اذ كيف يقوّم المسلم مروءته ببيع آخرته بدنياه من أجل ارضاء السلطان ؟ .. ويظهر أنه يصف عصره من الواقع الذى يعيشه السلاطين ،بغض النظر عن كونه يوافق الشرع أو يخالفه .. ولولا أن هذه الصفات السلوكية التي ذكرها الكتّاب لا تعنى الباحث الأدبي كثيرا لأوردت كثيرا منها ،لطرافتها ، ولأنها دلالة على اخلاق مجتمع أولئك الكتاب .. فضلا عن أنها صفات خلقية عالية تنظم علاقة الانسان بمرءوسيه ،وبالمجتمع الذى يعيش فيه ، وتعتبر تحليلا نفسيا مفيدا وبخاصة في مجال الوظائف الادارية التي تشبه وظيفة كاتب الديوان ،مع ملاحظة أن أغلب تلك الشروط وضعت من أجل ارضاء السلطان ، ولم يكتفوا بالصفات النفسية والاخلاقية والسلوكية ، بل تعدوا ذلك الى الصفات الخلقية ،والشكل الظاهرى للكاتب .. فاشترطوا فيه أن يكون صبيح الوجه ، بهي الملبس

---

(١) صبح الأعشى ١/ ٧٢ — ٧٣.

مليح الزى ، معتدل القامة ، صغير الهامة ، خفيف اللهازم [١] ، كثيف اللحية ، وألا يكون فضفاض الجثة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية عظيم الهامة ، فانهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة [٢] .

كما اشترطوا فيه أن يكون : أصيلا في قومه ، رفيعا في حيه موءثرا للجد على الهزل ، كثير الاناة والرفق ، قليل العجلة ، والخرق ، نزر الضحك ، حلو الشمائل ، مهيب المجلس ، ساكن الظل ، وقور النادى ، متوقد الفهم ، حسن الكلام اذا حدث ، حسن الاصغاء اذا حدث ، سريع الرضاء ، بطىء الغضب ، رؤوفا بأهل الدين ساعيا في مصالحهم ، محبا لأهل العلم والأدب [٣] .

---

(١) اللهازم : جمع لهزمة ، عظمة الخد ، انظر الصحاح ٥/٢٠٣٨ والقاموس المحيط ٤/١٨٠ .

(٢) انظر صبح الأعشى ١/٦٧ — ٦٨ .

(٣) = صبح الأعشى ١/١٠٤ — ١٠٥ .

قال سهل بن هارون ، كاتب المأمون وهو من أئمة هذه الصناعة قولا يخالف ما ذكر ، اذ قال : " لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا ، أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا بهيا ولبّاسا نبيلا ، وذا حسب شريف ، وكان الآخر قليلا قميئا ، وباذ الهيئة دميما خامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة وفي درب واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم يقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم ، وللباذ الهيئة على ذى الهيئة يشغلهم التعجب منه عن مناوأة صاحبه ، ولصار التعجب على مساواته له سببا للتعجب به ، والاكثار في شأنه علة للاكثار في مدحه .

===

ثقافته :

أما ثقافة كاتب الديوان ، فلم يكتفوا بالقول المأثور : "ان الأديب هو الذي يأخذ من كل فن بطرف" ، بل اشترطوا فيه أن يكون متخصصا في كل فن .

قال ابن الأثير : "وقد قيل ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم"(١) .

كعلوم العربية والتاريخ والجغرافيا ، والهندسة والحساب والفلك ، واللغات والأحكام السلطانية والشرعية ...

وذلك لأن وظيفته تتطلب شتى العلوم ، فاذا كتب الى طبيب فيجب أن يكتب له الاصطلاحات المتعارف عليها في هذا الفن ، واذا كتب الى قاض ، وجب أن يعرف أحكام الشرع حتى يوحي للمكتوب اليه ، أن من يكتب عنه يعرف في صنعته كما يعرف .

=== لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أيأس ، ومن حسده أبعد ، فلما ظهر منه خلاف ما قدروه وتضاعف حسن كلامه في صدورهم كبر في عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف ، وكلما كان أظرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ... والناس موكلون بتعظيم الغريب واستغراب البديع وليس لهم في الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذي معهم في الغريب القليل وفي النادر الشاذ ، وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم اليهم ويرحلون الى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعم نفعا واكثر في وجوه العلم تصرفا واخف مؤونة وأكثر فائدة /عن صبح الأعشى ١/ ٨٠ وما بعدها . وقد يكون الاختلاف في الرأي بسبب اختلاف زمن ابن هارون عن زمن القلقشندي أو أن هذا يصدق على الخطيب لا الكاتب .

(١) المثل السائر ١/ ٤٠ .. وقال صاحب كتاب جوهر الكنز : "يستحب للكاتب أن يتمسك من كل فن بما لا يجهل الاصطلاح فيه .. ليأمر كل صاحب وظيفة بما يجب عليه فعله ، وينهى صاحب كل وظيفة عما يجب النهي عنه في وظيفته ص ٢٩ .

يقول ابن الأثير في ذلك : " ذكر علماء هذا الفن ، أن كاتب الانشاء له أن يتشبث بكل فن ، حتى ما تقوله الماشطة عند جلوة العروس ، وما تقوله النادبة في المأتم ، وما يقوله المنادى في السوق ، فانه محتاج الى ذلك ومضطر الى معرفته ، فما ظنك بما فوق هذا وذاك ، لأن مواد الكتابة غير محصورة في عدد معلوم ، فيستحب للكاتب أن يتمسك من كل فن بما لا يجهل الاصلاح فيه "(١) .

ويقول الصفدى بعد سرد ما يحتاجه الكاتب من شتى العلوم : " وعلى الجملة ، فالكاتب يحتاج الى كل شىء ، ولولا أنه لا يلزمه تحقيق كل فن لقلت : انه الذى يعرف الوجود على ما هو عليه و هيهات "(٢) .

ونقل ابن الأثير : " ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم ، حتى قيل : " كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقال : فلان النحوى ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يسوغ للكاتب أن ينسب الى نفسه الكتابة فيقال : فلان الكاتب ، وذلك لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن "(٣) . ولكن ابن الأثير يستدرك ويقول : " ان كل العلوم لا تغنى شيئا ان لم يكن الكاتب مطبوعا "(٣) .

---

(١) جوهر الكنز ص ٢٩ وانظر المثل السائر ١/٧٣ وصبح الأعشى ١/١٤٥ .
(٢) نصرة الثائر ص ٦٥ .
(٣) المثل السائر ١/٤٠ ، وقد استدرك عليه في ذلك ابن الخشاب في الفلك الدائر . . .
نفس المرجع ٤/٤٠ ، حيث يقول : هذا الكلام من أبهات الكتاب وتزويقاتهم ولا يعول عليه محصل .

ومن أجل ذلك قال العتابي : موجها الكلام للكتّاب : " ما رأينا فيما تصرفنا فيه من فنون العلم ، وجرينا فيه من صنوف الآداب شيئا أصعب مراما ولا أوعر مسلكا ولا أدل على نقص الرجال ورجاحتهم ، واصالة الرأي وحسن التمييز ،من الصناعة التي خطبتها ، والمعنى الذي طلبته "(١) . يعني صناعة الكتابة .

وقبل هذا اشترطوا فيه أن يكون ، ذا موهبة في الكتابة ، طلق اللسان ، فصيح الألفاظ ، بليغ العبارة ،أديبا ،قوي الحجة ،شديد المعارضة ،حسن الألفاظ ، له ملكة يقتدر بها على مدح المذموم وذم الممدوح (٢) . على أن يترك التفاصح والتعمق في مخاطبة رئيسه والافتخار عليه بالبلاغة والبيان لما في ذلك من الترفع عليه في الكلام ، بل يجعل ما يلقيه اليه ضمن ألفاظ تدل على معانيها بسهولة ،لأنه انما يتسامح بالاتيان بالفصاحة والذهاب بمذهب الجزالة للخطباء الذين يثنون على الملوك في المواقف العامة ـ ضرورة احتياجهم الى استعمال الفاظ تقع في الأسماع أحسن المواقع (٣) .

ويظهر أن القلقشندي قصد بهذا ـ خطاب المشافهة ـ مع السلطان ، على أن التفاصح مذموم سواء في الخطابة أو في الكتابة أو في لغة التخاطب ،لأن فيه تكلفا ،أما البيان والبلاغة فهما من صفات

---

(١) الرسالة العذراء ص ٣١ .
(٢) انظر صبح الاعشى ١/ ٦٦ .
(٣) = نفس المرجع ١/ ٨٠ .

الكلام الجيد ، ولا أعرف كيف يكون التعمق فيهما وهما اللذان من أجلهما فاقت لغة العرب كل لغة [(١)] .

وشرط القلقشندي هذا أراد به التأدب مع السلطان أكثر من ارادته بلاغة الكلام من عدمها .

وقد أسهم كل من كتب في هذا الفن بشروط ثقافية فيمن يتولى هذا المنصب .. فقد ألف ابن قتيبة (ت ٢٧٠هـ) كتابه " أدب الكاتب " من أجل ثقافة الكتاب واشترط أن يكون الكاتب عالما بالنحو والصرف والجغرافيا والهندسة والفلك والحساب ، ملما بالفقه والحديث والأخبار مع حفظ عيونها [(٢)] .

وتابعه أبو هلال العسكري ،وأوجز معللا أنه انما عمل كتابه " لمن استكمل هذه الآلات كلها و بقي عليه المعرفة بصنعة الكلام ، وهي أصعبها وأشدها " [(٣)] .

وأضاف أبو جعفر النحاس : " البلاغة و معرفة الأضداد والعلم بترتيب أعمال الدواوين ... والدربة بوجوه استخراج الأموال .. الخ [(٤)] .

---

(١) انظر البيان والتبيين ٤ / ٥٥ .
(٢) ادب الكاتب ص ٢٦ ومابعدها .
(٣) كتاب الصناعتين ص ١٦٠ .
(٤) صبح الأعشى ١ / ١٤٢ .

وفصل القلقشندي في وجوب تحصيل كل تلك العلوم .. بأن ذلك يختلف بحسب نوع الكتابة التي سوف يتولاها الكاتب ، فكل نوع من أنواعها يحتاج الى معرفة فنون تختص بها ،ولكنه يعود ويقول : " على أن كاتب الانشاء لا يستغنى عن علم [1] ، ولكنه وان كان يحتاج الى التعلق بجميع العلوم والخوض في سائر الفنون ،فليس احتياجه اليها على درجة واحدة ، فمنها ما يحتاج اليه ضرورة ، كاللغة التي يستمد منها الألفاظ ،والنحو الذي يقوم به الكلام ،وعلوم البلاغة التي هي مناط التحسين والتقبيح .. ومنها ما يحتاج اليه بطريق العرض ،كالطب والهندسة والهيئة ،ونحوها من العلوم ". وكأنه يميل الى رأى ابن قتيبة الذى انتقد فيه الكتاب لاشتغالهم بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة ، والكون والكيفية ،والجوهر والعرض على حساب النظر في اللغة وآدابها [2].

وقد حصرها ابن الأثير في معرفة الكاتب لعلوم العربية من نحو وصرف ولغة ،وأمثال وأيام ،والاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور ومعرفة الأحكام السلطانية وحفظ القرآن والاخبار النبوية [3]. ولكنه يقول مشيرا الى وجوب تعلق الكاتب بكل علم : " ان المكاتبات بحر لا ساحل له ، وقد قيل شيئان لا نهاية لهما : البيان والجمال "[3].

---

(١) صبح الأعشى ١/ ١٤٢.

(٢) انظر أدب الكاتب ص ٣ ومابعدها.

(٣) أنظر المثل السائر ١/ ٤٢ وما بعدها ، وانظر ٢/ ٦٤ من نفس المرجع و٤/ ٥.

ولابراهيم بن المدبر[1] رسالة في توجيه الكاتب تفوق رسالة عبد الحميد الكاتب في معناها . وقد ركز فيها على الوسائل التي ينمي بها الكاتب ثقافته ، يقول فيها : " واعلم أن الاكتساب بالتعلم والتكلف وطول الاختلاف الى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ، فان أردت خوض بحار البلاغة ،وطلبت أدوات الفصاحة ،فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه ،ومن رسائل المتأخرين ما ترجع اليه في تلقيح ذهنك واستنجاح بلاغتك ،ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به ،ومن الأشعار والأخبار والسير والأسمار ما يتسع به منطقك ، ويعذب به لسانك ، ويطول به قلمك ، وانظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب ، ومعاني العجم ، وحدود المنطق ،وأمثال الفرس ورسائلهم ،وعهودهم وتوقيعاتهم ،وسيرهم ومكايدهم في حروبهم ، بعد أن تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والشروط كتب السجلات والأمانات ،فإنه أول ما يحتاج اليه الكاتب وتمهر في نزع آى القرآن في مواضعها واجتلاب الأمثال في أماكنها واختراع الألفاظ الجزلة ، وقرض الشعر الجيد ، وعلم العروض ، فان تضمين المثل السائر والبيت الغابر مما يزين كتابتك ، ما لم تخاطب به خليفة أو ملكا جليل القدر ،فان اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجلة الرؤساء عيب واستهجان للكتب ... وان شدوت من هذه العلوم ما لا يشغلك محله ، وتنقهت من هذه الفنون ما تستعين به على اطالة قلمك ،وتقويم أود بيانك ،

---

(١) هو ابراهيم بن محمد بن عبد الله وزير من الكتاب المترسلين توفى سنة ٢٧٩ هـ ،انظر ترجمته في الأعلام ١/ ٦٠ .

بعد أن يكون الكاتب صحيح القريحة عذب الألفاظ دقيق الفهم ... بعيدا من الفدامة .. عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامها ، وبالملوك وسيرها وأيامها ، وبالدهور في تقلبها وتداولها ، مع مراعاة الأدب ، وتأليف الأوصاف ، ومشاكلة الاستعارة ، وحسن الاشارة ، وبشرح المعنى بمثله من القول حتى ينصب صورا منطقية تعرب عن أنفسها ، وتدل على أعيانها (١) .

ويقول القلقشندى في معرض تفضيل كتابة الانشاء على غيرها من الكتابات : " أهل التحقيق من علماء الأدب ما برحوا يرجحون كتابة الانشاء ويفضلونها ويميزونها على سائر الكتابات ... ويحتجون لذلك بأمور منها : أن كتابة الانشاء مستلزمة للعلم بكل نوع من أنواع الكتابة ، ضرورة أن كاتب الانشاء لا بد أن يكون عالما بصناعة من يكتب له " (٢) .
وهو يقصد بأنواع الكتابات ، كتابات الدواوين من خراج وأموال وغيرها وما تستلزمه من علوم أخرى ، بدليل قوله بعد ذلك : بخلاف كاتب الأموال ، فانه انما يعتمد على رسوم مقررة ... لا يكاد يخرج منها (٢) .

وقد يكون هذا التساهل متواضعا عليه زمن القلقشندى ، أما الأزمان الأولى ، فكانوا يطلبون من كاتب الديوان أن يكون مثقفا ثقافة عالية سواء أكان في ديوان الأموال أم الانشاء .

---

(١) الرسالة العذراء لابراهيم بن المدبر ص ٧ — ٩ .

(٢) انظر صبح الأعشى ١/ ٥٥ .

وأهم كتاب اعتنى عناية فائقة بثقافة الكاتب ، كتاب صبح الاعشى فقد عين مؤلفه مواضع الاستفادة من علوم العربية ، كالنحو والصرف والبلاغة وذكر الأبواب التي تلزم الكاتب في كتابته ، كما علل احتياج الكاتب لتلك الأبواب ، ولم يكتف بذلك بل ذكر لكل علم مراجعه ، كما بين أكمل تلك المراجع وطرقها .. فذكر منها :

أدب الكاتب لابن قتيبة [1] ، وصناعة الكتاب للنحاس ، وكنز الكتاب لكشاجم ، وكفاية المتحفظ لابن الأجدابي ، والمذهبة والمعقبة لابن اصبغ ، وفقه اللغة للثعالبي ، وفصيح ثعلب ، وتثقيف اللسان لابن مكي التونسي ، وكلها في اللغة .

كما ذكر من كتب النحو : المفصل للزمخشري ، والكافية لابن الحاجب ، والتسهيل لابن مالك .. الخ [2] . وعلل شدة احتياج الكاتب لتعلم اللغة بأن اللغة رأس مال الكاتب وأس كلامه وكنز انفاقه من حيث ان الألفاظ قوالب للمعاني ... والمعاني لا يقوى على ابرازها وابانتها الا من توفر حظه من الألفاظ ، واقتداره على التصرف فيها [3] .

كما أن الكاتب يحتاج لمعرفة الغريب لأن القرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر الجاهلي لا تخلو من الغريب ، ومدار الكتابة على

---

(١) هناك كتابان باسم " أدب الكاتب " أحدهما لابن قتيبة والآخر للصولي ولابن دريد أيضا ، وهناك كتاب بعنوان " أدب الكتاب" للنحاس ، وكلها في فن واحد .

(٢) راجع الصبح ١٥٣/١ ومابعدها .

(٣) نفس المرجع ١٥٠/١ ومابعدها .

استخراج المعاني منها . قال الأصمعي : توسلت بالملح ونلت بالغريب (١) ،
ثم يذكر أهم الكتب التي اعتنت بالغريب : كصحاح الجوهري ، ومحكم
ابن سيده ، ومجمل ابن فارس (٢) ، ثم يقول : "والغريب وان لم ينفق
منه الكاتب فانه يجب أن يعرفه ، فرب لفظة في خلال شعر أو خطبة
أو مثل نادر أو حكاية .. فان بقيت مقفلة دون تفتّح .. بقي في
الصدر منها حزازة تحوج الى السؤال ، وان صنت وجهك عن السؤال رضيت
بمنزلة الجهال" (٣) . ثم يعود لذكر المواضيع التي تهم الكاتب ويحتاجها
في كتابته : كمعرفة المتباين ، والمرادف والمتضاد ، والازدواج ، وما تختلف
أوصافه باختلاف أحواله .. وعلل التسمية ، والمعرب من اللغات الأخرى
والعكس ، وما اشتركت فيه اللغتان ، وتعدد اللغات واللهجات في
النطق ، وما تلحن فيه العامة .

أما احتياجه الى علم النحو ، فلأنّ اللحن قبيح في كبراء
الناس وسراتهم ، كما أن الاعراب جمال لهم ، وأما احتياجه الى علم
الصرف فمن أجل أن يعرف أصل الكلمة وزيادتها وحذفها وابدالها
والتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة اليها (٤) .

ويذكر في خلال ذلك ، المواقف التي وقع فيها بعض الكتاب ،
والحرج الذي تعرضوا له بسبب الأخطاء الناتجة عن جهلهم بعلوم العربية .

---

(١) صبح الأعشى ١/١٥٠ .
(٢) نفس المرجع ١/١٥١ .
(٣) نفس المرجع ٢/١٥٢ .
(٤) نفس المرجع ١/١٥٥ وما بعدها .

ومن كمال ثقافة الكاتب — بعد أن يتقن كل هذه العلوم — أن يجيد اللغات الأعجمية — وهي ما سوى العربية — وذلك أحفظ لأسرار الدولة من ناحية — لأنه في هذه الحالة لا يحتاج الى ترجمان — وليكون رده على الرسائل مباشرة ، لأنه أقدر على فهم ما جاء فيها والرد عليها بنفسه (١) .

ولا أدري هل التزم كل كتّاب الديوان بهذه الشروط كلها وبخاصة ما يتعلق بتعلم اللغات الأعجمية ، اذ أن في هذا شططا على الكتاب ، فمن يجيد كل لغات العالم ؟ ، ولو قضى كل عمره في تعلمها ، الا اذا كان يقصد لغات الأمم المحيطة بالدولة التي يكتب لها الكاتب ، وهي الدولة الفارسية والرومية والتركية ، مع أن دولة المماليك وهي الدولة التي وجد فيها مؤلف صبح الأعشى ، لها علاقات بدول كثيرة غير هذه الدول .

ثم يعود ويركز على اتقان الاعراب في تفصيل طويل ليس هذا موضع ذكره (٢) .

ومن العلوم المتعلقة بعمل الكاتب ، علم المعاني والبيان والبديع ، ومن الطريف ما رواه عن صاحب كتاب (تلخيص المفتاح) (٣)

---

(١) انظر صبح الأعشى ١ / ١٦٥ ومابعدها .

(٢) انظر نفس المرجع ١ / ١٦٧ ومابعدها .

(٣) لمؤلفه جلال الدين القزويني أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن ، وهو شرح لتلخيص كتاب السكاكي مفتاح العلوم ، أنظر مقدمة كتاب (بغية الايضاح لتلخيص المفتاح) لعبد المتعال الصعيدي .

من أن أهل مصر لا يحتاجون الى هذه العلوم ـ يعني علوم البلاغة لأنهم يدركونها بالطبع ـ اذ يقول : " أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم والأذهان التي هي أرق من النسيم ، وألطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم .. أكسبهم النيل تلك الحلاوة ،وأشار اليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة ، فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء ،فضلا عن الأغمار ،الأعمار ، ويرون بمرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار ...ولذلك صرفوا همهم الى العلوم التي هي نتيجة أو مادة لعلم البيان ، كاللغة والنحو والفقه والحديث ،وتفسير القرآن" (١) . وهذا كلام نظري دفعه اليه التعصب لأبناء وطنه ،. لا يصلح الا في مجال المناظرة بين بلاد وبلاد .. ويظهر أنه أراد ذلك بدليل تنظيره بما قاله عن أهل المشرق (١) .. فبالرغم من أن مصر في القرن السادس والسابع الهجريين كالنهر الكبير الذى تصب فيه الروافد مع بعدها عن الاختلاط بالأمم المجاورة ، كالفرس والروم ، وأن أسلوب أدبائها في الغالب أقل تكلفا وعمقا ،فاننا نستبعد أن تبقى السليقة العربية سليمة الى عصر المؤلف ، وبخاصة أن لسان أهلها غير عربي وانما عرب بعد فتحها ، وأطرف من هذا، السبب الذى عزى اليه المؤلف ما ادعاه من استغناء أهل مصر عن تعلم البلاغة ،وهو أن النيل أكسبهم ذلك الطبع المستغنى عن التعلم .

وهو سبب ، كما ترى ، واه لا يعول عليه . ويفهم من سياق كلام المؤلف أنهم كانوا يعدون علوم البلاغة أدنى ما يحتاجه الكاتب الأديب لمهنته،

---

(١) انظر صبح الأعشى ١ / ١٨٢ وما بعدها .

ولذلك يقول شهاب الدين الحلبي :

" وهذه العلوم وان لم يضطر اليها ذو الذهن الثاقب ، والطبع السليم ، والقريحة المطاوعة ، والفكرة المنقحة ، والبديهة المجيبة ، والروية المتصرفة ، لكن العالم بها متمكن من أزمة المعاني ، وصناعة الكلام ، يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة وينتقد بحجة ، ويتخير بدليل ويستحسن ببرهان ، ويصوغ الكلام بترتيب (١) .

وخلاصة القول : أن من كتب في هذا الفن وهم كثرة (٢) وضعوا مواصفات قياسية لا تتوفر الا في القلة النادرة من العباقرة الأذكياء سواء من حيث الصفات الشخصية كالمظهر والذكاء وحدة الفهم أم من حيث تحصيل علوم شتى ، اذا استغنى عن بعضها الأديب لا يستغنى عنها كاتب الانشاء ، لاحتياجه اليها في مكاتباته باعتباره يمثل دولته بما يكتبه عنها من رسائل سياسية تبنى عليها علاقات الدولة الخارجية بغيرها من الدول ، كما تبنى عليها السياسة الداخلية في علاقة الحاكم بالمحكوم وتنظيم شئون البلاد الادارية والمالية . ولعل من كتبوا في هذا الفن أدركوا ضحالة ثقافة الحكام خاصة في العصور المتأخرة — لكون أغلبهم غير عرب ، أو لانشغالهم عن تحصيل العلوم بادارة شئون البلاد وسواها — فأرادوا اعداد الكاتب بحيث يكمل نقص الحاكم سواء في بلاغة القول ليستميل

---

(١) انظر صبح الأعشى ١٨٤/١ .

(٢) من الكتب التي اعتنت بهذا الفن : كتاب لا يزال مخطوطا بعنوان " الرأى الصائب في اثبات ما لابد منه للكاتب " لابن الأثير ، وهو كتاب لا يقل أهمية من كتاب صبح الأعشى في هذه الناحية ، فقد جمع فيه أكثر ما يحتاجه الكاتب من آيات وأمثال وحكم وتعابير وصيغ خاصة ... الخ .

أو يرهب الخارج على الدولة ،أو يحث به على الجهاد ، أو يقوى به علاقة دولته بغيرها من الأمم .. وذلك أن الرسائل الصادرة عن ديوان الدولة ، تعد مرآة لمدى اتساع الثقافة فيها وتطور العلوم بها ، وسعة مدارك ورجاحة عقول من يتولون شئونها ، وكأنها تمثل دور أجهزة الاعلام اليوم مجتمعة ،ولهذا حرص الكتاب على التفنن في أسلوب رسائلهم وطعموها بما يناسب المقام من الآيات والأحاديث والأمثال والحكم وعيون الشعر كما جعلوها لوحة رائعة لفن الزخرف والمحسنات البديعية مع اختلاف الكتاب في ذلك ، فمن مقتصد ومن مكثر الى حد التكلف كما تعد تلك الرسائل من ناحية أخرى مرجعا لكثير من حوادث التاريخ ومصطلحات العلوم وتاريخ أهم رجال وعظماء العالم ، سواء في مجال الحروب أو السياسة ، أو العلوم . كل ذلك بفضل ما بلغه هؤلاء الكتاب من معرفة واسعة ،وتحصيل لعلوم شتى يعدّون من قصر عنها لا يستحق أن يمارس مهنتهم ، تلك المهنة التي بلغوا بها ذرى المجد والشهرة وهو ما سوف نتناوله في الفصل التالي ان شاء الله (١) .

---

(١) من الكتب التي اعتنت بهذا الموضوع سوى ما ذكرنا : حسن التوسل الى صناعة الترسل للحلبي . وغنية الكاتب وبغية الطالب للبحصبي ت٤٤ هـ ولطائف الكتاب للعيني ت ٤٣١ هـ . والمعاني المخترعة في صناعة الانشاء للمدائني . والافهام والاصابة في مصالح الكتابة (منظومة) للجعبري ت ٧٣٢هـ . والاكليل في الانشاء .
وطبقات الكتاب للسيوطي ت ٩١١ هـ .
وعمدة الكتاب وعبرة ذوى الألباب للزجاجي .
وسر البلاغة في الكتابة لقدامة بن جعفر .
وسر الصناعة وأسرار البلاغة للحاتمي ...

منزلة الكاتب الأدبية والاجتماعية :

بلغ من مكانة كتّاب الانشاء وعلو منزلتهم وخطر منصبهم ، أن قال فيهم عبد الحميد الكاتب : " اكرموا الكتاب فان الله عز وجل أجرى أرزاق العباد على أيديهم " (١) ، وكأنه يتنبأ بما وصلوا اليه في العصر العباسي من منزلة جعلتهم يتحكمون من خلالها في كل شئون الدولة .. حتى أصبحت الكتابة سلما الى الوزارة .

وقال عبد الحميد في بلاغتهم : " لو كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء لنزل على كتاب الانشاء " (٢) وذلك أنهم يعدون الصفوة المثقفة في الأمة ، فقد حصّلوا العلوم وتفقهوا في الدين واستوعبوا من التاريخ والسير والحكم والأمثال واللغة والشعر والعلوم الأخرى ما يعجز غيرهم عن ادراكه ... ومن ثم فهم يفرزون في طيات رسائلهم ما وعوه من ثقافات متنوعة .

ولم يكتفوا بالمجد الأدبي ،بل أضافوا اليه المجد السياسي والاجتماعي بعدما ركنهم أولى الأمر من الخلفاء والملوك في تدبير شئون الدولة ، فهم المستشارون لهم والناطقون باسمهم ، والمؤتمنون على أسرارهم شفاعتهم مقبولة ، وكلمتهم مسموعة ، وحاجة الناس اليهم ، يعطون من أرادوا ويقربون من أحبوا ، ولهذا نظر لهم المجتمع ،نظر اجلال وتعظيم ... فكانوا يجلونهم فوق اجلالهم لقواد الجيوش ..

---

(١) انظر الكتاب والوزراء للجهشيارى ص ٨٠ .
(٢) انظر ثمرات الأوراق ص ٣٥ .

يقول القلقشندي : " كفى بالكتابة شرفا أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحمه الكاتب في سيفه "(١) .

و لضربة من كاتب ببنانه ‏ أمضى وأقطع من رقيق حسام

قوم اذا عزموا عداوة حاسد ‏ سفكوا الدما بأسنة الأقلام ".(٢)

وقد بالغوا في رفع منزلة الكتاب حتى قال فيهم الزبير بن بكار :
" الكتّاب ملوك وسائر الناس سوقه "(٣) .. بل جعلوا حاجة الملوك لهم أكثر من حاجتهم للملوك ، قال ابن المقفع : " الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك "(٤) .

ومن كلام أبي جعفر : الفضل بن أحمد في مدح الكتابة :
" الكتابة أسّ الملك ، وعماد المملكة ، وأغصان متفرقة من شجرة واحدة ، والكتابة قطب الأدب ، وملاك الحكمة ، ولسان ناطق بالفضل ، وميزان يدل على رجاحة العقل ، والكتابة حلية وزينة ، ولبوس وجمال وهيبة ، وروح جارية في أجسام متفرقة ، والكتابة أفضل درجة وأرفع منزلة ، ومن جهل حق الكتابة فقد وسم بوسم الغواة الجهلة ، وبالكتابة والكتاب ، قامت السياسة والرياسة ،

---

(١) صبح الأعشى ١/٣٨ .
(٢) انظر نفس المرجع ١/ ٦٥ .
(٣) انظر نفس المرجع ١/ ٤٤ .
(٤) انظر نفس المرجع ١/ ٤٤ .

ولو أن فضلا ونهلا تصورا جميعا تصورت الكتابة، ولو أن في الصناعات صناعة مربوبة لكانت الكتابة ربا لكل صنعة "(١).

وكان اليونانيون يسمون علم الكتابة " العلم المحيط "(٢).

وامتداح حرفة الكتابة امتداح للكتاب الذين يزاولونها ، فلما كانت الكتابة هي أعظم الصناعات وأنبل الحرف لزم أن يكون متهنهنها أنبه الناس وأنبلهم .. يقول صاحب كتاب نثر النظم : " ويريقون دماء الأعداء بأسنة أقلامهم ، وقديما أغنت كتبهم عن الكتائب ، ونابت آثار أيديهم عن القواضب ، وأجرى على أنامهم جسام المنائح والمواهب ، ففي سواد مدادهم بياض النعم ، وحمرة الدم ، وفيه مرة روح الحياة وأخرى سم الحيات ، وطورا حلاوة الأري ، وتارة مرارة الشرى ، ويوما ثواب النعيم ، ويوما عقاب الجحيم * ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم *(٣).

وزيادة على المجد الأدبي ، المنزلة الاجتماعية التي تؤهل اليها الكتابة ، فهي أقرب الطرق للثراء والغناء ، يقول صاحب كتاب " مواد البيان ": " ليس من الصنائع ما يلحق بصناعة الكتابة ، ولا يساويها ولا ما يكسب ما تكسبه من الفوائد والمعاون ، مع حصول الرفاهية والترفع عن دناءة المكاسب ،

---

(١) انظر صبح الأعشى ١ / ٣٧ .

(٢) انظر مواد البيان ص ١٧٥ .

(٣) نثر النظم وحل العقد ص ٥ .

ولا ما يوصل اليه من الحظوة ورفاهية العيش ، ومشاركة الملوك في اقتناء المساكن الفسيحة ،والملابس الرقيقة ،والمراكب النبيلة ، والدواب النفيسة، والخدم المستحسنة ، وغير ذلك من آلات المروءة والآداب الملوكية في أقرب المدد ،وأقل الأزمنة ،وناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشرفها وارتفاع خطرها ،وسمو قدرها ، اذا كان لها سمة لمثل هذه الجدوى التي لا يوجد مثلها في غيرها من الصنائع" (١) .

فالكاتب اذا فاز بالحسنيين معا : اذ احتل من المجتمع المنزلة العالية وتوفرت له أسباب الهناء والثراء و رغد العيش . ولو أن هذا الاطراء و المديح الكثير — الذى كاله المؤلفون للكتاب — حتى جعلوا الكاتب يسامي الوزراء والرؤساء بل يساويهم — لم يصدر الا ممن اشتغل بهذه الصناعة ، لقلنا ان هؤلاء الكتاب انما يمدحون أنفسهم ويطرون مهنتهم، حتى جعلوا الملوك أحوج اليهم من حاجتهم الى الملوك ، و كأنهم يريدون أن يقولوا للملوك والسلاطين : "احفظوا لنا هذه المكانة واعرفوا أقدارنا ،فنحن الذين يقوم ملككم على أكتافنا و نذب عن ملككم بأقلامنا .. ولن نخلص الا اذا أكرمنا ".

قلت : لو أن هذا كله لم يصدر الا ممن هم في الحقيقة كتاب انشاء ،لظننا ذلك .

غير أننا وجدنا حتى الخلفاء أنفسهم يشيدون بهذه المهنة ،ويثنون على الكتاب و يعظمون منزلتهم ، قال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد

---

(١) مواد البيان ص ٣٨ .

يوما : " لو عداك ما أنت فيه ما كنت معول عليه من دهرك ؟ قال : فارس حرب ، ثم قال لسليمان : فأنت ؟ قال : كاتب سلطان ، ثم قال ليزيد : فأنت ؟ ، قال : والله يا أمير المؤمنين ما تركا حظا لمختار "(١) .

ولأجل ذلك أصبح الكتّاب مثلا أعلى يتمنى كل طموح أن يبلغه ويرجو كل أب أن ينشأ أولاده على مثل أخلاق الكتاب وسلوكهم . قال بعض المهالبة لبنيه : " تزيوا بزي الكتاب فانهم جمعوا أدب الملوك، وتواضع السوقة "(٢) .

ويقول القلقشندي في اطراء الكتابة وبيان رفعتها : " ولما كانت الكتابة أشرف الصنائع وأرفعها وأربح البضائع وأنفعها ، وأفضل المآثر وأعلاها ،وآثر الفضائل وأغلاها ، لا سيما كتابة الانشاء التي هي منها بمنزلة سلطانها وانسان عينها ، بل عين انسانها ، لا تلتفت الملوك الا اليها ، ولا تعول في المهمات الا عليها ، يعظمون أصحابها ،ويقربون كتابها ،فحليفها أبدا خليق بالتقدير ، جدير بالتبجيل والتكريم "(٣).

وقال المؤيد : " الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة اليها ينتهي الفضل ، وعندها تقف الرغبة "(٤) .

---

(١) أعتاب الكتاب ص ٤٥ .
(٢) انظر العقد الفريد ٣/١٦ .
(٣) مقدمة صبح الأعشى ١/٦ .
(٤) نفس المرجع ١/٣٧ والعقد ٣/١٦ .

وقال سهل بن وهب : " الكتابة نفس واحدة تجزأت في أبدان متفرقة ، ومن لم يعرف فضلها ، وجهل أهلها ، وتعدى بهم رتبهم التي وضعهم الله بها فانه ليس من الانسانية في شيء ".(١)

على أن هذه المنزلة ليست مستحدثة لهم في الاسلام ، بل كانت لهم منذ القدم ، فقد روى الجهشياري : " أنه لم يكن يركب الشهاليج في أيام الفرس الا الملك والكاتب والقاضي ".(٢)

ويقول النويري في تفضيل كتاب الانشاء على غيرهم من الكتاب :
" كنا قد قدمنا ذكر كتاب الانشاء لما هم بصدده من الصدارة والوجاهة والنبالة ، والنباهة ، والفصاحة ، والصباحة ، والنزاهة ، والسماحة ، والأمانة ، والديانة ، والسيادة ، والصيانة ، ولما تصدوا له من كتم أسرار الدول ، وتروّوا به من محاسن الأواخر ومآثر الأول ، والتحقوا به من مطارف الفضائل والمكارم ، وتحلوا به من صفات الأفاضل والأكارم الى غير ذلك من مناقبهم الجمة وأياديهم التي وضحت غررا في ليالي الخطوب المدلهمة ".(٣)

وقال ابن الأبّار في مقدمة كتابه (اعتاب الكتاب) : " هذه نبذة من اعتاب الكتاب وتشفيع الآداب تشهر كمالهم في الاضطلاع ،

---

(١) انظر أدب الكتّاب ص ٣١.
(٢) الوزراء والكتاب ص ٩.
(٣) نهاية الأرب ٨/١٩٢.

والاكتفاء ، وتشهد بمالهم عند الأمراء والخلفاء من كريم الاختصاص ولطيف الاحتفاء"(١) .

ومن مزايا مهنة الكتابة ،أنه لا يلزم من طلبها أن يكون ذا مجد تليد أو نسب عريق .. بل هو يفرض احتراسه على الناس بما فيهم السلطان بفضله وقدراته وأدبه وسلوكه وعلمه ،وهو بهذا يختلف عن السلطان الذى ربما فرض احترامه بهيبة السيف وكثرة الأعوان أو عن القائد الذى يكسبه بالشجاعة والشدة .. ولهذا فالكتابة تنبه من ذكر الخامل .. فربما تولى هذا المنصب — على خطره — مولى لم يكن له ذكر أو نسب ليس على دين الاسلام وانما أهله جهده وكفاءته وعصاميته وموهبته التي جعلت الخلفاء في أشد الحاجة اليه ، وجعلت الناس يسلمون له بهذا الفضل ..

فان الخلائق حتى عـــداك   اذا ما سبقتهم هللـــوا

يقول ابن عبد ربه : " وقد تنبه قوم بالكتابة بعد الخمول ، وصاروا الى الرتب العلية ، والمنازل السنية ،منهم سرجون بن منصور الرومي ، كان روميا خاملا فرفعته الكتابة ،ومنهم حسّان النبطي كاتب الحجاج ، وسالم مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الكاتب .. والربيع والفضل بن الربيع ، ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى ،وابن المقفع، والفضل بن سهل ،وأحمد بن يوسف ، وابن عبد السلام ،والجند يسابوري

---

(١) اعتاب الكتاب ص ٤٣ .

ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ، ومنهم الوزير المهلبي كان في أول أمره في شدة عظيمة من الفقر والضائقة ، ثم ترقى بالكتابة حتى وزر لمعز الدولة بن بويه ، وهذا القاضي الفاضل من غير بيت الوزارة ، رفعته الكتابة حتى وزر لصلاح الدين الأيوبي وعلت رتبته عنده حتى بلغ من رتبته لديه أن كان يكتب في كتب صلاح الدين عن نفسه بما أحب . . وأبلغ من ذلك ما كان من أمر أبي اسحاق الصابي " ، فرغم أنه كان على دين الصابئة فقد بلغت به الكتابة الى أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع ٣٦٣—٣٩٣ هـ والمطيع ٣٣٤—٣٦٣هـ ، وعز الدولة بن بويه ، ولما رثاه الشريف الرضي بعد موته ، لامه الناس لكونه شريفا يرثي صابئا ، فقال :" انما رثيت فضله "(١) . ويقول ابن المدبر في ذلك : " ورفع القلم خاشع الطرف صغير الخطر لئيم الجنس ، درج من عش النجار ، ونشأ بين المكيال والميزان ، كيف أشالت البلاغة بضبعه(٢) ، وخشعت له الرجال ، ولحظته العيون بالوقار ، فشكرت منه اللفظة ، ورجت منه اللحظة كمحمد بن عبد الملك الزيات "(٣) .

ولم أر من انتقص حق الكتاب سوى الجاحظ في رسالته " في ذم أخلاق الكتاب " اذ قال :

" ان قح الكتابة بني على أنه لا يتقلدها الا تابع ،

---

(١) عن صبح الأعشى ١ / ٤٠—٤٢ وانظر العقد ٣ / ١١ ومابعدها .
(٢) الضبع : العضد " القاموس المحيط " .
(٣) الرسالة العذراء ص ٤٣ .

ولا يتولاها الا من هو في معنى الخادم ، ولم نر عظيما قط تولاها بنفسه أو شارك كاتبه في عمله ... فاحكامه أحكام الأرقاء ، ومحله من الخدمة محل الأغبياء " ... وقالوا : لم ينصب هذا بموضعه الا لخاصة فيه ، وان جهلناها وفضيلة موسومة وان قصر علمنا عنها ، ولعلة عمر بن فرج في السفه والمباهته ، وابراهيم بن العباس في الشره والرقاعة ، ونجاح بن سلمة في الطيش والسخافة ، وأحمد بن الخصيب في اللؤم والجهالة ، وآل وهب في النهم والنذالة ، ويحيى بن خاقان في النذل والفاقة ، وموسى بن عبد الملك في الرخم[1] والبلادة ، وابن المدبر في الخب[2] والمكابرة ، والفضل بن مروان في الفدامة "[3].

ويقول في موضع آخر ... : " ولا يحضر كاتب الرسائل النائبة ، ولا يفزع اليه في حادثة ، فاذا أبرم الوزراء التدبير ، ووقفوا منها على التقدير ، طرحت اليه رقعة بمعاني الأمر ينسق فيه القول ، فاذا فرغ من نظامه واستوى له كلامه ، أحضر له محررا فجلس في أقرب المواطن من الخليفة ... فاذا انقضى ذلك فهما والعوام سواء "[4]

مع أنه هو القائل فيهم : " أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب ، فانهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا "[5].

---

(١) الرخم : من الرخمة وهي طائر نهم مولع بالوقوع على الجيف ، أساس البلاغة ص ٢٢٦ .

(٢) الخب : الخداع ، القاموس المحيط .

(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٤ ومابعدها .

(٤) نفس المرجع ص ٤٨ .

(٥) البيان والتبيين ١/١٣٧ .

وقد يكون الجاحظ انما سب أخلاقهم مع اعترافه بحذقهم وبلاغتهم..
وقد تجنى الجاحظ على الكاتب حين ذكر أنه لا يتولى الكتابة الا من هو في معنى الخادم .. فمع أن الكاتب تابع للسلطان ، الا أنه يحتل منه منزلة عظيمة ... واذا كان يقصد بقوله هذا أن كل من يشتغل بالدولة فهو في معنى الخادم ، فانه لا يسلم من هذا الحكم سوى الخليفة أو السلطان .. فيدخل فيه الوزير والقائد والقاضي .. اذ كل منهم يخدم الدولة .

منزلة كاتب الانشاء بين الأدباء :

منذ أن اكتمل ديوان الانشاء ، وأصبح الكاتب يتولى بنفسه تحرير الرسائل .. بلغت منزلته درجة عظيمة في المجتمع وفي الدولة باعتباره ممثلا للأدباء لدى الحكام بحيث لم يستطع أن يساويه في هذه المنزلة شاعر أو خطيب — وقد كانوا — قديما — اذا أطلقوا كلمة " كاتب" لا يريدون غير كاتب الانشاء . في حين ظل الشعراء في موقف المستجدى للسلاطين ، والأمراء ، ولم يظفر واحد منهم — مع نباهة بعضهم ، وموهبته الفذة ، ومع حاجة الحكام الملحة لشعرهم — بأي مركز ادارى ، أو قيادى مهم .

فقد توفى المتنبي — مالىء الدنيا وشاغل الناس — وهو يتحسر على ولاية يجد فيها كرامته ويرضى بها طموحه وكبرياءه . وقصارى ما وصل اليه أبو تمام أن عين رئيسا للبريد بالموصل قبل وفاته بسنتين (١) .

---

(١) انظر الاعلام ٢/١٦٥ .

في حين استطاع كثير من الكتاب أن يبلغوا فوق ما تمنى الشعراء ، حيث كانت لهم الولايات ، واتخذ الحكام منهم الوزراء والمستشارين .

فلا مجال اذن للموازنة بين منزلة الكاتب والشاعر أو الخطيب في هذا المجال ... وانما يمكن الموازنة بينهم من الناحية الأدبية الفنية ، فمن منهم أكثر اثراء للأدب ، وأقدر — بفصاحة اللسان ، ونصاعة البيان — على الأداء والتعبير ، واستمالة قلوب القراء أو المستمعين .

أقول هذا لأنني وجدت من تعرضوا للموازنة بين الكتاب والشعراء يجعلون المنزلة الاجتماعية والسياسية معيارا للمفاضلة بينهم . وبخاصة من يحكمون للكتاب على الشعراء . فقد شغلت هذه القضية المؤلفين منذ القدم ، كأبي هلال العسكري (١) والثعالبي ، وابن رشيق ، وابن الأثير (٢) ، والكلاعي ، والقلقشندي وغيرهم — ولننظر مصداق ذلك فيما كتبه الثعالبي في معرض تفضيله للكاتب على الشاعر ، وكيف أنه ارتكز في حكمه بينهما على ما ناله الكاتب من مناصب قيادية ومنزلة اجتماعية اذ يقول :

" ولم تزل طبقة الكتاب مرتفعة على طبقات الشعراء ، فان الكتاب — وهم ألسنة الملوك انما يتراسلون في جباية خراج أو سد ثغرة أو عمارة

---

(١) انظر الصناعتين ص ١٤٢ فقد فضل العسكري الشعر على الكتابة وفي تفضيله شيء من النظرة الفنية ، مع اعترافه أن الكتابة مدار السلطان .

(٢) أنظر المثل السائر ٤/ ٥ .

بلاد أو اصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو دعاء الى الفة ، أو نهي عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية في رزية أو ماشاكلها من جلائل الخطوب و معاظم الشئون التي يحتاجون فيها الى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ،و معارف مضنية ، وقد وسمتهم خدمة الملوك بشرفها ،وبوأتهم منازل رياستها ،وأخطارهم عاليه بحسب علو الخطر مما يفيضون فيه ويذهبون اليه . والشعراء انما أغراضهم التي يرمون نحوها ،و غاياتهم التي يحدون اليها ، وصف الديار والآثار ،وذكر الأوطان ،والحنين الى الأهواء "(١) .

فمجال المقارنة عند الثعالبي اذا كثرة الأغراض التي يطرقها كل منهما ،و مدى قرب كل منهما من السلطان .. مع أنه خلط بين الأغراض الخاصة بالشعر والخاصة بالكتابة .. فنحن نعرف أن الكتاب طرقوا أغراض الشعر واتخذوها موضوعات لرسائلهم كما سطوا على الشعر فحلوه واستعملوا معانيه . وأكبر دليل على ذلك ، كتاب الثعالبي – نثر النظم – ، في حين نجد الكلاعي في كتابه " احكام صنعة الكلام " أكثر عرفانا بدور الشعر وأهميته من الثعالبي ، فهو يقول : " ان الترجيح بين المنثور والمنظوم يم قد خاض فيه الخائضون ، و ميدان قد ركض فيه الراكضون ، ورأيي أن القريض قد تزين من الوزن والقافية بحلة سابغة ضافية ، صاربها أبدع مطالع وأصنع مقاطع ،وأبهر(٢) مباسم وأنور مباسم ،وأبرد أصلا(٣) ، وأشرد مثلا ، وأهز لعطف الكريم

---

(١) نثر النظم ص ٣ .

(٢) بهر الرجل : برع .و بهرت فلانة النساء :غلبتهن ،وبهر القمر : أضاء حتى غلب الكواكب . الصحاح ٢/٥٩٩ .

(٣) أصلا : جمع أصيل : العشي .

وأقَلَّ لضرب اللئيم ،ولكن النثر أسلم جانبا ،وأكرم حاملا وطالبا
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لأنْ يمتلئ جوف أحدكم قيحا
خير من أن يمتلئ شعرا " ... لأنّ الشعر داع لسوء الأدب وفساد
المنقلب ،لأنه — لضيقه وصعوبة طريقته — يحمل الشاعر على الغلوّ في
الدين حتى يئول الى فساد اليقين ،ويحمله على الكذب ، والكذب
ليس من شيم المؤمنين ، ومما يدل على ما أوردته ،ويقضي بصحة ماذكرته
أنك تجد الكتّاب والبلغاء ، أكثر أخبارا من الشعراء ،أمرا شائعا فيهم،
ومعهودا منهم " الى آخر ما قاله الكلاعي (1) .

وهذه موازنة ،كما ترى ،خالية من الموضوعية ، رغم اعتراف
المؤلف بتأثير الشعر في العواطف والأحاسيس ،واستمالته للقلوب . وقد
حاول أبو هلال العسكري أن يعطي كلا من الفنين حقه من الفضائل
مع ميله للشعر ، فجعل الخطابة والكتابة تختصان بأمور الدين والسلطان ،
أما الشعر،فمع أنه بني على الكذب فان الشاعر انما يطلب منه حسن الكلام
وجودة المعنى ،فأما الصدق فيطلب من الأنبياء .. ثم ذكر من فضائل
الشعر التي لا تشاركه فيها الكتابة ولا الخطابة : قوة اللفظ ، وطول
بقائه على أفواه الرواة ، واستفاضته في الناس ، وشدة تأثيره في الأغراض
من ذم أو مدح ، وصلاحه للمحافل والمجالس الجامعة ، وما يفوز به
صاحبه من الهبات الجزيلة ... وأنه أقدر على بعث الأريحية والامتاع
لسامعه ،ثم ان انشاده يطيّب مجالس الظرفاء والأدباء ، وهو مادة
الألحان التي هي أهنأ اللذات ،وأنه مصدر للألفاظ الجزلة والفصيحة

---

(1) انظر ص ٣٦ ومابعدها .

والفروسية ، كما أنه مصدر الشواهد العربية ... وهو مع ذلك ديوان العرب ومخزن حكمها وآدابها ، ومستودع علومها وتواريخها وأيامها [1] .

وينقل القلقشندي ما قاله العسكري من فضائل النثر ، الا أنه يرى أن النثر أرفع درجة وأعلى رتبة وأشرف مقاما وأحسن نظاما ، ويعلل ذلك بأن معاني الشعر تابعة لألفاظه ، ويستشهد بقول صاحب مواد البيان : " أن العرب أحست بانحطاط رتبة الشعر عن الكلام المنثور ، ولذلك هم والد امرئ القيس بقتله حين قال الشعر ، وأن النابغة الجعدي قد حط الشعر من رتبته بعد أن كان سيدا في قومه لا يقطعون أمرا دونه " [2] .

وهكذا نجد أن أعدل من كتب في الموازنة بين الفنين ، أو بين الشعراء والكتاب هو أبعدهم عن صنعة الكتابة ، كأبي هلال العسكري ، أما ابن رشيق ، فقد فضل الشعر على النثر مدفوعا في آرائه بمحاولة تفنيد آراء الثعالبي في تفضيله النثر على الشعر [3] .. والموازنة بين الكتابة والشعر هي السبيل لبيان منزلة الكاتب الأدبية ، لأن النقاد حينما يفاضلون بين الكاتب والشاعر انما يحاولون بيان المنزلة الأدبية لكل منهما ، وان خلطوا بين المنزلة الأدبية والاجتماعية ، فربما بلغ الكاتب

---

(١) انظر الصناعتين ص ١٤٢ ومابعدها .
(٢) صبح الأعشى ١/ ٥٨ ومابعدها .
(٣) انظر العمدة ١/ ١٩ ومابعدها .

أعلى المراتب — من الناحيــة الاجتماعية — في حين نجد أدبــه دون مستوى أدب الفحــول ، كالصاحب بن عباد ، الذى بلغ من الرفعة بحيــــث كان مقصد الأدباء من شعراء وكتاب ، حتى قال عن ذلك الثعالبي :
(واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر ما يربى عددهم على شعراء الرشيد) (١) . فأشاد به معاصروه مـــن الكتاب والمؤلفين ، لما حباه الله به من الجاه والمال والمركز ، وليس لأنه مبرز في الأدب ، ففى الأدباء من يفوقــه جودة وبلاغــة ، ولم ينل ما نال من الشهرة والاشادة والثناء . وما ذلك الا لأن المؤرخين ينظرون لأدبه من خلال مركزه وجاهــه وثرائــه .

على أن الموازنــة بين الكتاب والشعراء تختلف من زمان لآخــر ، كما تختلف باختلاف المواضيع التي يتناولونها ، فللشعر ميزاتــه كما أن للنثر ميزاتــه ، ولكل منهما مقام لا يغنى فيه فن عن فن .

فالنثر أقدر على التعبير عن مصالح الأمــة ، الدينية والاجتماعية والسياسية والادارية . . فهو التعبير الأسهل للشرح والايضاح والتفكيـــر العميق ، والتقصى والتفريع ، سواء في مجال العلوم أم السياســة أم التعليم أم غيرها من شئون الحياة ، مع أنه لا يخلو من الأسلوب المحكـــــم والبلاغــة وحسن الصياغــة والتأثير ، أما الشعر ، فهو الفن الذى يمتع الروح ، ويبعث على الأريحيــة ، ويثير في النفس المعاني الجميلة والقيـم النبيلة . . فهو غذاء الروح ، وبلسم الجراح ، ودافع للتمسك بالأخـــلاق

---

(١) انظر اليتيمة ١٩٣/٣ .

الفاضلة ، و منفر عن ضدها ، وأوعى للأمثال والحكم ، وهو مرآة للصور الرائعة الأخاذة ، والتعابير البليغة الرائعة ، والكنايات اللطيفة المستملحة ، وهو الثوب القشيب الذي يظهر المعنى من خلاله جميلا رائقا لا ينسى ولا يمحى من الذهن بسهولة (١) ، فهو أكثر شحذا للعزائم وأجذب للعواطف وآسر للقلوب .

ولا يعني هذا ، أن الشعر اختص بكل هذه الصفات دون النثر، ولكن الشعر أقدر على ذلك ، خاصة في الموضوعات التي جعلها النقاد من أغراضه ، كالنسيب والهجاء والوصف والرثاء . وذلك كله يتوقف على الموهبة الأدبية لكل من الكاتب والشاعر ، فربما كان كاتب أقدر على التعبير من شاعر ، وربما وجد شاعر أكثر ثقافة ، وأعمق فكرا وأصدق احساسا ، فكان شعره أكثر فائدة للمتلقي ، وأعمق أثرا فيه . فلكل فن مجاله ودوره ووظيفته في الحياة بحسب بلاغة قائله وزمانه وموضوعه ، فلا نستطيع أن نستغني بالنثر عن الشعر ولا بالشعر عن النثر ، وقد يتقدم الشعراء على الخطباء والكتاب في زمن كالعصر الجاهلي (٢) لنبوغهم وجودة شعرهم ، ولميل الناس للشعر لكونهم في ذلك الزمن أقرب للذوق العربي .. حيث كانوا يتذوقون الشعر و ينقدونه ، ويرويه بعضهم لبعض .

---

(١) انظر الممتع في صنعة الشعر عن أهمية الشعر في تخليد المآثر ص ٥٢ و ص ١٥٥ و ص ١٦١ الى آخر ص ٢٧١ .

(٢) انظر البيان والتبيين ١ / ٢٤١ ، حيث قال أبو عمرو بن العلاء : " كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ... " .

وتساوى الكتاب والشعراء في القرن الرابع الهجرى لاحتياج مصالح الأمة للفنين ، ولظهور بلغاء في كليهما . وتقدم النثر على الشعر في القرون التالية لذلك . . ومنها القرن الذى نبحث فيه — أعني القرن السادس الهجرى — لبعد الحكام عن الاصالة العربية ، ولأن زمانهم لم ينجب لهم أمثال المتنبي ، والبحترى ، والشريف الرضي .

أما اليوم ، فقد تأخر الشاعر كثيرا عن الناثر عموما ، لتشعب المصالح والأغراض ، والسرعة التي يتطلبها انسان اليوم في كل شيء ، حتى فيما يقرأ أو يسمع ، ولحاجته للفهم وملاحقة الثقافات العامة المتنوعة والمتجددة أكثر من حاجته للاستمتاع والترفيه والتملى المتأني . وهذا كله لا يفي به الا الكتابة ، لأنها غير مقيدة بوزن ولا قافية ، ولذلك رأينا الشعراء في زماننا يحاولون التعبير عن أفكارهم بشعر لا يتقيد بالتقفية ، أو التفعيلات المعروفة ، ومع ذلك يبقى الشعر مقيدا ، والنثر طليقا ، ويبقى النثر أقدر على تلبية مطالب الحياة والتعبير عنها ، وايصال المعلومات المختلفة الى أذهان الناشئين .

أما منزلة كاتب الانشاء — من الناحية الأدبية — بالنسبة للكتّاب الناثرين عموما ، كالجاحظ ، والتوحيدى ، وبديع الزمان ، وأبي العلاء المعرى ، فاننا نجدها أقل درجة . وبمعنى أوضح ، فان مستوى الرسائل الديوانية ليست في الذروة من الأدب النثرى ، وان كانت تبلغ في بعض الأحيان مبلغا من الاجادة والبلاغة يلحقها بروائع الأدب ، ولكنها مع ذلك تبقى رسائل سياسية تعالج موضوعات ادارية بأسلوب أدبي جميل .

ثم لن قيمتها الأدبية تكمن في صياغتها وأسلوبها ،لأنْ معانيها محصورة في الموضوعات السياسية والادارية تقريبا . وهي من ناحية أخرى ، تمثل فرعا من فروع الأدب اذ تقع في منزلة بين النثر التأليفي أو الوصفي وبين المقامات ، كما سنرى .

اختصاصاته الرسمية :

بدأ الكاتب يأخذ دورا في الدولة الاسلامية مبكرا .. فقد عرفنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، اتخذ عددا من الكتاب الذين كانوا يحررون الرسائل الى الملوك لدعوتهم الى الاسلام ، ثم اتخذ الخلفاء رضي الله تعالى عنهم ، كتّابا يقومون بمهمة الكتابة الى الولاة والقواد عن الخلفاء ... الا أن اختصاصات الكاتب تطورت مع الزمن فمن كان دوره لا يتعدى كتابة ما يملى عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين (١) ، تطور مع مرور الوقت حتى استقل الكاتب بانشاء الرسائل بأسلوبه هو ،وذلك في دولة الأمويين . فنحن نعرف أن سالما ، مولى هشام ،وعبد الحميد الكاتب أحدثا في أساليب الرسائل ،وغيرا في صياغتها ما عدّ بداية جديدة ومنهجا متطورا في الكتابة العربية عموما ، حتى قيل : بدأت الكتابة بعبد الحميد ..

---

(١) بدليل غضب الرسول صلى الله عليه وسلم ،على عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذى خالف في كتابه املاءه صلى الله عليه وسلم ،أنظر قصته في ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤١ ، وهذا يخالف ما رواه الواقدى من أن عبد الله بن الأرقم كان يجيب عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، الى الملوك . انظر التراتيب الادارية ١/ ١٢١ ، وانظرفي ذلك العقد الفريد ٣/ ٦ .

وهذا يعني أن وظيفة الكاتب ،تعدت مرحلة الاستملاء الى مرحلة انشاء الرسائل ،وتحريرها بأسلوب الكاتب نفسه . ويظهر أن دور الكاتب في عهد الأمويين اقتصر على الناحية الأدبية ولم يتعدها الى المشاركة في الادارة والتنفيذ والمهمات الأخرى التي نالها الكاتب في عصر العباسيين وما تلاه .

فقد كان أبو سلمة الخلال ،أول كاتب لقب بالوزير في أول خلافة السفاح (١٣٢–١٣٦هـ)(١) . ثم نيطت بالكتاب مهمات أكبر وأخطر ، سياسية وادارية ،بالاضافة الى الناحية الأدبية .. فقد فوض الرشيد – على علو همته – أمور الدولة الى جعفر بن يحيى البرمكي(٢) . فكان الكاتب يمارس مهام الحكم ، بالاضافة الى اجادته لغة الكتابة ، ولا يستغنى السلطان عن رأيه ومشورته ،ولذلك اشترطوا فيه أن يكون كامل الصفات، كما مر بنا في الفصل السابق .

وقد كان يطلق على الكاتب زمن الخلفاء الراشدين ،وبني أمية ، لقب "الكاتب"(٣) ، ولما سمي الديوان ، بديوان الانشاء ، زمن عبد الملك بن مروان ، أطلقوا عليه رئيس ديوان الانشاء ، وربما أطلقوا عليه كاتب السر(٤) .

---

(١) انظر الوسائل الى معرفة الأوائل ص ٨٥.

(٢) انظر الاعلام ٢ / ١٣٠ ،وشذور الذهب ١ / ٢٣١ ، والدولة العباسية للخضري ص ١١١ من سلسلة تاريخ الأمم الاسلامية .

(٣) خطط المقريزي ٢ / ٢٢٥ طبعة بولاق سنة ١٢٧٠هـ ،والصبح ١ / ١٠٣.

(٤) نفس المرجع ٢ / ٢٢٥ والعباسيون أول من أطلق عليه لقب الوزير ، صبح الاعشى ١ / ١٠٣.

وفي العصر السلجوقي ،كان يطلق عليه "طغرائي" نسبة الى ديوان الطغرا [١] .

وفي العصر الفاطمي ،كانوا يطلقون عليه "كاتب السر" أو "الدست" [٢] ، وفي المغرب "صاحب القلم الأعلى" [٣] .

وقد أخذت مهمات ديوان الانشاء تزداد تدريجيا مع الزمن ، وبالتالي زادت مسئوليات الكاتب واختصاصاته ،حتى صار اليه القيام بما يخص الدولة من المكاتبات صادرها وواردها ،وتبليغ أوامر السلطان الى الجهات المسئولة عن التنفيذ ،وتحرير الرسائل اللازمة لذلك ، ومراجعة السلطان بشأن الشكاوى الواردة ،والاشراف على البريد ،والعناية بمراكز الحمام وتصريف القضاء [٤] . وربما فوض الخليفة أو السلطان أمور الدولة اليه ،كما فعل الرشيد مع البرامكة ، وربما مارس أعمال الوزير كما فعل الفاضل .

ومما يجدر ذكره أن ديوان الانشاء كان بمثابة وزارة ،يأتي على رأسها رئيس الديوان ،ثم تتدرج منازل الكتاب بحسب ما يتولونه من مناصب فيه ،علوا وانخفاضا . وقد ذكر القلقشندى ، سبعة من كتاب

---

(١) انظر اختصار دولة آل سلجوق ص ٧٧ .
(٢) انظر الصبح ١٠٣/١ .
(٣) انظر خطط المقريزى ٢٢٦/٢ .
(٤) انظر صبح الأعشى ٣٠/٤ .

الديوان في العهد القديم :

الاول : الذى يتولى انشاء المكاتبات والولايات .

الثاني : الذى يتولى الكتابة الى الملوك عن ملكه .

الثالث : من يتولى الكتابة الى أهل الدولة وكبرائها وولاتها .

الرابع : من يتولى كتابة المناشير والكتب اللطاف والنسخ .

وكل هذه الوظائف مهمتها واحدة ،والعمل بها لا يختلف الا من حيث أهمية المكتوب اليه .. والتقسيم ليس الا من قبيل توزيع المسئولية وتخفيف العبء وتنظيم العمل .

الخامس : المبيض .

السادس : المصحح .

السابع : من يتولى ما يعرف في عصرنا "بالارشيف" بالاضافة الى وضعه لدفتر يتضمن مختلف الالقاب ، وآخر للصادر والوارد .

والثلاثة الاخيرون ،لا يدخل عملهم دائرة الادب ،لان عملهم اداري تنظيمي فقط (١) .

أما اختصاصات كاتب الانشاء في الزمن المتأخر ، فقد ذكر منها القلقشندى ،اثنى عشر اختصاصا : كالتوقيع على الرقاع : أى الكتابة بما يعتمده الكاتب من أوامر لتنفيذها ، والنظر في الكتب الواردة ،والعناية بأن تكون الالقاب حسب ما جرت عليه العادة ، وتصفح ما يخرج

---

(١) انظر صبح الاعشى ١/ ١٣٠ ومابعدها ،نقلا عن التذكرة للصولي .

من الديوان قبل خروجه منه ، والنظر فيما يتعلق بالبريد ، وأبراج الحمام، والاهتمام بأمر فرقة الاسماعيلية [1] ، والاهتمام بالرسل ، والمناور [2] والمحرقات [3] والجواسيس ، والعيون ، وكل الأمور التي تعود بالنفع على السلطان والمملكة [4] .

وهكذا نرى أن مهمات رئيس ديوان الانشاء تتعدى الكتابة الى الأمور الادارية والسياسية ، فهو يقوم بعمل عدة وزارات ، مما يعرف اليوم. واذا كان رئيس ديوان الانشاء وزيرا تعددت مسئولياته كما ذكر وأصبح يمثل الحاكم في أكثر أموره ان لم يكن في كلها .

---

(١) هي الفرقة المعروفة ، وقد كانت تهدد أمن الدولة ، لما تقوم به من اغتيالات ، انظر الصبح ١١٩/١ ، ويسمون أيضا بالباطنية .

(٢) المناور : هي أن توقد النار ليلا في أعلى جبل مما يلي العدو ثم يوقد ما آخر يكون على أعلى جبل يليه حتى ينتهي الوقود الى المكان الذى يصل الخبر منه للحاكم . . وقد ابتدعت زمن المماليك حينما كانت الحرب سجالا بينهم وبين التتار . . انظر صبح الأعشى ١٢٧/١ ، ١٢٨ .

(٣) والمحرقات : هي أنه كان زمن المماليك أشخاص مرتبون بالقرب من ممالك التتار ينتظرون بزروع التتار حتى تيبس ثم يمسكون بالثعالب ونحوها ويربطون بأذنابها خرقا مغموسة بالزيت ويوقدون فيها النار ويرسلونها في الزرع فما تمر على شيء منه الا أحرقته حتى تحرق المزارع كلها . . انظر صبح الأعشى ٢٨/١ .

(٤) انظر في هذا الفصل ، نفس المرجع ١١١/١ ، —١٣٩ .

الفصل الثانى

تنافس الأدباء وتزاحمهم على مناصب الديوان
وأثر ذلك فى نهضة الأدب .

الفصل الثاني

تنافس الأدباء وتزاحمهم على مناصب الديوان وأثر ذلك في نهضة الأدب

منذ أن علت مكانة الكاتب في الدولة الاسلامية،وأضحت منزلته في الذروة من مراتب الدولة ، جاها وثراء ،وصار الكاتب أقرب الناس الى الخليفة بعد الوزير . . يطلعه على الأسرار و يستشيره في الأمور العظام ، لا يستغنى عنه في ليل ولا نهار ،أصبحت هذه المنزلة محل تنافس الأدباء وهدفا يسعى اليه كل من آنس من نفسه الكفاءة والقدرة ، وشعر بأهليته لتقلد هذا المنصب الخطير ،الذى لا يفوز به الا ذو حظ عظيم . . بعد أن أهلته ثقافته وموهبته وقدراته . . فأخذ أهل الهمم العالية ،والنفوس الكبيرة ،والأهداف البعيدة ، يتطلعون الى اليوم الذى يصلون فيه الى هذه المكانة . . غير أنهم يعلمون أنه" لا بد دون الشهد من ابر النحل " .

فقد مرت بنا تلك الشروط والصفات التي تطلبوها في الكاتب لينال هذا المنصب ، حتى قال ابن منجب : " ويجب أن يكون من البلاغة والفصاحة الى أعلى رتبة وأسنى منزلة ،بحيث لا يوجد في عصره من يفوقه في هذا الفن ، فانه لسان السلطان الذى ينطق به ويده التي يكتب بها ، و رب كاتب بليغ أصاب الغرض في كتابته فأغنى صاحبه عن الكتائب ،وأعمل القلم فكفاه أعمال البيض القواضب "(١) .

---

(١) قانون ديوان الترسل ص ١٠٠ .

ويقول ابن عبد ربه : " وللكتاب أحكام بينة كأحكام القضاة يعرفون بها وينسبون اليها ، ويتقلدون التدبير وسياسة الدولة دون غيرهم ،وبأهلها يقام أود الدين وأمور العالمين "(١) .

فالأمر اذا ليس ضربة حظ ،ولا ينال بقرابة أو تزلف ، بل لا بد من اعداد طويل قد يستغرق من حياة الكاتب سنوات وسنوات من التحصيل المضني والمران ،وأخذ النفس بجميع الآداب والعلوم ، ليستطيع أن يبرز على أقرانه و يحوز على قصب السبق في الميدان — وميدان التنافس في هذا المضمار هو ديوان الانشاء الذي يخرج الكتّاب ليقوموا بهذه المهمات . . ووسيلته هي البلاغة والاجادة في انشاء الرسائل . . فمتى استقام أسلوبه واستجيدت بلاغته وأظهر براعة ونبوغا في هذا الفن ، وأشير اليه بالبنان ،أصبح مرشحا للكتابة . . والذين يحكمون له بالتفوق في هذه الصناعة هم الخلفاء ، الذين كانوا في العصور الأولى من أبرز نقاد الأدب : نثره وشعره ، سواء الخلفاء الأمويون أم ولاتهم . . ثم ان رسائل البلغاء تذاع و تنتشر حتى يطّلع عليها النقاد والأدباء ،ولا شك أن الرسالة الجيدة تحظى لدى أهل الأدب بالقبول ،فيمتدحونها و يتداولونها كما يتداولون القصيدة الجيدة من الشعر ،وفي هذا شهادة لكاتبها بالبراعة والنبوغ . من أجل ذلك كانت المنافسة على مناصب الديوان شريفة ما دام الكاتب لا يتقدم الا بقدر ما تؤهله صفاته الشخصية والثقافية والعلمية والأدبية ، فبالرغم من أن المنافسة على المراكز تسبب بين المتنافسين — في العادة — الأحسن

---

(١) العقد الفريد ٣ / ٥ .

والبغضاء ، فان التاريخ يذكر لنا بعض الأمثلة من الايثار والتضحية بين الكتاب نادرة [١] .

وقد ظهرت بينهم روح جماعية دفعتهم لتكوين وحدة وظيفية ، دل عليها قول عبد الحميد الكاتب " يا معشر الكتاب " [٢] ، وحرص السابق على توجيه النصائح لأفراد مهنته من المعاصرين له أو اللاحقين [٢] . وهذا عكس ما وجدناه بين الوزراء الذين بلغ بهم الحسد والعداء لبعضهم ، بسبب التنافس على المنصب ، أن أطاح بعضهم ببعض .. فاذا تغلب وزير نكل بمن أطاح به ، وشرده أو سجنه وربما قتله [٣] .

ولأن مقياس الأفضلية عند القوم العلم والقدرة والنبوغ ، وبلاغة الأسلوب ، احتل مركز رئيس الديوان أناس مغمورون ـ كما مر معنا ـ كما احتله من ليس بالعربي حتى كاد الموالي يحتكرونه .. وليس هذا فحسب ، بل احتله من ليس من المسلمين ، كالصابي ، اذ هو ذمي مجوسي [٤] .. كما احتله في دولة الفاطميين ، اليهود والنصارى [٥] .. وذلك لحاجة الحكام الى من اشتهروا بالبلاغة والاجادة وبرزوا على غيرهم ، وان كانوا من غير المسلمين ، مع انهم غير مؤتمنين على أسرار الدولة الاسلامية .

---

(١) انظر قصة عبد الحميد الكاتب وابن المقفع في وفيات الأعيان ١ / ٣٠٧ ، المطبعة الميمنية ، وأدب السياسة ص ٥٢٦ .
(٢) انظر جمهرة رسائل العرب ٢ / ٤٥٥
(٣) انظر الوزراء للصابي ص ٣٤ .
(٤) انظر مقدمة كتاب الوزراء للصابي ص ويتيمة الدهر ٢ / ٢٤٢ ومابعدها .
(٥) انظر الروضتين ٢ / ٢ ، والأدب العربي في مصر من الفتح الى العصر الأيوبي ص ٢٣٨ .

كل هذه الاعتبارات جعلت من يريد الوصول الى ديوان الانشاء يبذل قصارى جهده في تحصيل شتى المعارف والعلوم ويمرّن نفسه على الانشاء البليغ ويحاول أن يبلغ بأسلوبه وبعبارته المرتبة العالية من البلاغة والجودة . بل ويحاول أن يأتي بما لم تستطعه الأوائل لعله يلفت النظر اليه ، وقد ذهب سراة القوم يوجهون أولادهم الى ديوان الانشاء للتدريب فلعلهم في يوم من الأيام يدركون هذه الصنعة ويتمكنون منها ، خاصة وان وظيفة الكاتب أصبحت منذ أواخر العصر الأموى أم الوزارة ، فمن كان يسمى كاتبا في العصر الأموى صار في مطلع العصر العباسي وزيرا "(١) .

كما زاد من اهتمام الناس بهذه الصناعة ، امتداح الخلفاء لها وثناؤهم عليها ، يقول بعض العهالبة لبنيه : " تزيوا بزى الكتاب فانهم جمعوا أدب الملوك وتواضع السوقة "(٢) ، كما قال المؤيد : " الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة "(٢) .

وقد مر بنا قول عبد الملك لأولاده : " لو عداكم ما أنتم فيه ما كنتم معولين عليه ورد هم عليه "(٢) .

وأشاد بهم جهابذة الأدب ، وامتدحوا طريقتهم وأسلوبهم ، فقال الجاحظ : " أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب ، فانهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا"(٣) .

---

(١) راجع الخلافة في الحضارة الاسلامية ص ١٨٨ .
(٢) العقد الفريد ٣/١٦ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٣٧ ، والعقد الفريد ٣/١٦ .

وقال في موضع آخر : " لا يقفون الا على الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة ، وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي اذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت الى حسان المعاني" (١) .

وناهيك بكلام الجاحظ حافزا على محاولة تعلم طريقة الكتاب . مع أن ما قاله هنا يخالف ما قاله في رسالته في ذم الكتاب (٢) .

واذا أضفنا الى ذلك كله تشجيع الخلفاء ، وشهاداتهم لهم بالمقدرة والتفوق ، واشادة كل من كتب في هذا الغرض بالدور المهم الذى يقوم به الكتاب ، علمنا لماذا أصبحت وظيفة كاتب الديوان غاية عليا لا يبلغها الا من شمر عن ساعد الجد ، وأخذ للأمر عدته .. وسعى لها سعيها .

وقد شعر الكتاب بوعورة الطريق ، وما يلزمهم من مشقة وعنت في سبيل الوصول الى تلك الغاية التي قد يوصلهم اجتهادهم اليها ،

---

(١) انظر البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .
(٢) ليس لهذا تفسير الا أن تكون الرسالة مدسوسة عليه ، أو أنه انما ذم أخلاقهم في تلك الرسالة ، وهنا يمتدح أسلوبهم في الكتابة . أو أنه لم يقصد بذمه للكتاب العموم بدليل ذكره لبعضهم فقط مع أنه عرض ببعض المشاهير منهم .

وقد لا يصلون ... يدل على هذا الاحساس ،قول العتابي مخاطبا الكاتب : " ما رأينا فيما تعرفنا فيه من فنون العلم وجربنا من صنوف الآداب شيئا أصعب مراما ،ولا أوعر مسلكا ولا أدل على نقص الرجال ورجاحتهم، واصالة الرأى وحسن التمييز من اختيار الصناعة التي خطبتها ،والمعنى الذى طلبته ، وليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ ، وقصدك بها الى مواضعها ،لأنّ اللفظة وقيمتها في الحسن لا تحسن في مكان غيرها" (١) .

وكما قال العتبى : " عقول الناس مدونة في كتبهم" (١) .. فتعين التنافس على وظائف الديوان ، في التحصيل والاستعداد والتهيء ثم الابداع والتنوع ،ومحاولة التقدم على الآخرين بابتداع أساليب جديدة أو بتطوير الأساليب المتبعة .. ومدار ذلك البلاغة وحسن السبك وحلاوة المنطق واختيار الألفاظ العذبة ،والمعاني الطريفة والعبارات الممتعة والتعبير البليغ ... فقد يلفت انتباه الخليفة رسالة أنشأها كاتب لأحد ولاته فيستقدمه ويستفيد من بيانه وبلاغته في ديوانه ، فكثر عددهم واشتد السباق بينهم اذ أن مجال الاشتغال بكتابة الانشاء واسع .. فلكل وال ، ولكل أمير جيش ـ غالبا ـ كاتب كما أن ديوان الخلافة يضم عددا من الكتاب ،وكتبهم مرآة لمقدرتهم الأدبية ،ومتى بلغ الكاتب مبلغ التنوع والاجادة ، اشتهر وتقدم في منصبه بقدر تقدمه في فنه ..

---

(١) الرسالة العذراء ص ٣١ ، ٣٢ وقالت البرامكة : " رسائل المرء في كتبه دليل على عقله وشاهد على غيبه " نفس المرجع ص ٣١ .


UMM AL-QURA UNIVERSITY

وهذه المحاولات ، وهذا التنافس ، هو الذي أثرى الأدب ، وهيأ الكتّاب لايجاد أساليب أكثر مرونة وحداثة .. فيها الجدة والفائدة .. تفي بشئون السياسة والادارة والملك .. وتعطي مجالا أوسع لفن التعبير ومناهج جديدة للكتابة وفنون القول .

ونحن نعرف أن أول تغيير في الأسلوب الكتابي كان مصدره الديوان .. اذ عدّ عبد الحميد الكاتب مجددا في الكتابة وسار على طريقته الكتاب من بعده حتى عدت طريقته مدرسة في الأساليب ، ولذلك قالوا : "بدئت الكتابة بعبد الحميد" ، كما عدوا طريقة ابن العميد في القرن الرابع طريقة جديدة ، سار على نهجها من عاصره ومن جاء بعده من الأدباء .

وكل المدارس الكتابية التي صنّفها المؤرخون ، كان منبعها الديوان ، سوى مدرسة الجاحظ والمعرى [(١)] ، وقد رأينا اعجاب الجاحظ بطريقة الكتاب ما يدل على تأثره بمنهجهم في الكتابة مع احتفاظه بأسلوبه الخاص الذي اشتهر به .

---

(١) انظر في ذلك بلاغة الكتاب في العصر العباسي ص ١٣١ وما بعدها ، وتطور الأساليب النثرية ص ١٣٩ ومابعدها ، ونشأة النثر الحديث ص ١٠٥ وما بعدها . والفن ومذاهبه في النثر العربي في مواضع متفرقة ، وأدب السياسة في العصر الأموى ص ٣٩٢ ومابعدها .

وكان الموالي لما حرموا من احتكار الكتابة بلغاتهم في أقاليمهم أخذوا يهتمون باللغة العربية وآدابها حتى ينافسوا العرب على وظائف الديوان بل يتفوقوا عليهم في فن التعبير .. وانقطعوا الى هذه المهنة وأصبح بقاؤهم في الدواوين مرهونا بمهارتهم وتجويدهم .

واستفادت اللغة والأدب من هذا التنافس الذى قام بين الكتاب عموما ،وبين الموالي والعرب .. واستطاع الموالي أن يفوزوا بالقدح الأعلى لأنّ المسألة بالنسبة لهم حتمية .. ونتيجة لهذا كله فقد خطا الأدب خطوات سريعة في طريق الفن .. وذلك أن الكتاب الموالي خاصة أخذوا يفتنّون في الأساليب ، ويطيلون فيها ويخرجون بالرسالة من غرضها الأساسي الذى هو أداء المعنى بأوضح وأقرب طريق الى أدائها بأسلوب جميل بليغ ، يجد فيه القارئ المتعة الفنية ،حتى تنوسي الغرض مع مرور الزمن بجانب الصياغة والشكل والنظام .. وأصبح الفن التعبيرى هو الغرض الأول للكاتب وهذا هو الأدب ، اذ الأدب فن التعبير .

الفصل الثالث

أشهر كتاب القرن السادس الهجري ومدارسهم الفنية.

الفصل الثالث

أشهر كتاب القرن السادس الهجري ومدارسهم الفنية

كان ديوان الانشاء مدرسة كبيرة ـ وان شئت فقل جامعة ـ يتخرج فيها المئات من الكتاب في الأساليب .. فمنهم من بلغ منزلة عالية وحظي لدى السلطان بمكانة ، ومنهم من وصل الى الوزارة أو رئاسة الديوان ، ومنهم من وصل الى أقل من ذلك . والكتاب الذين لم يتخرجوا من الديوان ، ولم يمارسوا الكتابة فيه لم يكونوا بمنأى عن التأثر بأساليب كتّابه ..
وقد مر بنا أن طريقة الكتاب في الأساليب هي الطريقة المثلى لمن أراد أن يبلغ شأوا في الأدب .

فهذا الحصكفي (ت ٥٥١هـ) ، يتأثر في أسلوبه بأسلوب الرسائل الديوانية ، ويتمثلها في رسائله الاخوانية مع أنه لم يشتغل في وظائف الديوان ، حتى عده بعض المؤرخين مؤسس مدرسة اللفظ والصنعة التي سار عليها من بعده من الكتاب وأشهرهم الفاضل [١] .

وكان المتوقع أن يكون عدد الكتاب كثيرا في هذا القرن لانتشار الثقافة وتعاقب الدول على حكم تلك البلاد ولمعظم الأحداث التي مرت بها ..
غير أن كتب التاريخ والأدب لم تذكر لنا منهم الا من اشتهر ذكره وطار صيته .. والظن أن الكثير منهم بقوا طي النسيان .. وحتى الذين ذكروا منهم لم يورد المؤرخون نماذج ، الا لصفوة الصفوة منهم ، والباقون

---

(١) انظر أدب الدول المتتابعة ص ٨٣٦ .

يذكرون ضمن ذكر كتاب مشاهير ديوان الانشاء دون ايراد نماذج لرسائلهم ، واذا وردت لهم نماذج فهي قليلة جدًّا . ولعل انتاجهم ضاع أو أنه ضمن الملايين مما احتوته المكتبات العالمية من المخطوطات التي تنتظر من يحييها و يبعثها من مقابرها . وانما يعنينا من أدباء هذا القرن ، كتاب الانشاء منهم . . وقد لفت نظري من خلال بحثي في مراجع أدب تلك الفترة أن أشهر الكتاب ظهروا في الدولة الأيوبية ، فرغم أن الفاطميين حكموا مصر أكثر من قرنين ، وأنهم اعتنوا بديوان الانشاء . . وجذبوا لرئاسته كبار الكتاب لينافسوا بهم خلفاء العباسيين ، فاننا لم نطّلع على انتاج لهؤلاء الكتاب يوازي كثرتهم على طول حكم الفاطميين (٣٥٨-٥٦٧هـ) ولم يشتهر منهم من وصل الى شهرة كتاب الدولة الأيوبية .

ولعل السر في ذلك يرجع الى أن الدولة الأيوبية قضت على انتاجهم باعتباره يمثل عقائد الفاطميين ويخلد مآثرهم و يعظم خلفاءهم . وقد دأبت الدولة الأيوبية على اماتة الدعوة الاسماعيلية وما يذكر بها . . ولو كان ما يذكر بها رسائل أدبية ، فنية .

ومن جهة أخرى ، فالأدب انما يزدهر و يصفو ويسمو ، وتتوفر فيه عناصر الخلود في أيام الحروب والمحن . . سواء عبّر ذلك الأدب من نشوة الانتصار والفوز أم من مرارة الهزيمة و ذل الانكسار . وقد كان القرن السادس الهجري عصر حروب طاحنة بين المسلمين والصليبيين خاصة منذ أن صار الأمر بيد الأيوبيين ، فقد كانت الحروب بينهما سجالا ، وقد قضوا أيامهم أثناء حكمهم بين فر و كر واحتلال وجلاء ،

ونصر وهزيمة .. وفي هذا الجو يزدهر الأدب وتستوى ثماره ، ويكون أجدر بالبقاء والخلود .. لأنه كان نتيجة معاناة حقيقية .. معبرا عن آمال الأمة وآلامها .. يحمل مآثرها ومفاخرها ويذكرها بماضيها المجيد وأيامها الخالدة على مر العصور .. وفي ذلك اثارة للعزة والمنعة وحفز على تمثل طريقة أولئك الأفذاذ ، والسير على خطى الأجداد الأبطال .

وقبل البدء بالترجمة لكتّاب هذه الفترة ،وبيان مدارسهم الفنية ،أحب أن أشير الى نقطتين هامتين :

الأولى : أنه من الصعب الحاق كل كاتب بمدرسة أدبية من المدارس التي عرفناها في القرون الأربعة الأولى للهجرة ،فتلك المدارس، كانت واضحة المعالم — الى حد ما — فقد اخترعها روادها بدءا كمدرسة الترسل الصناعي التي خطها ووضع معالمها عبد الحميد الكاتب ،أو مدرسة الترسل الطبيعي التي كانت موازية لمدرسة الترسل الصناعي ، أومدرسة الاستطراد والتحليل والتفريع التي ابتدعها الجاحظ ، أو مدرسة السجع والبديع التي انتهجها ابن العميد ،فكل واحدة من هذه المدارس — الى حد ما — محدودة المعالم ، وقد قامت على غير مثال سابق ،ولذلك كانت بيّنة الخصائص . فلم يكن العرب قبل عبد الحميد وأستاذه سالم يعرفون الاطناب والاطالة والازدواج ، فلما ظهرت هذه الخصائص ،أو قل لما غلبت على أسلوبهما ،عدت مدرسة جديدة في الأسلوب الكتابي . وهكذا بالنسبة لأسلوب الجاحظ وابن العميد ، وكأن كل مدرسة تمهد للتي تجيء بعدها .

أما أسلوب الكتابة في عصر الصناعة اللفظية .. فقد غلب عليه طابع الصنعة البديعية من مشرق الدولة الاسلامية الى مغربها ،وكان أمام الكاتب كل الأمثلة ،منها المرسل والصناعي ، واللفظي ، والجدلي .. ومنها الهزلي ، والجدى ، مع غلبة السجع والزينة على كل الأساليب ، والكاتب مطالب كما عرفنا ،بالاطلاع على تلك الأساليب ،ومنها أسلوب المقامات المصنع — فقد يجمع بينها ، وقد يقتدى بأجملها — في نظره — وقد يأتي هو بأسلوب يظنه متقدما عليها ولكنه مبني عليها كما فعل الحريرى ، وقد يأتي من يتمرد عليها كما حاول ابن الأثير الذى عاب مدرسة السجع والصنعة اللفظية ، ولكنه لم يستطع الفكاك من موجة المحسنات البديعية التي عمت ، وما استطاع أى كاتب في القرن السادس وما تلاه الخروج عنها سوى قلة ،أمثال : ابن منقذ ،وابن خلدون ،وابن الأثير في مؤلفاته .

النقطة الثانية : أن من كتاب هذه الفترة من حاول الخروج عن هذا النسق الذى استعبد الكتاب وطبع رسائلهم بطابع واحد وهو ابن الأثير ، فقد هاجم كتاب السجع وعاب الصناعة اللفظية المتكلفة ، واستطاع الفكاك منها في كتبه ، كالمثل السائر ، وكفاية الطالب ، والوشي المرقوم ،وغيرها كما سنرى . الا أنه استخدمها في رسائله .. فقد عاب أسلوب الحريرى حيث قال : " قد سلك قوم في منثور الكلام ومنظومه طرقا خارجة عن موضوع علم البيان ،وهي بنجوة عنه لأنها في واد وعلم البيان في واد ، فمن ذلك فعل الحريرى صاحب المقامات فان ذكر تلك الرسالة التي هي كلمة معجمة و كلمة مهملة ،والرسالة التي حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم .. وكل هذا وان تضمن مشقة في الصناعة ، فانه

خارج عن باب الفصاحة والبلاغة .. وانما يأتي و معانيه غثة باردة ، وسبب ذلك أنها تستكره استكراها ،وتوضع في غير مواضعها "(١) ،وسوف أوضح ذلك عندما أتعرض لترجمة ابن الأثير .

وقد ذكر القلقشندى — وهو أكثر من اعتنى بتاريخ الديوان في هذه الفترة — من كتاب ديوان الانشاء في عهد الفاطميين ممن يدخل ضمن دراستنا — الشيخ أبا الحسن على بن أبي أسامة الحلبي (ت٥٢٢هـ) كان كاتبا للآمر (٤٩٥—٥٢٤هـ) والحافظ (٥٢٤—٥٤٤هـ) . وولده أبو المكارم توفى أيام الحافظ ، وابن الصيرفي ،وابن قادوس ، وابن أبي الدم اليهودى و وابن الخلال ، والقاضي جلال الملك محمود بن الأنصارى .. شارك ابن الخلال في ديوان الانشاء أيام العاضد (٥٥٥—٥٦٧هـ) ولم يذكر القلقشندى من كتاب الدولة الأيوبية ، سوى القاضي الفاضل ، مع أن الفاضل يعتبر من مخضرمي الدولتين (٢) .

ومن أشهر من ترجم لهم المؤرخون من الكتاب :

ابن الصيرفي :

أمين الدين تاج الرئاسة أبو القاسم على بن منجب بن سليمان المصرى (٤٦٣—٥٤٢ هـ) ،ولي ديوان الانشاء بمصر في أيام الآمر سنة ٤٩٥ هـ ، واستمر الى سنة ٥٣٦ هـ .. عاش حوالي تسعين سنة .

---

(١) المثل السائر ٢/٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) انظر صبح الأعشى ١/٩٦ .

له كتاب الاشارة الى من نال الوزارة ،مطبوع ،وقانون ديوان الرسائل ، مطبوع .

و له من الكتب التي لم نعثر عليها : عمدة المحادثة ،وعقائل الفضائل والمظالم ، و لمح الملح ، وكتاب في الشكر ،واختيارات كثيرة لدواوين الشعراء ،كديوان ابن السراج ،وأبي العلاء المعرى (١) .

ومنهم :

ابن قادوس الدمياطي :

كافي الكفاة ،محمود بن اسماعيل بن حميد ،عمل مع ابن الصيرفي في ديوان الانشاء بمصر أيام الحافظ ،له ديوان شعر في مجلدين ، وقد أخذ عنه القاضي الفاضل وكان يلقبه بذى البلاغتين ،توفى بمصر سنة ٥٥١هـ (٢) .

ابن الخلال :

يوسف بن محمد بن الحسين أبو الحجاج ،موفق الدين ، كتب لأربعة من الخلفاء الفاطميين ،هم : الحافظ (٥٢٤—٥٤٤هـ) ، والظافر (٥٤٤—٥٤٩ هـ) ، والفائز (٥٤٩—٥٥٥هـ) ، والعاضد (٥٥٥—٥٦٧هـ) ، واذا عرفنا أن بداية حكم الحافظ بدأت سنة ٥٢٤هـ ،

---

(١) انظر الاعلام ٥/ ٢٤ و معجم الأدباء ١٥ / ٧٩—٨٠ ،ومقدمة الاشارة الى من نال الوزارة ص ١٠٧ ومابعدها .

(٢) من مراجعه صبح الأعشى ٨/ ٢٢٦—٢٢٨ ،الأعلام ٨/ ٢٤٧ ،وقد ذكر له صاحب كتاب الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ٩ مرجعا .

وأن العاضد توفي سنة ٥٧٦هـ ،عرفنا أنه تولى الديوان ما يقارب ثلاثين عاما ،ولعل في هذا ما يفسر لنا قلة الكتاب في النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، قال العماد عنه : "كان فن الترسل والانشاء قد آل اليه"(١) . ويعتبر آخر من ولي ديوان الانشاء في العهد الفاطمي ، اذا اعتبرنا الفاضل من كتاب الأيوبيين ، وقد تخرج عليه الفاضل .. وخلفه على ديوان الانشاء ، فكان الفاضل يوليه بالرعاية والعطف بعد أن ضعف وكف بصره وتوفى سنة ٥٦٦هـ(٢) .

القاضي الجليس :

عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبي التميمي الصقلي .
تولى ديوان الانشاء مع ابن الخلال زمن الفائز (٥٤٩–٥٥٥هـ) . قال عنه العماد : "كان أوحد عصره في عصره ، نظما ونثرا وترسلا وشعرا ، عرف بالجليس لمجالسته الخلفاء الفاطميين ، توفى سنة ٥٦١هـ(٣) .

---

(١) انظر ثمرات الأوراق ص ١٣٨ .
(٢) انظر الأعلام ٢٤٧/٨ ،ووفيات الاعيان ٢١٩/٧–٢٢٥ ، واتعاظ الحنفاء ٣٢٢/٣ . وذكر له صاحب كتاب الحياة الأدبية ١٤ مرجعا راجع ص ٣٥٤ .
(٣) الأعلام ١٦/٤ ،فوات الوفيات ٢٧٨/١ ،النجوم الزاهرة ٣٧١/٥ ، الروضتين ١٤١/١ ،خريدة القصر ، قسم شعراء مصر: ١٨٩/١ ،وحسن المحاضرة ٣٢٤/١ .

شاكر بن عبد الله :

كتب الانشاء المنور للدين [١] . .

ابن بـرى :

عبد الله بن برى المقدسي ، ولي رئاسة الديوان ، وكان موكلا اليه تصفح الرسائل وتصحيح ما فيها من أخطاء [٢] (ت ٥٨٢ هـ) .

ابن مماتي :

أسعد بن المهذب بن أبي المليح ، أصله من نصارى أسيوط ، أسلم هو وأسرته على يد صلاح الدين حينما أمر أسد الدين شيركوه بتغيير النصارى وصرفه عن ديوان الجيش . . عدّ له ياقوت في معجمه ٢٢ مؤلفا ولم يمدّ منها قوانين الدواوين . . ويقول عنها : "لم تكن مفيدة علمية ، انما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبي وأضرابه ، توفى سنة ٦٠٦ هـ وكان مولده سـنة ٥٤٤ هـ . . له من الكتب المطبوعة : قوانين الدواوين ، والفاشوش في أحكام قراقوش . وله (لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة) مخطوط بمكتبة ولي الدين باستانبول تحت رقم ٢٦٣٦ [٣] .

---

(١) انظر الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٣٤١ والروضتين ١/١٤٩ .
(٢) انظر الاعلام ٧٣/٤ ومعجم الأدباء ١٢/ ٥٦ .
(٣) انظر في ترجمة ابن مماتي : الأعلام ١/ ٣٠٢ ومعجم الأدباء ٦ / ١٠٠ وفي مقدمة كتاب قوانين الدواوين ترجمة وافية له ، ووفيات الأعيان ١ / ٢١٢ ، وخريدة القصر ، قسم شعراء مصر ١ / ١٠٠ .

هبة الله بن جعفر بن سناء الملك أبي عبد الله ، القاضي السعيد ، كتب بديوان الانشاء مدة ثم ولاه الكامل ديوان الجيش ، له من الكتب المطبوعة دار الطراز في عمل الموشحات ،وديوان شعر ، وله من الكتب المخطوطة فصوص الفصول في المكاتبات ، ومن كتبه المفقودة : مساعد الشوارد .

وقد عينه الفاضل في ديوان الانشاء وتوفي سنة ٦٠٨ هـ (١) .

ابن الجراح :

يحيى بن منصور ،أحد الأدباء والشعراء الفضلاء ،كتب مدة طويلة في ديوان الانشاء ،وله رسائل مدونة (٢) .

ابن النبيه :

على بن محمد بن الحسن بن يوسف أبو الحسن ، تولى ديوان الانشاء للملك الأشرف ،توفى سنة ٦١٩ هـ (٣) .

القفطـــي :

يوسف بن ابراهيم بن عبد الواحد الشيباني ،من مقدمي الكتاب والمنشئين .. ناب عن الفاضل في كتابة الانشاء بحضرة صلاح الدين ثم وزر للأشرف موسى ،توفى سنة ٦٢٤هـ (٤) .

---

(١) انظر في ترجمته الاعلام ٨/٧١ ووفيات الاعيان ٦/٦١–٦٦ ،وسلسلة أعلام العرب ،كتاب رقم ٩٦ ،ومقدمة كتاب الطراز ..

(٢) انظر في ترجمته في الأعلام ٨/١٧٣ ووفيات الأعيان ٢/٢٥٦.

(٣) انظر الأعلام ٤/٣٣١ وفوات الوفيات ٢/٧١.

(٤) انظر الأعلام ٨/٢١٢ ومعجم البلدان ٣/٥٥ .

ابن شـيث :

عبد الرحمن بن علي بن الحسن ، كان القاضي الفاضل يحتـاج اليه في علم الرسائل ، توفي سنة ٦٢٥ هـ (١) .

عمر بن مظفر بن سعيد رشيد الدين الفهري :

تنقل في خدمة الدواوين ومدح الملوك والـوزراء ، توفـي سـنة ٦٣٨هـ (٢) .

وليس كل هؤلاء الكتاب كان رئيسا لديوان الانشاء ، ولكنهـم جميعا اشتغلوا بـه . . وربما كان بعضهم مصححا ، كابن برى النحوى وأغلبهم لا نعرف عن حياته وانتاجـه الا النزر اليسير مما هو متفرق في كتب المؤرخـين ، وشيئا يسيرا من شعرهم ورسائلهم .

ولعل أكثر من ذكرنا حظا بعناية المؤرخين ، ابن الخـلال ، وابن الصيرفى ، وابن مماتي ، غير أن ما عثرنا عليه من رسائلهم لا يفـي باعطاء فكرة عن أدبهم .

أما الكتاب الذين نالوا كثيرا من عناية المؤرخـين ، وطبق ذكرهم الآفـاق ، وبقي من انتاجهم ما يصلح أن يكون موضـع دراسـة ، فهم : القاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني ، وضياء الدين بن الأثير .

---

(١) انظر وفيات الأعيان ٥٦٠/١ .
(٢) أنظر الأعلام ٤٧/٥ .

وهم كما سوف نرى من كتاب الدولة الأيوبية ، ولعل سبب شهرة هؤلاء وتقدمهم على أدباء عصرهم .. جودة انتاجهم ونبوغهم وبروزهم على من عاصرهم أو سبقهم من أدباء عصرهم ، بالاضافة الى اشتغالهم بالتأليف ، وبقاء مؤلفاتهم ، وعناية الناس بها ، لقيمتها و نفاستها وخاصة ابن الأثير والعماد . وسوف نبدأ بأكثرهم شهرة في عالم الكتابة الديوانية وأكثرهم وفرة رسائل بقيت لنا وهو :
" القاضي الفاضل ".

القاضي الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي بن محمد بن الحسن اللخمي ، ويقال لـه البيساني نسبة الى بيسان ، مدينة بالأردن وقد نشأ بها [١] . وكانت ولادته بمدينة عسقلان احدى مدن فلسطين سنة ٥٢٩ هـ [٢] . وكان والده القاضي الأشرف يلي القضاء بعسقلان .

حياته : نشأ الفاضل بعسقلان كما ذكرنا . . وبعد أن اشتد عوده ، وشعر والده بكفاءته ومقدرته على السفر ومصارعة الحياة . . أمره بالمسير الى مصر بعد أن تزود من الثقافات بما يتزود به أبناء عصره وبخاصة من يطمحون الى دخول ديوان الانشاء . . وقد اختار له والده السفر الى مصر لكونها من أكبر المواصم الثقافية في ذلك الوقت ، ولوجود العلماء وكبار الكتاب بها . . ويقول المؤرخون ان والي عسقلان كان يحمل على والد الفاضل اضغانا [١] فخاف على ولده من مضايقته ، وأمره أن يتوجه الى ديوان الانشاء ، اذ كان من العادة أن كلا من أرباب البيوت اذا نشأ له ولد أحضره الى ديوان الانشاء ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويسمع . . لأن الديوان لا يخلو من رئيس يرأس مكانا وبيانا ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا وكان فن الانشاء في زمن الدولة العلوية غضا [٣] .

وقد قدم الفاضل القاهرة زمن الحافظ (٥٢٦ — ٥٤٤هـ) في

---

(١) نهاية الأرب ٢٧/٢ .
(٢) مسالك الابصار ٢٧٩/٧ وروضات الجنات ٧٤/٥ .
(٣) انظر الوشي المرقوم ص ٩ والروضتين ١٩٢/١ وأنظر ثمرات الأوراق ص ١٣٧ .

سنة ٥٤٣ [١] ويقول ابن خلكان انه قدمها في زمن الظاهر [٢] (٥٤٤-٥٤٩ هـ) وكان على ديوان الانشاء آنذاك ابن الخلال .. فلما مثل بين يديه وعرفه رغبته قال له : " ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ ، فقلت : ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن وكتاب الحماسة . فقال : في ذلك بلاغ ،ثم أمرني بملازمته فلما ترددت اليه ،وتدربت بين يديه أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله الى آخره ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته " [٣].

ثم اتصل بالكاتب المصرى أبي الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس [٤]، وقد تتلمذ على هذين الأديبين المشهورين واستفاد منهما ثم ارتحل بعد فترة الى الاسكندرية حيث التقى بقاضيها وناظرها ابن حديد .. وكانت بينه وبين والد الفاضل معرفة فجعله كاتبا له [٥] . وبقي بها قرابة ثماني سنوات حتى أثارت رسائله — التي كانت ترد من الاسكندرية — انتباه العادل بن رزيك بن الصالح طلائع ، وكان اذ ذاك متولي الوزارة فجعله رئيسا لديوان الجيش [٦] .. ولعل هذا المنصب

---

(١) مسالك الأبصار ٧/٢٨٨.
(٢) وفيات الأعيان ٧/٢٢٠.
(٣) وفيات الأعيان ٧/٢٢٠ ،والروضتين ١/١٩٢ ،وثمرات الأوراق ص ١٣٧ ومابعدها ،ومن هذا الخبر نستنتج مدى اعتماد الكتاب على معاني الشعراء ونوعية الثقافة التي يبدأون بها مشوارهم.
(٤) الروضتين ١/١٠٣ .
(٥) اتعاظ الحنفاء ٣/٢١٩ ، ٢٥٤.
(٦) انظر ثمرات الأوراق ص ١٣٦ واتعاظ الحنفاء ٣/٢٥٤.

أول درجة في سلم المجد الذي تربع الفاضل على عرشه فيما بعد ،ولكن أيام العادل رزيك لم تطل اذ قتله شاور ولم يمكث في الوزارة سوى سنتين [(١)] (٥٥٦ـ٥٥٨هـ) .. فلم تمت آمال الفاضل بموت رزيك وزوال وزارة آل طلائع بل ما لبث أن وثّق صلته بآل شاور ـ الوزير الجديد ـ وخاصة بابنه شجاع . وشاور هو الذي سماه بالقاضي الفاضل وكان يدعى بالقاضي السعيد [(٢)] .

ثم ما لبث ضرغام أن اعتقل شاورا واعتقل معه الفاضل [(٢)] .. وفي الاعتقال قويت صلته بشاور الذي ما لبث أن استعاد وزارته بمعاونة نور الدين زنكي [(٣)] ،وفي وزارة شاور تولى الفاضل رئاسة ديوان الانشاء سنة ٥٦٤ هـ بعد موت ابن الخلال وكان ينوب عنه قبل وفاته ... ولعل هذا المركز أكبر أمنية تحققت للفاضل بعد أن أصبح كاتب الوزير، والوزير في ذلك الوقت كان هو الحاكم الفعلي للبلاد .

وهو الذي كتب سجل تنصيب أسد الدين وزيرا للعاضد بعد مقتل شاور ثم كتب سجل تنصيب صلاح الدين بعد موت أسد الدين [(٤)] ، اذ لم يمكث الأخير في الوزارة سوى شهرين [(٥)] .. ومن هذا التاريخ

---

(١) انظر التاريخ الاسلامي ٥/١٤٦ والوزارة والوزراء في مصر ص ٢٨٧ .
(٢) وفيات الأعيان ٢/٤٤٣ ـ ٤٤٨ واتعاظ الحنفاء ٣/٢٧٢ والروضتين ١/١٦٦ .
(٣) انظر تفصيل ذلك في الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ٢٨٨ ومابعدها .
(٤) انظر الروضتين ١/٤٠٢ وصبح الأعشى ٩/٤٠٦ واتعاظ الحنفاء ٣/٣٠٢ـ٣٠٩ .
(٥) انظر التعريف بالمصطلح الشريف ص ٨٦ .

بدأ الفاضل حياة جديدة في ظل وزارة صلاح الدين الذى ما لبث أن صار سلطانا على مصر بعد ثلاث سنين من وزارته ، وذلك بعد موت العاضد سنة ٥٦٧هـ (١) .

ثم استخلصه صلاح الدين لنفسه واستعان به على ازالة آثار الدولة الفاطمية . واستطاع الفاضل من جانبه أن يوثق صلته بصلاح الدين وينسيه ماضيه مع الفاطميين .. ولا ندرى أهو دهاء من الفاضل حيث ينتقل من وزير الى عدوه فتبقى له مكانته عند الآخر أم أنه قلة وفاء ، فقد انتقل من العمل مع العادل بن طلائع الى عدوه شاور ولم يتغير عليه شيء ، ثم لما ولي صلاح الدين استكتبه وزادت منزلته عنده حتى جعله وزيرا وهو يعلم أنه من صنائع الفاطميين ولعل القوم حرصوا عليه لبلاغته ورجاحة عقله ، اذ وجد فيه صلاح الدين الرجل المحنك ، وصاحب الخبرة والرأى والمشورة ، في شئون السياسة والحروب والادارة وسياسة الرعية .. كما وجد فيه الكاتب البليغ الذى يحسن تصريف الكلام فسجل الحوادث في رسائله ، ووصف المعارك وصفا بليغا لا يقل عن وصف المتنبي لحروب سيف الدولة الحمداني .. لولا غلبة الصنعة البديعية على أسلوبه . فأصبح لسان الدولة الأيوبية الى الخلفاء ، واحتل من صلاح الدين مع مرور الوقت مكانة عالية ، حتى لم يعد انسان في الدولة يعلوه ، وصار أعز على السلطان من أهله وولده (٢) .

---

(١) انظر الروضتين ١/١٩٣ .
(٢) البداية والنهاية ١٣/٢٤ .

ففوض اليه الوزارة اضافة الى ديوان الانشاء .. وتبرك به .. فقد قال له حينما أشار عليه أن يجعل العماد نائبا عنه في الانشاء — مالي عنك مندوحة ،أنت كاتبي ووزيري ،وقد رأيت على وجهك البركة (١) ..

فكان صلاح الدين لا يصدر أمرا الا عن مشورته ،ولا ينفذ شيئا الا عن رأيه ،ولا يحكم في قضية الا بتدبيره (٢) .

ولهذا قال فيه صاحب كتاب مسالك الأبصار : " كان الفاضل رحمه الله هو الدولة الصلاحية ،كان كاتبها ووزيرها ،وصاحبها ومشيرها والعامل لكلها ، والحاكم في كلها ، والمجهز لبعوثها والمبرّز عند اقماء ليوثها والدائرة به مناطق معانيها والسائرة به شموس أيامها وبدور لياليها فلهذا أذعنت لقلمه الرماح ، وطلبت صلح كلمه الصفاح " (٣) .

وقد بلغ من اعتراف صلاح الدين بفضله واعجابه بأدبه أن قال :
" ما فتحت البلاد بالعساكر وانما فتحتها بكلام الفاضل " (٤) .

وقابل ذلك الفاضل بالاخلاص ، ومحض النصيحة ،وجعل همه خدمة هذه الدولة الفتية ،يسدد برأيه سلطانها ،ويشجع ببلاغته المؤثرة

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/ ٧٤.
(٢) مسالك الأبصار ٧/ ٢٨٧ و خطط المقريزى ٤/ ١٩٨.
(٣) انظر مسالك الأبصار ٧/ ٢٨٧ وأنظر مرآة الزمان ٨/ ٤٧٢.
(٤) شذرات الذهب ٤/ ٣٢٧.

جنودها ، ويحسن الكتابة الى الخلفاء والأمراء ، وصار صلاح الدين يصطحبه في غزواته .. أو يجعله ردءاً مع من ينيبه من أخوته وبنيه في مصر ، يشاركه في الحكم وتدبير مصالح الدولة ويقوم بامداد الجيوش ، ويطلع صلاح الدين على ما يجدّ من جديد (١) .. ومع حاجة السلطان لخدماته وحسن ادارته حين يخلفه مع من ينيبه على مصر فقد كان لا يطيق فراقه حتى كان يصطحبه في ميادين القتال .. يستأنس برأيه ، ويعتمد على مشورته (٢) .. فقد كان بمثابة رئيس الوزراء بل هو الوزارة مجتمعة . وقد قام بمسئوليته أحسن قيام . واستفاد صلاح الدين من خدماته الجلّى .. كما استفاد من بيانه وبلاغته التي أثرت في الجند والأمراء ، وحتى في الأعداء .. فقد كانت الرسائل كما مر معنا — وسيلة الاعلام الأولى ، بجانب الشعر الذى احتل المكان الثاني في هذا العصر .. ولم يشب اخلاصه دخل أو مصلحة خاصة .. كما أنه لم يجد حاكما يستحق التفاني والاخلاص والتضحية خيرا من صلاح الدين .. ذلك البطل الذى نذر نفسه للدفاع عن بلاد المسلمين .

وقد كافأه صلاح الدين بالتكريم والتعظيم ، فلم تكن تعلو منزلته سوى منزلة السلطان نفسه .. كما أغدق عليه من الأموال ما جعل العزيز

---

(١) يقول العماد : " وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه ، دائم الاعتماد والاستناد على احسانه والى أركانه ، فانه استقدمه خاف على ما وراءه من المهام ، وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والأحكام وكان يكاتبه بشرح الأحوال يستشيره ، والنجابون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات والاستشارة في المهمات . انظر الروضتين ٢ / ١٨٢ .

(٢) انظر مسالك الأبصار ٢٨٧/٧ والروضتين ٢ / ١٨٢ .

ابن صلاح الدين يطلب الاقتراض منه (١) وذلك سنة ٥٩١ هـ ، وقد كانت أيام صلاح الدين كلها جهادا وصراعا ضد أمم قوية استطاعت الاحتفاظ بأجزاء كبيرة من العالم الاسلامي في الشام مدة تقارب قرنا من الزمان فاستطاع صلاح الدين بايمان رجاله واخلاصهم — وعلى رأسهم الفاضل — أن يدحروا العدو و يستنقذوا منه بيت المقدس .

فلم تكن مسئولية الفاضل في هذه الظروف الصعبة يسيرة ، بل كلفته الجد والتعب ،و ترك الراحة والدعة جانبا . . وكان صلاح الدين المثل الأعلى له . . في جهاده وسيرته واستقامته وتقواه . . وكذلك كان الفاضل فقد عرف بالجد في الأمور وكان ورعا تقيا صالحا . . فقد قام من مجلس صلاح الدين حينما أخرج خيال الظل ليفرج الفاضل عليه ، وقال له : ان كان حراما فما نحضره (٢) .

أما صلاح الدين ،فقد أعاد بسيرته العطرة واستقامته (٣) ،والدفاع عن حرمة الاسلام ،وتفانيه في خدمة أمته ،وتضحيته في سبيل ذلك بكل ما يملك من نفس ومال وولد . . أعاد لنا سيرة الخلفاء الراشدين ،

---

(١) انظر السلوك ١٢٨/١ ومفرج الكروب ٨٤/٣ ،ويقول المقريزى : "كان دخله كل سنة خمسين ألف دينار سوى متاجره للهند والمغرب وغيرها " خطط المقريزى ١٩٨/٤ .

(٢) انظر ثمرات الأوراق ص ٥٣ وأنظر قصته مع العماد في ثمرات الأوراق ص ١٢ .

(٣) مما يدل على ورعه أنه رأى العماد يكتب من دواة محلاة بالفضة فأنكرها وقال هذا حرام . فلم يعد يكتب منها عنده . انظر السلوك ١١٣/١ .

وقد حقق للمسلمين انتصارات عظيمة كانت تشبه المعجزات في زمانه ، كما أعاد للجهاد مكانته في نفوس المسلمين الذين جاهدوا معه بأنفسهم وأموالهم ،ووجدوا فيه القائد المسلم الحق .

فمن لا يضحى من أجل هذا البطل الذى أعاد للمسلمين كرامتهم ، ورفع رؤوسهم بعد ذل الهزائم التي منوا بها .. من هجمات الصليبيين ؟ و لذلك ظل الفاضل يناضل بقلمه و يسدد برأيه و يحث الهمم ببيانه وبلاغته رغم ضعف صحته واستيلاء الأمراض عليه .. يقول عبد اللطيف البغدادى حينما دخل على القاضي الفاضل وهو يكتب .. يصف معاناته :

" رأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو يكتب و يملي على اثنين ووجهه و شفتاه تلعب ألوان الحركات ، لقوة حرصه في اخراج الكلام و كأنه يكتب بجملة أعضائه " (١) .

وقد خدم الأدب والعلم والثقافة عامة ليس بما أثر عنه من رسائل وشعر فقط بل بتشجيعه واكرامه للأدباء و حثهم على التأليف ، فهذا عمارة اليمنى يؤلف كتابه " تاريخ اليمن" بناء على طلب من الفاضل (٢) . واستحث ابن سناء الملك على اختصار كتاب الحيوان للجاحظ (٣) .

---

(١) انظر عيون الأنباء ٢/ ٢٠٥ و خطط المقريزى ٤/ ١٩٨ .
(٢) عمارة اليمنى ص ١٨٦ نقلا عن تاريخ اليمن .
(٣) فصوص الفصول ص ٤٠ وانظر حسنه لابن المأمون ليعمل تاريخا للأيوبيين ص ٣٧ ومابعدها من نفس المرجع .

كما نراه يستحث العماد على اكمال كتابه البرق الشامي (١) وعرب بأمره كتاب كيمياء السعادة (٢) . اضافة الى اكرامه ورعايته للأدباء ، كاكرامه للأسعد بن مماتي الذي ألف له عدة تصانيف باسمه (٣) .

وحينما استشاره عليّ بن ظافر في موضوع كتابة "بدائع البداءة" حثه على انجازه وحسن له موضوعه (٤) . ولما عرض عليه ابن مماتي كتابه "الشيء بالشيء يذكر" أشار عليه بتسميته "سلاسل الذهب" (٥) .

كما كان يشير على صلاح الدين أن يجزل العطاء للأدباء ، فقد مدحه المهذب بن أسعد بقصيدة فلما فرغ ، قال الفاضل : هذا الذي يقول : "والشعر ما زال عند الترك متروكا" .. فعجّل جائزته لتكذيب قوله ، وتصديق ظنه ، فشرفه ، وجمع له بين الخلعة والضيعة (٦) .

وهكذا نجد أن الفاضل لم تلهه مسئولياته مع عظمها عن الاهتمام بشئون العلم والأدب ولم تشغله أمور الحرب ، وتدبير شئون الدولة عن اكرام الأدباء وتشجيعهم ، فقد كان سببا في اشتهار العماد الكاتب ، وابن الأثير ، وعمارة اليمني ، بالتوسط لهم عند صلاح الدين ، وبتهيئة العيش الرغيد لهم ، ليتفرغوا للتأليف وخدمة العلم . وفي ذلك يقول

---

(١) الروضتين ٢/٢٠ .
(٢) نفس المصدر ٢/٢٣٤ .
(٣) معجم الأدباء ٦/١١٣ .
(٤) بدائع البداية ص ٤ .
(٥) معجم الأدباء ٦/١١٧ .
(٦) الروضتين ١/٢٤٠ .

العماد : " وكنت من حسناته محسوبا والى مناسب آلائه منسوبا"(١) .

وبنى مدرسة وقفها على طائفتي الفقهاء من الشافعية والمالكية ووقف عليها أوقافا كثيرة (٢) .

وهكذا ظل يناضل بقلمه كما كان يشجع بتوجيهه وجاهه وماله الأدباء والعلماء . وظل بجانب صلاح الدين على هذه الحال حتى توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (٣) .

وتعتبر وفاة صلاح الدين نهاية لأهم مرحلة من مراحل حياة الفاضل اذ لم يعش بعده الا أقل من سبع سنوات وقد أنهكته الأمراض وكبر سنه وتفرق الملك بعد صلاح الدين بين أبنائه وأخيه ، وتنازعوا أمرهم بينهم .. فلم يمكث بدمشق الا يسيرا ، اذ لم تطب له الاقامة بها وخاصة بعد أن استوزر الأفضل ضياء الدين بن الأثير .. وبدأت المنازعات بينه وبين العزيز فانتقل الفاضل الى القاهرة وبقي بها الى أن مات سنة ٥٩٦ هـ (٤) .

---

(١) انظر الروضتين ٢ / ٢٤١ .

(٢) خطط المقريزى ٤ / ١٩٧ وانظر تفصيلا وافيا عنها / في فصل (المدارس) من كتاب الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ٣٠ والكامل ١٢ / ١٥٩ . يقول ابن الأثير : "كان دينا كثير الصدق والعبادة وله وقوف كثيرة على فك الأسارى " الكامل ١٢ / ١٥٩ .

(٣) انظر النوادر السلطانية ص ٢٤٦ .

(٤) وفيات الأعيان ٣ / ١٦٢ والروضتين ٢ / ٢٤١ ، والسلوك ١ / ١٥٣ .

ولم يكن للفاضل دور مهم في هذه الفترة ، فقد اعتزل السياسة وأخلد الى الهدوء .. يقول صاحب كتاب السلوك : " وكان الفاضل قد تنزه عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها ،واعتزل لما رأى من اختلال الأحوال (١) . وقال ابن المجاج صاحب ديوان الجيش : ان القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحدا من أولاده ،وكانت الدولة تأتي الى خدمته الى أن توفى (٢) .

ولا أدرى كيف ذهب أحمد الزيات الى أنه وزر للعزيز ثم للأفضل (٣) ! وعلى أى حال فقد بقيت له حرمته ومنزلته لدى أولاد صلاح الدين ، وبخاصة العزيز الذى كانت تربطه به صلة وثيقة . ولأجل هذا حاول أن يصلح بينه وبين أخيه الأفضل (٤) .. ويظهر أن الرجل في هذه الفترة قد أنهكه المرض وقعد به الكبر والضعف عن المشاركة في المسئوليات .. وقد استنفد طاقته وجهده في خدمة صلاح الدين — رفيق دربه — اذ كان ملتزما نحوه أدبيا .. فلما توفى صلاح الدين شعر أنه آن أوان استراحة الفارس المجاهد .

لقد كتب كتابا للعماد يشكو ما يعانيه من أمراض يقول فيه :

---

(١) السلوك ١/١/١٢٧ .
(٢) الروضتين ٢/٢٤٤ .
(٣) تاريخ الأدب العربي ص ٢٤٧ لعله اعتمد على ما ورد بكتاب روضات الجنات ٥/ ٧٥ وهو ما لم توردها المراجع القديمة .
(٤) انظر السلوك ١/١/١٢٨ والكامل ١٢/ ٢٤ ومفرج الكروب ٣/ ٩٠ .

" وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة الا أنها بلا سكون في الزاوية المسنونة لا ُهل العافية الا أني على مثل حد المنون ، و كيف يعيش العاقل في الزمان المجنون" (١) . ويقول : " كتبت ورجلاى قد عاد النقرس الى تقييدهما وتسويدهما و جنبي طريح وما في صحيح الا سقمي فانه صحيح " (٢) .

ويقول له من رسالة أخرى : " ولا يسأل سيدنا عن خاطر تزاحمت فيه الا ُفكار ،وقلب قد عدم الصفاء في دار الا ُكدار ، وجسم قارب أن يخلع العمار من الا ُعمار ، وقد دب الفناء فيّ عضوا عضوا وأخذني الزمان جزءا جزءا ، وكل يوم يذهب مني شي بعد شي ويكثر شبهي بالميت و يبعد من الحي " (٢) .

وقد كان ضعيف البنية ضئيل الجسم ، دميم الخلقة له حدبة ظاهرة خلف ظهره يسترها بالطيلسان حتى لا تظهر للناس (٣) . توفى سنة ٥٩٦ هـ يوم دخل العادل شقيق صلاح الدين مصر ،وأخذها من الا ُفضل ابن أخيه .

يقال : " ان الفاضل لما علم بقدوم العادل الديار المصرية بصحبة وزيره ابن شكر وكانت بينه وبين الفاضل جفوة ، دعا على نفسه

---

(١) انظر الروضتين ٢ / ٢٣٤ .
(٢) انظر المختار من انشاء الفاضل ورقة ٣٣/٢٧ ومسالك الابصار ٢٨٧/٧ .
(٣) عيون الانباء ٢ / ٢٠٥ .

بالموت خشية أن يؤذيه ، فاستجاب الله دعاءه ، فتوفي يوم دخول العادل القاهرة ، اذ دخل العادل من باب وخرج الناس بجنازة الفاضل من باب آخر (١) .. وكان غير راض عن سيرة أولاد صلاح الدين وما شجر بينهم من منازعات . وكان يتألم لذلك ، اسمعه يقول : " أما هذا البيت فان الآباء منه اتفقوا فملكوا وأن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا و واذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه وإذا بدا تخريق ثوب فما يليه الا تمزيقه " (٢) .

ولسنا بحاجة الى الاشارة بثقافة الفاضل فمثله — وقد حملته همته العالية الى التطلع الى مراتب المجد والسؤدد ، واستطاع أن يبلغ ما بلغ لدى الخلفاء والسلاطين — لا بد أنه أخذ نفسه بشتى الثقافات المعروفة في زمانه ، الا أن بعض المؤرخين اتهمه بقلة الحظ في النحو ولكن قوة الدربة أوجبت له عدم اللحن (٣) . وقد عجز أن يعارض مقامات الحريري ، فبعد أن عمل ثلاث عشرة مقامة ووصل الى قول الحريري في المقامة الثالثة عشرة " اعلموا يا مآل الآمل و ثمال الأرامل أنني من سراة القبائل ... وقال من أين يأتي الانسان بفصل يعارض هذا ثم أنه قطّع ما عمله منها ولم يظهرها (٤) .. وبالمقابل روى عن

---

(١) الروضتين ٢/٢٤٤ .
(٢) نفس المرجع ٢/٢٣١ .
(٣) شذرات الذهب ٤/٣٢٤ و خطط المقريزى ٤/١٩٨ .
(٤) نصرة الثائر على المثل السائر ص ٦٠ .. وانظر المقامة الثالثة عشرة في كتاب المقامات .

الحريرى أنه لما استكتب في الديوان أفحم (١) . والأمر في ذلك لا يدعو الى الغرابة فالرسائل فن ، والمقامات فن آخر ،وقد تدرب كل منهما وتقدم في الفن الذى أجاده وأبدع فيه ،فاذا انتقل الى الفن الثاني وجد فيه صعوبة .

مذهبه الأدبي :

وجد الفاضل في زمن طغت فيه الصنعة اللفظية على الأساليب الأدبية ،وأصبحت العناية بالألفاظ والافتنان في استعمال الأنواع البديعية مقياسا للجودة ،وعلامة على مدى تفوق الكاتب وبراعته ، ويكفى أن نعرف أن مقامات الحريرى وخطب ابن نباتة كانتا مكازى كتاب الانشاء في ذلك الزمن كما يقول ابن الأثير (٢) .

ونحن نعرف أن مقامات الحريرى مبنية على التلاعب بالألفاظ واستعمال الغريب والسجع وأنواع المحسنات البديعية ،وأن خطب ابن نباتة كلها سجع .

فكأن ذوق العصر العام ، والاتجاه الأدبي فيه يميل الى ارضاء حاسة السمع ، باستعمال السجع ، والجناس والتورية ،وضروب الحلي اللفظية الأخرى .

وبعبارة أخرى .. كان الكتاب يهتمون بالألفاظ أكثر من اهتمامهم بالمعاني والأفكار .

---

(١) نصرة الثائر على المثل السائر ص ٥٦ وأنظر القصة في شذرات الذهب ٤/ ٥١ .

(٢) انظر الوشي المرقوم ص ٦ .

ومما يدل على زيادة اهتمامهم بالمحسنات البديعية والافتتان بها أن اشتغل بها المؤلفون ،واخترعوا منها أنواعا كثيرة و تفننوا في تفريعها .

فرغم أن ابن المعتز ،وهو أول من ألف في هذا الفن (١) لم يذكر منها سوى خمسة أبواب وأنه خلط بين البديع والبيان والمعاني ، فقد أوصلها أبو هلال العسكري ٣٧ نوعا ثم بلغ بها التيفاشي ٧٠ نوعا ثم أوصلها ابن أبي الاصبع الى ١٢٥ ، وقال انه اطلع على ٤٠ كتابا في هذا العلم وقال الحلي : طالعت مما لم يقف عليه ابن أبي الاصبع ثلاثين كتابا . وأوصلها الى ١٥١ نوعا (١) .

كما نلمس اهتمامهم بتلك المحسنات في أقوال نقاد عصرهم .. يقول الكلاعي من الأسلوب المصنوع : " نمق بالتصنيع ،ووشح بأنواع البديع ، وحلي بكثرة الفواصل والأسجاع ،واستجلب له منها ما يلذ في القلوب و يحسن في الأسماع (٢) " .

---

(١) انظر كشف الظنون ٢٣٣/١ ، وقد ألف أسامة بن منقذ كتابه "بديع البديع" وأحصى منها ٩٥ .. واختصر اسماعيل بن أحمد في كتابه "كنز البراعة" ما أحصاه ابن أبي الاصبع فجعلها ٧٠ نوعا .. ومن الكتب التي عالجت هذا الموضوع زهر الربيع في التشابيه والبديع — و زهر الربيع في شواهد البديع — وزهر الربيع في البديع .. راجع كشف الظنون ٩٥٩/٢—٩٦٠.

(٢) احكام صنعة الكلام ص ١١٥.

ويقول أبو هلال العسكرى ،مع تقدم زمنه ت ٣٩٥ هـ بعد ايراده بعض الأمثلة على السجع : " فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع " (١) ، ويقول ابن حجة في امتداح أسلوب ابن نباتة : " فانه وان تأخر في السبق عن فحول المتقدمين عصرا فقد تقدم عليهم ببديعه ، وغريبه بيانا وسحرا " (٢) .

واذا كان هذا رأى النقاد في السجع والمحسنات البديعية عموما .. واذا بلغ اعجابهم بالمقامات الى حد الانكباب على دراستها ، ومحاولة معارضتها ، وشرحها .. فلا غرو أن نجد كتاب هذا العصر — وعلى رأسهم الفاضل — قد ساروا في هذا الاتجاه الذى يرضى أذواق عصرهم .

وليس ابن نباتة والحريرى وحدهما اللذين أغرقا في هذا الاتجاه ،فقد سبقهما أبو العلاء المعرى الذى أغرم بالسجع خاصة ، وألف كتبا كثيرة سماها بهذا الاسم كالسجع السلطاني في مخاطبات الجنود والوزراء (٣) ، وسجع الحمائم ، وسجع الفقيه ، وسجع المضطرين .

---

(١) الصناعتين ص ٢٦٦ .
(٢) خزانة الأدب ص ٣٥٥ .
(٣) انظر كشف الظنون ٢/ ٩٧٩ .

مدرسة الفاضل الفنيـــة :

وقد أوغل الفاضل في هذا الاتجاه وألح عليه بشدة ،وتوفر علـى الصناعة اللفظيـة . . حتى عده كثير من المؤرخين صاحب مدرســـة فنيـة واعتقدوا أنه استن في الكتابة طريقـة عرفت باسـمه.

يقول محمود مصطفى : " أما الطريقـة التي اختطها لنفســه وعرفت به وسرت روحها في أزمان متعاقـبة بعد صاحبها فهي طريقـــة أول ما يقال فيها أنها عويصة ، لا تطاوع كل محاول ، ولا تسلس لكــل سائس" (١) .

وقال أحمد الزيات : " استحدث طريقـة جديدة بناها علـى أصول طريقة ابن العميد وما زها بالاغراق في التوريـة والجناس" (٢) .

وقال رزق محمود سليم : " وقد استن في الكتابة سنة جديدة عرفت باسمه واتبعها الكتاب من بعده" (٣) .

ويقول زغلول سلام : " مدرسة القاضي الفاضل التي أثرت بذوقها وحسن نظراتها ورقـة احساسها في علماء المصريين كانت سببا فـــي رقـة تذوقهم الأدب" (٤) .

---

(١) الأدب العربي في مصر من الفتح الى نهاية العصر الأيوبي ص٢١٢ .
(٢) تاريخ الأدب العربي ص ٣٤٨ .
(٣) انظر الادب العربي في عهد الفاطميين الى اليوم ص ٣٠ ، ٣١ .
(٤) تاريخ النقد ٢ / ٣٦٥ وأنظر أدب الحروب الصليبية ص ١٧٩ وأدب الدول المتتابعة ص ٧٤٤ .

ولعلهم مدفوعين بـآراء المؤرخين قبلهم فقد قال ابن حجة عن أسلوب ابن نباتة : " وتفقه في الطريقة الفاضلية لمذاهب ماسلكها المتقدمون "(١) . كما قال عن ابن سناء الملك : " سلك طريق الفاضل "(١) وقد بالغ العماد في امتداح الفاضل حيث قال : " رب القلم واللسان ... فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت بها الشرائع "(٢) .

ولعل الذى دعا ابن حجة أن يجعل للفاضل طريقة في الكتابة وتبعه المؤرخون على رأيه أن الفاضل كان أكبر شخصية ظهرت في الأدب في القرن السادس ، بالاضافة الى جودة كتابته وحسنها وكثرة المروى والمحفوظ منها ، حتى قيل : لو جمعت رسائله لبلغت ماءة مجلد(٣) .

وقد كان القوم معجبين ببلاغته وأسلوبه لأنه جرى على ما يرضي الذوق العام في زمنه .. وكانوا يمثلونه بين الكتاب بالمتنبي بين الشعراء(٤) .

ولعل المؤرخين المعاصرين فهموا من تلك الأوصاف التي أطلقها المؤرخون القدامى على أسلوبه .. ان الفاضل ابتدع مدرسة جديدة لم يسبق اليها ، كالمدارس الأسلوبية التي يعنيها الباحثون في زماننا هذا وليس الأمر كذلك . فلم يقصد المؤرخون القدامى بالطريقة

---

(١) خزانة الأدب ص ٩٣ .
(٢) الروضتين ٢ / ٢٤٢ .
(٣) وفيات الأعيان ٣ / ١٥٨ — ١٥٩ .
(٤) نصرة الثائر ص ١٧٠ .

الفاضلية ما يعنيه الباحثون اليوم .. انما كانوا يعنون بها بلا غثته وجودة أسلوبه ..

وقد اختلف الباحثون ازاء أسلوب الفاضل ،فمنهم من يرى أن له طريقة خاصة ومدرسة لها خصائصها ،وقد مر بنا بعض أقوالهم ،ومنهم من يرى أنه انما سار على طريقة الكتاب قبله ، ومن أولئك محمد كامل حسين ، اذ يقول : " ومن الزملاء من يتوهم أن للقاضي الفاضل مذهبا خاصا عرف به في الكتابة وأن له مدرسة تتميز بخصائصها عن مدرسة الكتاب الفاطميين وأخشى أن أذهب الى أن هؤلاء الزملاء لم يدرسوا تطور الكتابة ، في مصر دراسة كافية ، فقصورهم في معرفة أسلوب كتاب مصر منذ أيام ابن عبد كان جعلهم ينسبون طريقة ابن عبد كان الى القاضي الفاضل "(١) . وتبعه في ذلك أحمد بدوي في كتابه " الحياة الأدبية "(٢) ، وشوقي ضيف في " الفن ومذاهبه "(٢) .

ومن يرون أن الفاضل لم يكن له طريقة جديدة يختلفون مرة أخرى حول الأصول الفنية التي سار عليها . فرأى بعضهم أنها مستمدة من مدرسة ابن العميد وانما امتاز أسلوب الفاضل بالتوفر على البديع(٣) .

---

(١) في أدب مصر الفاطمية ص ٣٢٢ .
(٢) ص ٣٢٤ ، والفن ومذاهبه ص ٣٧٤ .
(٣) تطور الأساليب النثرية ص ٢٩٢ .

وأرجعها آخرون الى مدرسة ابن عبد كان اذ رأوا أنه صاحب طريقة في الكتابة . . كما أرجعها آخرون الى طريقة الحصكفي (١) . ولو أخذنا برأى كل واحد من هؤلاء لوجدنا أن هناك عشرات المدارس بل قل ان لكل كاتب مشهور مدرسة ، فهناك مدرسة عبد الحميد الكاتب ، و مدرسة ابن المقفع ، ومدرسة الجاحظ ، و مدرسة ابن العميد ، ومدرسة أبي العلاء المعرى ، و مدرسة الخوارزمي (٢) وابن عبد كان ، والحصكفي (٣) ،وابن الاثير ، والعماد ،وابن عبد الظاهر . . و هلم جرا .

وأمام هذه الآراء المتضاربة حول مدرسة الفاضل ، أو حول المدرسة التي ينتمي اليها يحتار القارئ . . ويتساءل : أصحيح أن للفاضل مدرسة لها خصائصها كما كان للمشاهير من الكتاب في العصور الأولى أم لا ؟ . . واذا لم تكن له مدرسة فنية فالى أى مدرسة يمكن ارجاع

---

(١) أدب الدول المتتابعة ص ٨٣٦ ،" وكان أسلوبه ينحو نحو أسلوب المقامات و تصعيب أبي العلاء المعرى.. اذ وجدت في رسائله رسالة سينية في كل كلمة حرف سين ،كمثال على التمحل والتلاعب بالألفاظ ، انظر ص ١٠٩ــ١١٠ من مخطوطة رسائله.

(٢) يرى شوقي ضيف أن للخوارزمي مدرسة في الأسلوب ، انظر الفن ومذاهبه ص ٢٣٦.

(٣) له ديوان رسائل بعنوان " رسائل الحصكفي " نسخ يحيى بن سلامه ابن الحسين بن محمد سنة ٥٥٣ هـ.. مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٦/ أدب في ٢٥٠ صفحة . وكلها رسائل اخوانية وفي آخرها مقامات و بعض القطع الشعرية .

أصول أسلوبه .. هل سار على طريقة ابن العميد ومعاصريه كالخوارزمي والصاحب بن عباد وبديع الزمان والصابي ؟ أم أنه تأثر بأسلوب ابن عبد كان .. عميد الكتاب المشهورين بمصر أم أنه مقلد لمعاصره الحصكفي ؟ ، والحصكفي متأثر بطريقة أبي العلاء[1] أم تراه ينزع بعيدا ليقلد الجاحظ ، فقد اعترف أنه يتكئ على كتبه وأولع بذكره في ترسله[2] ؟

ولكي نخرج من هذه الدوائر التي لا يعرف طرفاها ، نقول :

" ان مسألة تصنيف الكتّاب وجعل كل واحد يتبع مدرسة فنية في الأسلوب مسألة من أساسها عائمة ونسبية .. فحتى مدرسة عبد الحميد الكاتب أول من بدئت به الكتابة — كما يذكر المؤرخون — لم يسلم كل النقاد بأنه مبتدعها وواضع أصولها . اذ يقول شوقي ضيف :

" ونحن لا نقول كما قال السابقون ان الرسائل بدئت بعبد الحميد ، فقد بدأت منذ فاتحة العصر الاسلامي ، وقام عليها بلغاء كثيرون أتاحوا لها النماء وضروبا من الازدهار ، ومن ثم كنا نرفض أوليته في الرسائل ديوانية وغير ديوانية ، ولكنا بعد ذلك نثبت له أنه كان القصة

---

(١) وربما أرجعوها لطريقة ابن الشحنا ، فقد ذكر ياقوت في معجم الأدباء أن الفاضل استمد من رسائله ، وعليها اعتمد ٩/١٥٢ ، ويروى آخرون انه انما اعتمد على كلام أبي الخصال .
انظر نصرة الثائر ص ٩٢ وقيل بل اعتمد على كلام البديع ، نفس المرجع ص ٩٢ .

(٢) انظر معجم الأدباء ٩/١٥٢ .

التي وصلت إليها نهضة الكتابة في العصر الأموي (١) .

فطبيعي أن الكاتب مهما بلغ من الافتنان في أسلوبه ، ومهما ابتدع من طرق تميز أسلوبه ، وتجعل له مذاقا خاصا ، لا يتصور أنه انطلق من فراغ ، فلا بد أن اللاحق تأثر بالسابق وهذه قضية مسلم بها . غير أن لكل أديب أسلوبا مميزا من أساليب غيره من الأدباء حتى المعاصرين له . ومن ثمّ قال بيفون : " الأسلوب هو الرجل (٢) .. يتوقف هذا على أنواع الثقافات التي حصلها الكاتب واللغات التي يجيدها والهيئة التي يعيش فيها والكتب التي قرأها ، ومذهبه في الحياة وعقله وشعوره وخلقه وشخصيته الخاصة وموهبته (٣) .

كما يختلف أسلوب الشخص الواحد حسب حالته النفسية وانفعاله وتنبهه العاطفي (٤) .

ليس هذا فحسب ، بل نجد أن لكل عصر مميزات شائعة بين أدبائه منها تتكون مميزاته الأدبية أو شخصيته الأسلوبية التي يخالف بها سائر العصور .. كما نجد ذلك بين الشعوب المشتركة في لغة

---

(١) الفن ومذاهبه ص ١٢٠ .
(٢) الأسلوب ص ١٢١ .
(٣) انظر مناقشة الباقلاني للقضية في اعجاز القرآن ص ١٨٤ وما بعدها .
(٤) انظر الأسلوب ص ١٢١ وما بعدها .

واحدة وأدب واحد (١) .

فالأساليب اذا تتعدد بتعدد الكتاب والمنشئين " والذاتية هي أساس الأسلوب " (٢) .

ومن هنا يمكن أن نقول : ان المشهورين من الكتاب بطرق أسلوبية لم يأتوا بأسلوب جديد منقطع عما قبله ، ولكنهم جددوا فيه باستعمال بعض الفنون البلاغية أو بالاطالة والاستطراد أو بالتزام السجع والاغراب في الألفاظ .

ثم توسعوا في ذلك وتوفروا عليه واحتفلوا به وأكثروا منه حتى عرفوا به ، وجاز أن تنسب اليهم أساليب بعينها . وقد يكون هذا واضحا في العصور الأولى حتى القرن الرابع حيث كانت الأساليب تتراوح بين الترسل الطبيعي والمزدوج والمصنع وحيث تشعبت الأساليب وكثرت الفنون وتعددت الأنواع الأدبية وصار لكل لون من تلك الأنواع النثرية أسلوبه وطريقته ، فللرسائل أسلوبها ، وللمقامات خصائصها ، وكذلك الخطب والتأليف .

أما ما بعد هذا القرن ، أى في القرن الخامس وما تلاه ، فقد تعددت الأنواع الأدبية وطغى الأسلوب المصنع على الكتابة مع تأثر

---

(١) انظر الأسلوب ص ١٢٣ .
(٢) نفس المرجع ص ١٢٤ .

الكتاب بكل هذه الأنواع والأساليب التي سبقتهم .. فقد تأثروا بالمقامات كما تأثروا بخطب الوعاظ وبكتابة المؤلفين ، ككتابة أبي العلاء المعري بالاضافة الى تأثرهم برسائل من سبقهم من الكتاب على اختلاف مناهجهم. ومن هنا يصعب علينا ارجاع انتاج كل كاتب الى مدرسة معينة .. فلو قلنا : ان الفاضل سار في اسلوبه على طريقة ابن العميد .. فلا يمكننا أن ننفي تأثره بعبد الحميد الكاتب ، أو الجاحظ ، أو بالمعري أو بابن عبد كان أو بابن الخلال ، فكلهم أدباء مشهورون ولا يمكن أن يغفل الفاضل قراءة رسائلهم ، أو أنه لا يتأثر بما يقرأ .. فكيف يجوز لنا أن نقصر تأثره بأديب واحد منهم فقط ؟ ويمكن أن يقال ذلك عن كل الأدباء ... ومن أجل هذا تخبط المؤرخون في ارجاع أصول أسلوب الفاضل الى عدة أدباء كما رأينا .

وماذا نقول عن بعض الكتاب الذين يلتزمون السجع والتصنع مرة ، ويخرجون عنه مرة أخرى ، كابن الأثير — كما سنرى — هل نقول انهم يرجعون الى مدرستين ؟ .

ثم لماذا ننسب المدرسة الى واحد من المتعاصرين ونغفل الآخرين وكلهم في الفن سواء .. أكان للكتاب المعاصرين لصاحب المدرسة طرق مختلفة عن طريقته ؟ أم انهم كانوا على طريقة واحدة ؟ واذا كانت واحدة فلماذا تنسب الى أحد منهم دون الآخرين ؟

ان أسلوب السجع والبديع والعناية باللفظ على حساب المعنى والتكرار والاسهاب وحل الشعر واقتباس آى القرآن أو حلها ، هو الأسلوب السائد في عصرنا الذى نتكلم عنه .. ويمكن أن نوحّد الخصائص

الأسلوبية العامة لأكبر عدد من كتاب العصر . سواء في مصر أو الشام أو حتى في العراق . ولم يخرج عليه الا نفر قليل ، كابن الأثير في كتابته التأليفية ثم تبعه ابن منقذ .

وبعد ، فقد ابتعدت عن النقطة التي ابتدأت منها وهي مذهب الفاضل الفني . . وانما اضطررت الى ذلك لنستطيع أن نعرف وجه الصواب فيما اختلف فيه المؤلفون حول المدرسة التي ينتمي اليها الفاضل وما مدى صحة أن تنسب له مدرسة عرفت به . وبناء على ما ذكرت . . لا أستطيع أن أنسبه الى مدرسة أسلوبية اختص بها ، كما لا أستطيع أن أرجع اسلوبه وطريقته الى كاتب معين . . فلو أرجعناه الى طريقة العصكفي للزمنا أن نرجع طريقة العصكفي الى طرق من تقدمه كابن الخلال وابن عبد كان وأبي العلاء . . ولكنا نقول :

ان طريقة الفاضل هي الطريقة الشائعة في عصره والتي هي امتداد لما سبقها من كتابات ، خاصة بعد ظهور أسلوب البديع بدءا بابن العميد ومرورا بأبي العلاء والحريري وابن عبد كان والعصكفي وغيرهم من الكتاب البلغاء الذين لم يصلنا انتاجهم أو لم نطلع عليه لضياعه ، أو لكونه لا يزال مخطوطا .

ونعود فنقول : كان الفاضل يعتني برسائله ويحتفل بها وهي أقرب الى الذوق من كتابة معاصره العماد وأخف تكلفا من جاء بعده .

وقد طوع الصناعة البلاغية وسيطر على السجع والألفاظ وألح على الجناس والتورية ، كقوله : " وخواطري كليلة وتصرفاتي قليلة ، وهمتي

كما يعرفها ،والخلطة تخلط فان سمع سيفنا جلمن شقة فهو لقيط ".(١)
وقوله : " في ليل كموج البحر ،له أنجم كحبب النهر ، وقد حشر الهموم وحشدها و هدى ضوالها وأنشدها ، فأقول لما تمطى بصلبه قطع الله صلبك ،ومتى أرى عمود الصبح وقد عجل بصلبك ".(٢)

وقوله : " واطلعت شرف الأربعين وما تركت شرف العشرين وقلت للنفس : أنساني نيسان ما تشرين لتشرين ".(٢)

وقد ذكر ابن حجة أنه أول من استخدم هذا اللون في أدب مصره.(٣) وقد أعجب القوم بالتورية وأخذوا يؤلفون الكتب فيها.(٤)

ومن خصائصه أنه ماكرر دعاء ذكره في مكاتبه ، ولا رد لفظا في مخاطبة بل تأتي فصوله مبتكرة مبتدعة (٥) كما يقول المقدسي . وذلك لطول مرانه وتحكمه من فن القول والتشخيص والتصوير والحركة ، من ميزات أسلوبه ، أنظر الى قوله : " وتصوبت عيون السمر الى قلوبهم

---

(١) نصرة الثائر ص ١٧١ .
(٢) نفس المصدر ص ١٥٢ .
(٣) خزانة الأدب ص ٥٤ وانظر فض الختام ص ٤٩ ، ١٤٣ .
(٤) منها كتاب فض الختام من التورية والاستخدام للصفدي وتبعه ابن حجة وألف كتابا على غراره وسماه "كشف اللثام عن التورية والاستخدام " ولابن زرقاله فيها كتاب سماه "رائق التحلية في فائق التورية ".
(٥) انظر الروضتين ٢/ ٢٤٢ .

فكأنما تطلب سوادها ، وقصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنما أرادت أن تروى جوء ارها ... وغازلتهم عيون الرماح وعقدت لهم الحوافر غماصا من الغبار و أنزلت عليهم قطرا من السهام المتطايرة الشرار وجلتهما رعود من الصهيل ،وأبرقت في جوانبها بروق من سيف صقيل "(١) .

ومن أجل أن يستوفي في عبارته الفنون البديعية من سجع وتورية وجناس نراه يطيل في السجعات ،ويكرر العبارات ، ويطيل حتى يمل ، والغرض اشباع رغبته في ايراد تلك الصيغ البديعية ، في حين أن المعنى الذى يعبر عنه بصفحة ، يمكن التعبير عنه بسطر أو سطرين ، دون اخلال .. ورسائله كلها شواهد .

أما حل الشعر والاقتباس من القرآن الكريم أو حل الآيات و تضمين الاشعار ،والحكم ،فظاهرة عامة عند كل الكتاب في هذا العصر ،وإن كان للفاضل زيادة عناية ،وتوسع في الاقتباس من القرآن الكريم أو حل الآيات .. كقوله في وصف رسائله : " قد علم الناس أن كتبي لا لغو فيها ولا تأثيم (٢) ، ولا مجال فيها لهماز مشاء بنميم (٣) ، واني فيها لعلى هدى قويم ،اذا كان المترسلون في ضلال قديم (٤) ، وأن من قطع

---

(١) من ترسل القاضي الفاضل (مخطوط) ص ٣٢ .
(٢) من قوله تعالى :" لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما .. " سورة الواقعة آية ٢٥ .
(٣) من قوله تعالى : " ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم " سورة القلم آية ١١ .
(٤) أخذه من قوله تعالى " قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم " سورة يوسف آية ٦٥ .

ما أراد الله أن يوصل منها ،وكشف ذيلها ، لا يكشفها من عورة يعتذر عنها "(١) .

وقد ذكر الصفدى أن " الفاضل ينحط أحيانا الى الحضيض ثم يثب حتى تكون الثريا لرسائله ثرى "(٢) في معرض مقارنته بالمتنبي .

وأعود فأقول : ان هذه الخصائص ليست مقصورة على أسلوب الفاضل دون غيره ،ولكنها تظهر عنده أكثر من غيره وتميز أسلوب كاتب عمن سواه ، مع أنهم جميعا يسيرون في الاتجاه العام في الأسلوب الكتابي .

أما عن كثرة انتاج الفاضل من الرسائل ، فقد ذكر ولده أن ما عنده منها بلغ خمسة عشر مجلدا ،فكيف ما هو بأيدى الناس(٣) .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ كثيرا من رسائله .. كما جمعت مختارات منها في كتب مستقلة بعضها مطبوع ككتاب " الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم " طبع بمصر سنة ١٢٧٨هـ .

وبعضها لا يزال مخطوطا .. ومنها :

١ــ فصوص الفصول في الأزهر الشريف ،تحت رقم /٥٢٢/ وبدار الكتب المصرية تحت رقم / ١٤٠٩ أدب(٤) .

٢ــ من ترسل القاضي الفاضل في معهد المخطوطات تحت رقم ٤١٩ أب(٥) .

(١) المختار من انشاء الفاضل ص ٥٤ .

(٢) انظر نصرة الثائر ص ١٧٠ .

(٣) انظر التذكرة للصفدى ،وفي نهاية الأرب : قيل انها/تزيد اذا جمعت عن مائة مجلد ٨/ ١٥ .

(٤) لدى الباحث نسخة منه .

(٥) وقد نسبها صاحب كتاب . أدب الدول المتتابعة للعماد انظر ص ٢٣٨ .

٣ ـ المختار من انشاء القاضي الفاضل ،في الأزهر تحت رقم/ ٤٦٩ (١)
وفي المتحف البريطاني / ٧٣٠٧ (٢) .

٤ ـ عيون الرسائل الفاضلية ،اختيار عبدالله بن علي بن محمد الجعفرى
في المتحف البريطاني تحت رقم / ٢٥٧٥٦ (٣) .

٥ ـ مراسلات فاضلي في المتحف البريطاني رقم / ٧٤٦٥ (٤) .

٦ ـ مكاتبات القاضي الفاضل في المتحف البريطاني رقم /٢٥٧٥٧ (٥) .

٧ ـ الفاضل من كلام القاضي الفاضل في مونخ أول/٤٠٢ وفـــي
المتحف البريطاني أول / ٧٧٨ ـ ٧٧٩ (٥) وبدار الكتب المصريـة
رقم / ٣٨٨٢ـ أدب .

٨ ـ رسائله الى خليفة بغداد يضمها المجلد الأول من مجموعـــة
من ثمانية أجزاء باريس / ٦٠٢٤ (٥) .

٩ ـ قطع مفردة في برلين / ٨٦٢١ (٥) .

١٠ ـ مكاتباته مع أسامة بن منقذ (٥) .

١١ ـ الرسالة الحجازية في الفاتيكان ثالث / ٩٤٦ (٦) .

---

(١) لدى الباحث نسخة منه .
(٢) انظر الألقاب الاسلامية ص ٥٤٩ .
(٣) انظر نفس المرجع ص ٥٤٩ ويذكر بروكلمان في تاريخه أن رقمها ١٥٤٠ ، ١٥٤١ ،وانظر ٦/١٠ .
(٤) انظر الالقاب الاسلامية ص ٥٤٩ .
(٥) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٦/١٠ .
(٦) انظر نفس المرجع ٦/١١ .

١٢— كتاب مختصر من ملـــج الأنوار ومتأرج النوار في المكاتبات الى الملوك والوزراء والعلماء مما جمعه ابن مماتي من قول القاضي الفاضـــل في الفاتيكان ثالث / ١٠٩٩: ٧ (١) .

١٣— ديوان شعر في مجلدين ، وقد بلغت الأبيات التي وردت فـــي رسائله من شعره — ٥٨٩ — بيتا (٢) .

١٤— وذكر له "أبو الأصبع" رسالة في البلاغة (٣) .

١٥— تاريخ مرتب على الأيام (٤) بدأه منذ سنة ٥٦٠ هـ الى أن توفي. (٥)

والقاضي بهذا يعد أكثر أهل زمانه انتاجا في فن الرسائـــل بل لعله أكثر الكتاب في ذلك.

فقد احتفظت المراجع بكثير منها ، كما احتفظ الناس بأكثرهـــا وجمعوها في كتب مستقلة لتعلقهم بها واعجابهم بأسلوبها و قد اعترف

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٦/ ١١ .
(٢) انظر ديوان القاضي الفاضل ٢ / ٤٨١ ومابعدها .
(٣) انظر بديع القرآن ص ١٢ .
(٤) انظر وفيات الأعيان ١ / ٢٥٨ ، وكشف الظنون ١ / ٢٩٩ ، و هدية العارفين ٥ / ٥٦٠ .
(٥) يقول ابن سناء الملك / جامع كتاب "فصوص الفصول" أنه " يعلق فيه ما يتجدد من الأحوال يوما يوما ، بل ساعة ساعة ، انظر ص ١٩ .
كما ذكر صاحب كتاب "كشف الظنون : انه الف كتاب في سيرة الملك المنصور قلاوون ، انظر ٢ / ١٠١٦ ، وكذلك هدية العارفين ٥/ ٥٦٠ .
و هذا وهم . لأن المنصور قلاوون توفي سنة ٧٤٢هـ ، انظر الأعلام ٥/ ٢٠٢ بينما توفي الفاضل — كما مر بنا — سنة ٥٩٦ هـ.

له حتى معاصروه باجادته وطول باعه في البلاغة وان عزوا ذلك الى الأحداث التي تستثير العواطف و تفجر المواهب و بحسن القول في وصفها والتعبير عنها . فهذا ابن الأثير مع منافسته له يقول فيه :

" ذلك الرجل رزق دولة سيفها أفصح من كتابه وخطبها أعظم من أن يفتقر الى تزوير خطابه فكان يقول عنها بمحض ما يرى ولا فضل للقلم اذا جرى بحكاية ما جرى .. فتفضل يا مولاى واعطني دولة كتلك حتى أخطب عنها خطابة تكسوها فوق مجدها مجدا "(١) .

و لعل الفاضل نفسه أصدق من يصف لنا رسائله وبلاغته في هذه الأبيات :

حديث يناجى فروع السحاب	وأصل يناطى(٢) أصول الجبال
ولي قلم منه عين الكلام	تجرى فتنظر عين الكمال
يراع تظل رياض الطرو	س منها موشحة بالظلال
كمثل الوقيعة(٣) فيها الزلال	يسيغ الوقيعة لي في الزلال

---

(١) المثل السائر نشره أنيس المقدسي ص ٣١٢ و من الكتب التي استفدت منها في الحديث عن أسلوبه : الأدب في العصر الأيوبي و تطور الأساليب النثرية والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، والأسلوب ... الخ
وقد عد أحمد بدوى للفاضل ٩٠ مرجعا في مقدمة ديوان الفاضل .

(٢) المناطاة : المنازعة .

(٣) الوقيعة : نقرة في جبل ينقع فيها الماء .

و كتب بفيض بأرجائهــــا ... بصين الجدا (١) ولسان الجـدال
تقدمها الشكل من فوقهـا ... كمثل السهام أمام النصـال
وكم تربت (٢) وانبرت للعدو ... كوثب الشرار و هد الجبـال
فيأطرنه (٣) مثل أطر القسي ... ويبري بنه مثل بري النبـال
بما في براثن أسد الغياض ... وما في جفون ظباء الرمـال
وكم قد كسون عوارى ظبـا (٤) ... وكم قد سلبنا عوارى عوالـي
تبسم عن مطمع مؤيس ... بدى الضار صفي المنـال

*

تكلل أفلاك قرطاسهـا ... شموس شوامس (٥) عند الـزوال

---

(١) الجدا : المطية أو المطر العام.
(٢) تربت : من التراب ، وكانوا يتبركون بذلك .
(٣) أطره : عطفه .
(٤) الظبا : حد السيوف .
(٥) الشموس : من الخيل الذى يمنع ظهره .

العماد الأصبهاني :

هو القاضي عماد الدين أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن عبدالله بن علي المشهور بالكاتب ، فارسي الأصل .

ولد ونشأ بأصبهان من أعمال فارس سنة ٥١٩هـ (١) ، ثم ارتحل الى بغداد طلبا للعلم في سنة ٥٣٤ هـ ،فالتحق بالمدرسة المجدية ثم بالنظامية حيث تعلم القرآن الكريم والفقه (على مذهب الامام الشافعي) والأدب واللغة والنحو .. على نخبة من علمائها كالفقيه ابن الرزاز ، والأديب ابن الخشاب وغيرهم (١) وحفظ كثيرا من دواوين الشعر ... ويظهر أنه كان يعد نفسه لممارسة القضاء فقد لقب بالقاضي ، وقال عن نفسه حين اتصل بالوزير نور الدين زنكي بالموصل سنة ٥٤٢ هـ :
"وكنت أنا في ذلك العهد ببغداد ،واتفق حضوري بالموصل في ذي القعدة سنة ٥٤٢ هـ ،فحضرت عند جمال الدين بالجامع في جمعتين وتكلمت عنده مع الفقهاء في مسألتين" (٢) .

---

(١) انظر معجم الأدباء ١٩/١١ والروضتين ١/١٤٤ ،وذيل الروضتين ص ٢٧ والأعلام ٧/٢٦ ، وقد عدّله أحمد بدوي في كتابه الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ٢٠ مرجعا ص ٣٦٤ ، وانظر من مراجعه : الأدب في العصر الأيوبي ص ٢٠٩ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥/٦ ، وأدب الدول المتتابعة ص ٧٤٢ ، والفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٦٧ .

(٢) انظر تاريخ آل سلجوق ص ١٩٤ .

ورغم أن ياقوت ذكر أنه لما رجع من أصبهان الى بغداد اشتغل بصناعة الكتابة فبرع فيها ونبغ"(١). فان العماد ينكر معرفته بهذه الصناعة عندما انتظم في ديوان نور الدين بدمشق سنة ٥٦٣ هـ اذ يقول : "وأنا أمضي كل يوم الى الديوان مبكرا ، وما أقدم عليه من خدمة لا دربة لي بها مفكرا ... وكنت أظن أن صناعة الكتابة ، لا سيما الانشاء ، صعبة حتى قرأت كتب الأمصار والمراسلات ... فوجدتها في غاية من الركاكة ... فتجرأت على الكتابة"(٢).

ثم عاد الى أصبهان وتفقه بها وسمع من العلماء وناظرهم ثم رجع الى بغداد مرة أخرى سنة ٥٤٩ هـ(٣) فاتصل بالوزير ابن هبيرة(٤) حيث ولاه نيابة واسط والبصرة(٥). ومما يدل على أن عمله عند ابن هبيرة لم يكن في كتابة الانشاء قوله : "فنقلني من المدرسة الى العمل ، وعطلني من الاشتغال بالعلم ، وظن أنه حلاني بشغله من العطل"(٦). ولما توفي ابن هبيرة سنة ٥٦٠ هـ أقام ببغداد سنتين منقطعا الى الفقهاء يباحثهم ويناظرهم(٧).

---

(١) معجم الأدباء ١٩/١٢.
(٢) سنا البرق الشامي ص ٢٢.
(٣) انظر تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٢٥.
(٤) انظر ترجمته في سنا البرق الشامي هامش ١٧ .
(٥) انظر نفس المرجع ص ١٨ و معجم الأدباء ١٩/١٢.
(٦) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٣٥.
(٧) انظر سنا البرق الشامي ص ١٨.

ولكن المقام لم يطب له ،فتوجه من غير هدف الى دمشق سنة ٥٦٢ هـ ،وهناك اتصل بالقاضي الشهرزوري [١] الذي أكرمه وأتاح له الحضور الى مجالس علمه ،فاتصل بالفقهاء ،وناقشهم واستفاد منهم — ولما علم نجم الدين أيوب — والد صلاح الدين — بوصوله الى دمشق — وكان لعمّ عماد الدين عليه فضل — بادر الى تكريمه والترحيب به . فمدحه بقصيدة [٢] .. ثم عرّفه الشهرزوري على نور الدين وأشاد بفضله .. ونوّه به فاستكتبه في ديوان الانشاء فهابه اذ كان عملا جديدا عليه [٣] .

كما كان نور الدين يرسله في المهمات الرسمية ،ووكل اليه التدريس بالمدرسة النورية التي سميت فيما بعد باسمه ، ثم قويت ثقته به ،فجعله مشرفا على ديوان الانشاء ، بعد أن برّز على اقرانه وخالف أساليبهم كما يقول : " فتجرأت على الكتابة ، وغيرت تلك الأوضاع الوضيعة واخترعت أسلوبا ما عرفوه وألّفت مصنوعا ما ألفوه ووفيت بالبلاغتين ونقّحت الفن من الصناعتين" [٣] .

ثم أمره نور الدين بأن يكون مشرفا وأمينا لدولته فتمتّع مرة أخرى ، فهو يقول : "وحين حضرت قال خازنه .. يأمرك (يعني

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن محمد بن عبد الله توفي سنة ٥٧٢ هـ تولى القضاء لنور الدين وصلاح الدين ، انظر سنا البرق هامش ص١٨ .

(٢) انظر بعض أبيات القصيدة في سنا البرق ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) انظر نفس المرجع ص ٢٢ .

نور الدين) بأن تتولى اشراف مملكته و تكون الحافظ الأمين في دولته ،
فقلت يعفيني ،فأنا وحيد الغربة ، وبهذا العمل عديم الدّربة ...
فجمعت بين المنصبين ،وقسمت زماني على النصيبين فمرة للكتب والمناشير ،
و تارة للاثبات في الدساتير".(١)

ولما توفى نور الدين الشهيد سنة ٥٦٩ هـ .. اختلت أحواله من جديد و نبا به المكان ، اذ كان له أعداء ومنافسون أغروا به ابن نور الدين — الملك الصالح — فخاف على نفسه وتوجه للموصل (٢) . و بقي بهـــا الى أن سمع بخروج صلاح الدين من مصر قاصدا دمشق سنة ٥٧٠ هـ ،وكان العماد عونا له عند نور الدين — فعاد للشام وقوّى صلته بالفاضل الذى قدمه لصلاح الدين ، فصار نائبا عن الفاضل في غيابه وكاتب سر السلطان (٣) .
فلازمه وحضر كل حروبه الا وقعة الرملة (٤) .

يقول : " ولزمت خدمته ،أرحل برحيله ، وأنزل بنزوله ...
فصرت كاتب حضرته ،فشغلني انشاء الرسائل عن انشاء المدائح ، فغلب النثر وقل النظم".(٥)

وكان ينشىء الرسائل بالفارسية ،ولهذا قال الفاضل لصلاح الدين — حين اقترح عليه أن ينيب العماد مكانه ،ورأى عدم رضـــاه —

---

(١) سنا البرق ص ٦٤.
(٢) نفس المرجع ص ٧٤ ، ٧٥.
(٣) نفس المرجع ص ٩٠.
(٤) انظر الروضتين ١ / ٢٧٢.
(٥) انظر سنا البرق ص ٨٥.

" فدا تكاتبك ملوك العجم ولا تستغنني في ذلك عن عقد الطفلت و حمل التراجم "(١) .

ثم أصبح أثيرا عند صلاح الدين ، الا أنه لم يبلغ منزلة الفاضل وفي ذلك يقول : " كان السلطان يؤثر ايثارى و يختار اختيارى "(٢) .
وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ استكتبه ابنه الأفضل(٢) ثم رغب في الرحيل الى العزيز بمصر حينما ساءت سيرة الأفضل وكرهه الناس ، لعكوفه على المحرمات(٣) ، وتحكم ضياء الدين بن الأثير به كما يقول المؤرخون ، وبقي في مصر الى أن توجه العزيز للشام للاستيلاء على ملك أخيه الأفضل ، فعاد معه ولزم مدرسته وانقطع للتأليف الى أن مات بها سنة ٥٩٧ هـ(٤) . وقد أفاده التفرغ اذ أكثر من التأليف في الأدب والتاريخ ، وقد ذكر له ياقوت من الكتب :

خريدة القصر وجريدة العصر — البرق الشامي — الفيح القسي في الفتح القدسي — كتاب السيل على الذيل — نصرة الفطرة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية — عتبى الزمان — نحلة الرحلة — بالاضافة الى ديوان شعره ، وديوان رسائله(٥) .

وله خطفة البارق وعطفة الشارق(٦) .

---

(١) انظر سنا البرق ص ٩٠ .
(٢) انظر الروضتين ١/ ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢/ ٢٢٥ .
(٣) هـ انظر الروضتين ص ٢٢٩ .
(٤) انظر تراجم رجال القرنين ص ٢٧ وقد قدم مصر سنة ٥٩٢ هـ ، وانظر السلوك جـ١ قسم ١ ص ١٣١ .
(٥) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٦/ ٩ وفي كشف الظنون (زبدة النصرة ونخبة العصرة) ٢/ ٩٥٤ .
(٦) انظر معجم الأدباء ١٩/ ٢٠—٢١ .

سيرتـــه وصفاتـــه :

ذكر المؤرخون أنه كان هادئ الطبع ، بطئ للحركة وكان منطقه يعتريه جمود وفترة .. غير أن له قريحـــة وقادة .

ولذلك قال فيه الفاضل : " هو كالزناد ظاهره بارد وداخله نار "(١) .

ولم يكن سلوكه كقرينة الفاضل ، الذى عرف عنه الورع والتقـــوى والصلاح والصدقـة .. بل كان يتبع هواه وتخليه نفسه ، فقد دخـــل عليه الفاضل يوما .. فرأى أشياء أنكرها في نفسه ، مثل آثار مجالس أنس ، ورائحـــة خمر ، وآلات طرب فأنكرها عليه .. فقيل انه لما قام من عنـــده خرج العماد من كل ما كان فيه ، وأقلع ، ولم يعد الى شئ من ذلك(٢) .

مذهبه الأدبـــي :

بالرغم من أن العماد يعتبر من كتاب المشرق وأساتذته وثقافتـــه مشرقية أيضا ، وبالرغم من ادعائه أنه اخترع أسلوبا ما عرفـــه الكتـــــاب فاننا نجد كتابته تلتزم نفس أسلوب الفاضل ، ولم يستطع أن يبلـــغ شأوه ، بل بقي مبهورا بفنه ، دون أن يبلغ منزلته . والسبب أن العماد

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٠ .
(٢) ثمرات الأوراق ص ١٢ ، ١٣ ، وانظر انكار صلاح الدين عليه استعماله لدواة محلاة بالفضة في السلوك جـ١ / قسم أول ص١١٢ .

كان يقلد الفاضل ويعتبره مثاله الأعلى ولا بد أن يقع المقلد دون مرتبة من يقلده .. والظاهر أن كل كتّاب عصره كانوا يقلدونه حتى ابن الأثير الذى يعيب رسائله ،وينتقدها نجده يعارضها ،وهذا دليل على اعترافه بجودتها[1] .

وكتابة العماد الكاتب لا تخرج عن موجة العصر العامة من التزام بالسجع واستخدام للبديع من جناس وطباق ومراعاة نظير ومن الازدواج بين الجمل ، ومن حل الأبيات الشعرية واقتباس من القرآن والحديث .. وأحيانا يحلّون الآيات القرآنية . وهذه الطريقة انحدرت من أسلوب المقامات ،أخذت ما فيها من اغراب وسجع وتعقيد . ولكنه لم يصل الى الدقة في التصوير والتشخيص الذى وجدناه عند الفاضل .

ومع أننا ذكرنا أن من سمات اسلوب الفاضل الاغراق في الجناس بأنواعه .

فقد زاد عليه العماد في ذلك ، حتى ضرب به المثل ، فكما اشتهر الفاضل بالتورية[2] اشتهر العماد بالجناس[3] . حتى بلغ منه حد الاسراف .

---

(١) انظر نصرة الثائر ص ٣٠٤ ورسائل ابن الأثير نشر نورى القيسى رقم ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٢) يقول ابن حجة : وقع الاجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا الى أفق التورية واطلعوا شموسها .. وقيل ان الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره / خزانة الأدب ص ٢٩٨ .

(٣) صبح الأعشى ١/٤٥٤ .

قال فيه الصفدى : ألا ترى أن العماد — رحمه الله — لما جعل كلامه مشحونا بالجناس ، لا تكاد كلمة تخلو من ذلك ، ثقل على الأسماع والقلوب ، ولم يكن له خفة كلام القاضي الفاضل على القلوب (١) ، ويقول العماد في ذلك مفتخرا من رسالة بعثها للفاضل : " وأنا مورد رسالة جامعة مانعة ، ناصعة ، قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق والترصيع ، والمقابلة والموازنة والتوشيع " (٢) .

وقد التزم هذا الأسلوب حتى في كتابته التاريخية ، كالبرق الشامي والفيح القسي — وهذا ما جعل البنداري الذى اختصر كتاب " البرق الشامي " — يقول : " ولكني وجدت درر مقاصده مكنونة في بحار أسجاعه المتلاطمة الأمواج " (٣) .

وقد أولع العماد بالسجع والجناس بخاصة ، لدرجة أنه نحا ببعض رسائله نحو فن المقامات ، كرسالته التوأمية ورسالة الحيات (٤) . يقول من الرسالة التوأمية : " لئن أتأم العام بالحنين وأتى بالحسنيين ، فما زال لكل قدّ توأمان ، فللمعدل العمران ، وللدهر القمران ، وللسماء — سوى توأميها — الفرقدان ، وللأرض — ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ (٥)

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٧٠ .
(٢) الخريدة قسم شعراء مصر ١ / ٣٦ .
(٣) البرق الشامي ص ١٢ .
(٤) نفس المرجع ص ١٩٧ .
(٥) سورة الرحمن آية رقم / ٢٠ .

لكن الزمان لم يزل يمثل مولانا الفاضل عقيمة ،فلولا صحة فضله وحصة أفضا له ،لكان الدهر سقيما ،فهو واحده وأوجده ، وملجده و سيده ، وبراعته أم البراعة . . . والملك توأمان ، الناصران ،فبأس الباسل العباسي بالأمانة كفيل ،وجود الماجد الأيوبي في نيابته وكيل ،والمال والنصر توأما نحت فخره وتميما نحت نجره ،وكوكبا سعد فخره ، ومركبا جاش حزمه ،ومولها جيش عزمه "(١) .

وانظره كيف يعجب بقول الفاضل : " غصبت أملاكه ، ونصبت أشراكه اشراكه " ، ويقول : ما أحسن قول سيدنا . .استحسنت ازدواج هاتين الكلمتين ووقعتا منى بموقع "(٢) .

وقد لاحظ البنداري اعجابه بهذا اللون من البديع حتى في اختياراته من الرسائل فرغم أن البنداري يسير على نفس أسلوب العصر ، الا أنه استثقل تلك الحلى المتراكمة . . يقول : " قد أورد . . عماد الدين ههنا رسائل لفضلاء العصر ، مبنية على حروف معينة أكثرها ـ وان اشتملت على الألفاظ البارعة والمعاني البديعة ـ لا تخلو من تكلف تمجه الأسماع و تعسف تنبو عنه الطباع "(٣) .

و هاك مثالا على ولع العماد بالجناس من كتابته التاريخية :
" و خرج بصلبانها ،وأساقفها ،و بطارقها ،وغصت بالأفواج فجاجها ،

---

(١) سنا البرق ص ١٨٤ .
(٢) نفس المرجع ص ١٥ .
(٣) نفس المرجع ص ٢٩٠ .

ومسا لكهل وتصلبت للصليب السليب ، وتفضبت للمصاب المصيب ،ونادوا في نوادبهم بأن البلاء دهم بلادهم ،وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم ... ومن عجز عن السفر سفر بمدته وثروته ومن قدر بذل البدر لمن بدر . (١)

فكم في هذا المقطع من كتابه من أنواع الجناس التام والناقص ... والمقلوب . بين تصلبت للصليب ،السليب .. ودهم بلادهم .. وبدر البدر .. حتى أن القارئ أول ما يخطر بباله عند قراءة هذا النص أن الكاتب انما وضع هذه العبارات من أجل أن يمثل لأنواع البديع وليس لأداء معنى يستفيده ..

ولم يبلغ العماد مبلغ الفاضل في عمق الفكرة ووضوحها ،والتخفيف عنها من هذه القيود اللفظية .. فالفاضل مع سيره في الاتجاه العام لذوق العصر من استخدام البديع ،والاعتناء بالشكل ، لا ينساق وراءه بحيث ينسى المعنى تماما ، بل يترك لنا فرصة لنرى المعنى من خلال تلك السجف ،وندركه من غير جهد كثير .. أما العماد ، فقد وجه عنايته كلها للافتنان في تلك المحسنات .. وعلى القارئ قبل أن يفهم المعنى أن يتأمل تلك المقدرة الفنية للكاتب بتطعيم رسالته بتلك الحلي البديعية المجهدة .

والقاضي يعتني بالمجاز والبلاغة من استعارة وكناية ،أما العماد فحصر همه في المحسنات .

---

(١) الفتح القسي ص ٢٢٨ .

وقد يكون سبب تقصيره عن بلوغ مستوى أستاذه أنه لم يشتغل بالديوان الا متأخرا ، أو لاتقانه اللغتين العربية والفارسية [(١)] ، وقد رأينا أن بذرة البديع و هذه الطرق العجيبة التي اتجهت بالنثر العربي نحو التعقيد والتكلف كانت من زرع كتاب يجيدون أكثر من لغة ، ومن أصل غير عربي . ولا يعني هذا الغض من مكانة العماد الأدبية فقد كان من أعلام الكتابة في عصره و ممن أطراهم المؤرخون وأشادوا بأدبهم . . ولكنا بصدد الحديث عن فنه وأسلوبه .

ضياء الدين بن الأثير :

هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أثير الدين ، محمد بن محمد ابن عبد الكريم الجزرى — يرجع نسبه الى شيبان القبيلة العربية المشهورة [(٢)] .

---

(١) راجع محاسن أصفهان للمافروخي ص ٢٧ طبع طهران .

(٢) انظر ترجمة ضياء الدين فيما يلي :

١ — ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد ص ٣١ ومابعدها .

٢ — مقدمة كتابه كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب .

٣ — مقدمة رسائله نشر نورى القيسى وزميلاته .

٤ — ومقدمة كتابه المثل السائر وقد عدّله محقق كتابه كفاية الطالب (٤) مرجعا .

٥ — و تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات ص ٥٠٠ .

ولد سنة ٥٥٨هـ[1] بجزيرة ابن عمر — من نواحي العراق —[2] في بيت علم وفضل وأدب ومكانة اجتماعية عالية، اذ كان والده — أثير الدين — واليا على هذه الجزيرة من قبل قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكي[3].. وكان رجلا كريم الأخلاق عاقلا مقربا الى آل زنكي، محمود السيرة في الرعية حتى أنه تعرض للمساءلة من تهاونه في أخذ الجباية[4].

وكان يحتل من آل زنكي مكانة تقرب من المكانة التي كان الفاضل يحتلها من الأيوبيين..

أنجب ثلاثة أبناء نجباء، أكبرهم: مجد الدين مبارك صاحب كتاب النهاية في غريب الحديث، له جامع الأصول في أحاديث الرسول توفى سنة ٦٠٦هـ[5] وله ديوان رسائل مخطوط بدار الكتب المصرية وأوسطهم: عز الدين علي صاحب كتاب الكامل في التاريخ توفى سنة ٦٣٠هـ[6].

---

(١) نفس المرجع السابق.
(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥/٢٧١.
(٣) أتابكة الموصل ص ٢٦٥–٢٦٦.
(٤) الروضتين ١/١٨٦ ومابعدها وأتابكة الموصل ص ٢٦٩.
(٥) انظر معجم الأدباء ١٧/٧١ وقد عد له ياقوت ١١ مؤلفا ١٧/٧٦ والأعلام ٥/٢٧٢ وبنو الأثير الفرسان الثلاثة ص ٢٣.
(٦) الأعلام ٤/٣٣١ — وقد غلط الزركلي ونسب له الجامع الكبير، وبنو الأثير الفرسان الثلاثة ص ٦٣.

وأصغرهم ضياء الدين ، موضوع الترجمة ..

وكلهم برّز في تخصصه وبنى له مجدا وأبقى له ذكرا ،وتولى كل منهم الوزارة أو الكتابة أو جمع بينهما ..

فقد تربى ضياء الدين — اذا — في بيت علم وعز وغنى ،وباعتباره آخر العنقود فقد كانت له الحظوة من حب أبيه وعطفه .. وقد أثّرت هذه النشأة في شخصيته ما جعله معتدا بنفسه معجبا بأدبه يتطاول على معاصريه ويزرى بسابقيه (١) .

ولعل الجفوة التي حدثت بينه وبين أخيه عز الدين كانت بسبب تعاليه . انتقل ضياء الدين الى الموصل مع والده وكانت عاصمة الاقليم آنذاك وفيها قضى أيام الصبا ، واكتملت رجولته ونضج عقله ، فتلقى تعليمه بمدارسها التي يقول عنها ابن جبير : انها تزيد على ست حين مر بها سنة ٥٨٠ هـ (٢) . وبها حصّل ثقافته التي تبدأ عادة بحفظ القرآن الكريم والحديث ودواوين الشعر .. وتعلم اللغة والنحو والبلاغة والأدب على يدى مشاهير علمائها (٣) ، اذ حفلت الموصل في تلك الفترة بنخبة من العلماء في كل فن ،كما كانت مساجدها ومدارسها

---

(١) انظر ما يقوله عن الفاضل من رسالة له (رسائل ابن الاثير ، نشرة أنيس المقدسي ص ٢١٣) .

(٢) انظر رحلة ابن جبير ص ٢١١ .

(٣) انظر في ذلك رحلة ابن جبير ص ١٣٢ ،وفيات الأعيان ٣ / ٣٨٠ ، وأتابكة الموصل ص ٣٢٤ ، والروضتين ١ / ١٨٩ ،ومرآة الزمان ٨ / ٥٥٨ .

عامرة بحلقات العلم والمذاكرة ، ثم التحق بديوان الانشاء للأمير مجاهد الدين قايماز ، زعيم الموصل .. يؤكد هذا ما ورد في مقدمة رسالته الواحدة والثلاثين ، ما نصه : "كتاب كتبه عن نفسه الى الأمير مجاهد الدين قايماز زعيم الموصل ، وكان بخدمته أولا قبل اتصاله بخدمة الملك الأفضل علي بن يوسف" (١) .

وكذلك ما ورد في مقدمة رسالته الأولى من ديوان رسائله (٢) . وبهذا يتضح أنه اشتغل بالديوان أولا بحضرة مجاهد الدين قايماز ثم بخدمة الأفضل قبل اتصاله بالسلطان صلاح الدين ..

ثم انتقل للشام حيث خدم حضرة الأفضل بن صلاح الدين ... ولم تعرف بالتحديد المدة التي مكثها عنده ، ولكن الرجل كثير التحول والتنقل فقد التقى بالقاضي الفاضل الذي قدمه للسلطان صلاح الدين .. فبقي في خدمته فترة لم تتجاوز السنة (٣) ، اذ طلبه الأفضل من والده ، فخيره السلطان بين الاقامة معه أو العودة مع الأفضل فاختار الرجوع مع الأفضل ، اذ كان كاتبا عنده سنة ٥٨٣هـ (٤) .

ولعله اختار العمل مع الأفضل على خدمة صلاح الدين ، حينما رأى أنه لن يبلغ مركزا عاليا ما دام الفاضل والعماد يشرفان على عمله ،

---

(١) رسائل ابن الأثير نشر نوري القيسي ص ١٠١ .
(٢) نفس المرجع ص ٦٣ وراجع مقدمة المحقق ص ٦ ومابعدها ، وكفاية الطالب ص ٦ .
(٣) كان كاتبا عنده سنة ٥٧١ هـ ، انظر المثل السائر ١/ ٣٠١ .
(٤) رسائل ابن الأثير ، نشره نوري القيسي ص ٦٤ .

وعرف أنه لن يستطيع مزاحمتهما لطول خدمتهما وتعلق السلطان بهما .
وقد عرفنا عزة نفسه فلا يرضى أن يعمل تحت وصاية أحد ، وكان في أخلاقه صعوبة فقد ذهب عن قايماز مغاضبا (١) .. وسوف نرى كيف أن صعوبة أخلاقه نفرت الناس منه ،وأوغرت عليه صدور سراة القوم . وفعلا تم له ما أراد في ديوان الأفضل ،فبلغ عنده المكانة التي بلغها الفاضل في ديوان صلاح الدين .

فقد استوزره الأفضل بعد وفاة والده وبعد أن آلت اليه مقاليد الأمور ـ باعتباره أكبر أبنائه ـ سنة ٥٨٩ هـ ،فأصبح ابن الأثير رجل دولته والمتصرف في شئونها .

ومن سيرته في دولة الأفضل تضاربت الأقوال ، وأكثرها تجمع على أنه أساء السيرة ،وأفسد ما بين الأفضل وأخيه العزيز وعمه العادل .. فهو الذى أشار على الأفضل باقصاء رجال الدولة ممن خدم دولة والده ،كما يقول ابن واصل : " وكان ضياء الدين المذكور لما اتصل بخدمة الملك الأفضل شابا غرا ، فحسّن للملك الأفضل ابعاد أمراء أبيه ، وأكابر أصحابه ، وأن يستجد له أمراء وأصحابا غيرهم ،وقال : هؤلاء خواص السلطان وينظرون اليك بتلك العين ويعتقدون أن حقهم واجب وجوب الدين وهم ـ بحكم المعرفة لك ،من الصغر ـ يتبسطون ويشتطون ، ولا يقنعون وأعمال دمشق لا تسعهم .... وأما الغرباء ، فانهم يقنعون بأى شيء أعطيتهم ،ويعترفون بحقك ويعظمونك " (٢) .

---

(١) نفس المرجع ،ص ٦٣ ، وقد كان مقاطعا أخاه عزالدين كلية ، انظر شذرات الذهب ١٨٧/٥ .
(٢) انظر مفرج الكروب ٣ / ١٠ـ١١ .

وقد كانت هذه الشورة ، الشرارة التي أحدثت حريقا اصطلى بناره الأفضل ، ولم يسلم منه ضياء الدين ، فقد ذهب القوم للعزيز بمصر ، وكانت لهم مكانة وسابق خدمة ، فاستطاعوا أن يقنعوا العزيز بالاستيلاء على ملك الأفضل ، متذرعين بسوء سيرته وضعفه عن مواجهة الافرنج . . وتلهيه عن ذلك بالانغماس في اللهو والملذات . . وعزوا ذلك الى فساد رأى وزيره ابن الأثير وتسلطه عليه . .

يقول صاحب كتاب البداية والنهاية : " وكان الأفضل قد أساء التدبير ، فأبعد أمراء أبيه وخواصه ، وقرب الأجانب ، وأقبل على اللعب وشرب المسكر واللهو ، واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، وهو الذى كان يحدوه الى ذلك ، فتلف وأتلف ، وضل وأضله وزالت النعمة عنهما "(١) .

فأغضب ذلك العزيز ، وزاد من غضبه استيلاء الافرنج على شغرجبيل وعجز الأفضل وقعوده عن استعادته ، كما آوى جماعة أساءوا السيرة في بعض ما كانوا يتولونه من أعمال العزيز . . فلم يجد بدا من الاستيلاء على دمشق ، وحاصرها سنة ٥٩٠ هـ ، وكاد الأفضل يسلم الأمور لأخيه العزيز الا أن عمهما العادل أصلح بينهما ، فعاد العزيز الى مصر بعد أن أشار العادل بتنحية ابن الأثير عن الوزارة . غير أن الأفضل عاد لسيرته

---

(١) ١٣/٩ وانظر تفاصيل ذلك في الروضتين منقولا عن رسالة العماد المعروفة بالعتبى والعقبى ٢٢٨/٢ ومابعدها .

الا ُولى وزاد تحكم ابن الا ُثير فيه ، فعاد العادل والعزيز يهددانه ويقولان له : " ارفع يد هذا الا ُحمق السي ء التدبير ، القليل التدقيق"(١) يريدان ابن الا ُثير .

فأقلع الا ُفضل عن غيه ،واستقامت سيرته ،الا أنه زاد تمسكا بوزيره ،ثم ثارت مشكلة بين العزيز وعمه العادل الذى تحالف مع الا ُفضل ، وتوجها الى مصر للاستيلا ء عليها ، ولما تراءى الجيشان سعى بينهما القاضي الفاضل ،ونجحت وساطته فعاد الا ُفضل لدمشق وبقي العادل بمصر ...

الا أن الشكوى من سيطرة ابن الا ُثير استمرت ،فأخذ أعيان القوم يشكونه للعادل والعزيز ، فعزما على المسير الى دمشق . ولما علم بهم الا ُفضل استشار وزيره ومن حوله ، فأشاروا عليه برفض شروط عمه وأخيه ، وألا يستسلم ،فدخل العزيز والعادل دمشق سنة ٥٩٢ هـ .

ولما رأى الا ُفضل ألاّ مفر من الاستسلام ، هرّب وزيره ابن الا ُثير في صندوق ضمن أمتعته وسار هو الى صرخد(٢) .

وبهذا انتهت أهم مرحلة من مراحل حياة ضياء الدين .. ولنا أن نتساءل عن كل هذه الضجة التي أحدثها ابن الا ُثير بين أفراد

---

(١) انظر مرآة الزمان ٨/٤٤٣ طبع الهند ١٩٥٢م.
(٢) انظر مزيدا من تفاصيل هذه الا ُحداث في رسالة العتبى والعقبى للعماد في الروضتين ٢/٢٢٨ وما بعدها وكذلك كتابه نحلة الرحلة ٢/٢٣١ من الروضتين .

الأسرة الأيوبية .. وما مدى صحة ونزاهة هذه الأخبار التي تصور ابن الأثير في صورة بشعة تنافي أخلاق مثله من العلماء والأدباء .. ويظهر أن كل المراجع التي أوردت هذه الأخبار تأخذها عن رسالة العماد الأصفهاني المسماة بـ " العتبى والعقبى " سواء ما ذكره المقدسي أو ابن خلكان أو ابن تغرى بردى الأتابكي ، ولا أظن العماد أنصف ابن الأثير .. فقد كان بينهما خصام بسبب أملاك له أشار ضياء الدين على الأفضل بنهبها عند قرب وصول جيش العزيز من دمشق (١) .

كما أن ابن الأثير عاب بعض رسائل العماد (٢) .. وقد شكك ابن واصل وابن الفرات في بعض ما أورده العماد وقالا : ان العماد ذكر ذلك مداراة للعادل (٣) .

ومن جهة أخرى نجد أن بعض المؤرخين يمتدح سيرة الأفضل ويراه من الأفاضل ، يقول ابن حجة فيه : " كان الملك الأفضل علي بن صلاح الدين يوسف من كبار أهل الأدب ، وكان حسن السيرة متدينا قل أن عاقب على ذنب ، وله المناقب الجميلة ، وكان أكبر أخوته ، ومع كمال صفاته وآدابه التي سارت بها الركبان ، ما صفا له الدهر ، ولا هنئ بالملك بعد أبيه ... لبث مدة يسيرة بدمشق ثم حضر عمه العادل

---

(١) انظر مفرج الكروب ٣ / ٦٥ ومابعدها .
(٢) انظر نصرة الثائر ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .
(٣) انظر مفرج الكروب ٣ / ٦١ ومابعدها وتاريخ ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، المجلد الرابع ٢ / ١٠٣ .

وأخوه العزيز عثمان ، فأخرجاه من ملكه الى صرخد ، ثم جهزاه الى سميساط حيث توفى هناك (١) .

فكيف نوفق بين ما ذكره العماد عن الأفضل وما وصفه به ابن حجة ؟ .

أما ابن الأثير فقد توجه تلقاء العراق وطاف ببعض مدنها ، ثم استقر به المقام في الموصل ، ويظهر أنه التحق بخدمة نور الدين أرسلان شاه (٢) .

ولما توفى العزيز سنة ٥٩٥ هـ (٣) . . توجه الأفضل لمصر يطلب من أعيانها ، ليكون وصيا لابن العزيز . . فاغتنم ابن الأثير الفرصة وتوجه من الموصل الى القاهرة سنة ٥٩٦هـ (٤) ، فاجتمع فيها ببعض أدبائها وعلمائها . . ولكن حظ الأفضل العاثر لم يمكنه من حكم مصر سوى عام وبعض الأشهر ، اذ انتزعها منه عمه العادل ، فخرج ابن الأثير متخفيا . . ولما استقر الأفضل بسميساط (٥) اتصل به وظل معه الى سنة ٦٠٧ هـ ، غير أن هذه الفترة من حياته ظلت خاملة لخمول مخدومه ، فمل الاقامة ،

---

(١) انظر ثمرات الأوراق ص ٢٢—٢٣ .
(٢) انظر رسالته في رسائل ابن الاثير لنورى القيسى ص ١٠٧ .
(٣) انظر مفرج الكروب ٣/ ٨٢ والروضتين ٢/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٤) المثل السائر ٣/ ٢٢٥ .
(٥) سميساط ، مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم غربي الفرات .

ومن هنالك توجه الى حلب ، حيث الملك الظاهر بن صلاح الدين ، الا أن اقامته لم تطل عنده .

ولعله لم يجد من الظاهر ذلك الاحتفاء الذي يليق به ، ثم انتقل الى عز الدين مسعود الثاني ـ ٦٠٧ ـ ٦١٥ هـ ـ أمير الموصل ، وكان عز الدين أخو ضياء الدين في ديوانه ـ وظل يتنقل بين الموصل واربل حتى استقر به المقام بالموصل سنة ٦١٨ هـ ، وبقي بها يكتب الانشاء لامرائها حتى كانت سنة ٦٣٧ هـ ، فأوفدوه الى الخليفة ببغداد ، فهلك في سفرته تلك (١) .

وهكذا قضى ابن الأثير حياته موزعة بين الدولتين الأيوبية وأتابكة الموصل ، وقد لعب دورا بارزا في أحداث زمانه وشارك في مجريات الأمور مستخدما فنه الكتابي في ذلك . ولم تقل مشاركته في الحياة العلمية والأدبية عن مشاركته في الحياة السياسية ، فبالاضافة الى رسائله ـ التي يذكر هو أنها بلغت عدة مجلدات (٢) . وقد طبع منها مجلدان ، أحدهما نشره أنيس المقدسي سنة ١٩٥٩م، ضم ١٦٩ رسالة ، عن مخطوطة أحمد الثالث / ٢٦٣٠ .

والآخر نشره نوري القيسي وزملاؤه بالموصل سنة ١٩٨٢م،

---

(١) انظر ضياء الدين وجهوده في النقد ص ٤٩ ومابعدها ، وأنظر في وفاته تراجم رجال القرنين ص ١٦٩ .

(٢) انظر المثل السائر ٢ / ٥ .

ويضم ٧٨ رسالة (١) .

بالاضافة الى رسائله تلك ،ألف عدة كتب منها المطبوع والمخطوط والمفقود ،منها :

أ — المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر طبع في أربعة أجزاء بمصر سنة ١٩٦٠ م ،وهو أهم الكتب التي ألفها ضياء الدين ،وقد قامت بسببه حركة نقدية في زمانه تشبه تلك الحركة التي قامت حول شعر المتنبي .. فقد خالف فيه كثيرا من الآراء السائدة كما تناول المشهورين من الكتاب واللغويين والبلاغيين بالنقد الجارح أحيانا ، وبسبب ذلك هبّ الأدباء وألفوا الكتب ، بعضهم يؤيده وبعضهم يرد عليه ،ومن الكتب التي ألفت في الرد عليه : الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد وهو ملحق بآخر الجزء الرابع من المثل السائر .

— ونصرة الثائر على المثل السائر لصلاح الدين الصفدي ت٧٦٤هـ، طبع سنة ١٣٩١ هـ.

ومن الكتب التي أشادت به ولم تصلنا :

— نشر المثل السائر وطي الفلك الدائر لأبي القاسم محمود بن الحسين ت سنة ٦٤٠ هـ (٢) رد فيه على ابن أبي الحديد (٢) .

(١) من مخطوطة نور عثمانية رقم / ٣٧٤٥ .
(٢) انظر نصرة الثائر ص ٤٦ .

ـ نزهة الناظر من المثل السائر لنجم الدين ابن اللبودي توفي بعد سنة ٦٧٠ هـ (١) .

ـ قطع الداير عن المثل السائر لعبد العزيز بن عيسى .

ـ الروض الزاهر في محاسن المثل السائر لمؤلف مجهول (٢) .

ويقول عنه الصفدي : " اشتهر بين أهل الانشاء اشتهار الليل بالكتمان والنهار بالانشاء ، وأولع به أهل الأدب في الآفـــاق ولع الكريم بالانفاق بل ولع الرقباء بالعشاق " (٣) .

ب ـ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، نشره المجمع العراقي سنة ١٩٥٦م (٤) .

ج ـ الوشي المرقوم في حل المنظوم طبع ببيروت سنة ١٢٩٨هـ .

د ـ الاستدراك في الرد على ابن الدهان طبع في القاهرة سـنـة ١٩٥٨م وهو في السرقات .

هـ ـ كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ، طـبـع ببغـداد سـنة ١٩٨٢م .

---

(١) انظر مقدمة نصرة الثائر ص ٢٦ وهناك كتاب بنفس العنوان لابن العطار انظر نصرة الثائر ص ٢٦ . الا أنه أبدل " من " ب " في " .

(٢) انظر كشف الظنون ٢/ ٣٧٥ و ٢/ ١٥٨٦ .

(٣) نصرة الثائر ص ٤١ .

(٤) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥/ ٢٧٣-٢٧٤ ، وقارنه بكتاب " ضياء الدين وجهوده في النقد " ص ٦٥ ومابعدها لشك المؤلف في نسبة بعضها لضياء الدين .

و — المفتاح المنشأ في حديقة الانشاء مخطوط بدار الكتب المصرية برقم / القاهرة ثان ٣٥/ ٣٦٦ ، ولدى نسخة مصورة منه .

وله عدة مخطوطات ذكرها بروكلمان في تاريخه .[1]

مذهبه الأدبي :

من يطالع آراء ضياء الدين في كتبه — وخاصة المثل السائر — في الصنعة البديعية والسجع والتكلف يظن أنه سوف يأتي بأسلوب جديد يخالف فيه كتاب عصره ، بل يخالف فيه أسلوب الأجيال التي سبقته منذ ابن العميد .

فقد سجل كثيرا من المآخذ على الأدباء ليس في عصره فحسب ، بل منذ القرن الرابع ، فقد عاب بعض عبارات الصابي المسجوعة ، وكذلك عاب كتابة الصاحب بن عباد[2] ، حيث آخذ الصابي على ما في بعض عباراته من الضعف والركاكة[3] .

كما انتقد ابن العميد وكتاب عصره لأنّ المعنى في السّجعتين المزدوجتين عندهم واحد ، وهذا خلاف ما تتطلبه البلاغة[4] ..

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥/ ٢٧٣—٢٧٤ .

(٢) انظر المثل السائر ١/ ٢٨٤ .

(٣) نفس المرجع ١/ ٣٣٢ .

(٤) نفس المرجع ١/ ٢٧٨ .

كما قال عن بعض عبارات أبي العلاء المعري « هذا من الغث البارد »(١) . كما تناول بالنقد مقامات الحريري وخطب ابن نباتة لاغراقهما في السجع الذى هو بمعنى واحد (٢) . وقال في بعض مقامات الحريري : « وكل هذا وان تضمن مشقة من الصناعة فانه خارج من باب الفصاحة والبلاغة »(٣) .

وهو وان رأيناه متأدبا مع كتاب القرن الرابع — يعتذر من مآخذته لهم ، وأنه لا يقصد أن يضع من قدرهم (٤) ، فانه يبدو قاسيا على معاصريه حيث يقول فيهم : « قد رأيت جماعة من متخلفى هذه الصناعة يجعلون همهم مقصورا على الألفاظ التي لا حاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها ، واذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أى وجه كان من الفثاثة والبرد ، يعتقد أنه أتى بأمر عظيم ، ولا يشك أنه صار كاتبا مفلقا »(٥) .

ويقول في موضع آخر : « وما رأيته من المدّعين لهذا الفن الذين حصلوا منه القشور ، وقصروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغثة التي لا حاصل وراءها » . . . واذا أنكر عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة ، وهدوا الى طريق المعاني يقولون : لنا أسوة بالعرب »(٦) واذا نظر الى كتاب زماننا وجدوا كذلك »(٧) .

---

(١) انظر المثل السائر ٣ / ٢١٥ .
(٢) نفس المرجع ١ / ٢٧٨ .
(٣) نفس المرجع ٣ / ٢١١ وقد رد عليه الصفدى في نصرة الثائر ص ٣٦٩ .
(٤) نفس المرجع ١ / ٣٣٢ .
(٥) نفس المرجع ٢ / ٦٣ .
(٦) نفس المرجع ٢ / ٦٥ .
(٧) نفس المرجع ٢ / ٦٣ .

ولأنه لا يعترف الا للقلة النادرة من البلغاء نراه يقول :
" ولو شئت أن تحصى أرباب الكتابة من أول الدولة الاسلامية الى الآن ،لما وجد منهم من يستحق اسم الكاتب عشرة لبعد منال النثر ووعورة مسلكه "(١) .

غير أننا يجب أن ندقق في هذه الآراء و نعرف رأيه في الصنعة البديعية جملة .. فهو مع هذا يقول : " المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع "(٢) .. " ألا ترى أن الكلام اذا كان مسجوعا لذّ لسامعه فحفظه واذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه في حالة السجع "(٣) .

فالحقيقة أن ابن الأثير لا يعترض على المحسنات البديعية جملة فقد أنشأ رسائله عليها .. ولكنه يطلب فيها الاعتدال وأن يكون اللفظ تابعا للمعنى ،لا العكس مع اختيار الألفاظ والتراكيب ،وأن تكون احدى السّجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها(٤) .

فابن الأثير اذا لم ينتقد أسلوب الكتاب المبني على الصنعة البديعية ،فهو موافق على أن الرسائل لا تخرج عن هذا الأسلوب ولم يدع الى كتابتها بالأسلوب المرسل .. وانما انحصرت موءاخذاته

---

(١) انظر المثل السائر ٤/ ٥ .
(٢) نفس المرجع السابق ١/ ٧٧ .
(٣) نفس المرجع ٢/ ٦٦ .
(٤) نفس المرجع ١/ ٢٧٥ ، ٢٧٨ ومابعدها .

في ايراد السجعتين المزدوجتين بمعنى واحد ، وللتلاعب بالألفاظ كأن تكون كلمة معجمة والأخرى مهملة ، كما في بعض مقامات الحريري[١] ، أو الخروج عن الذوق في استعمال المصطلحات ، كقول أبي العلاء المعري :
" حرس الله سعادته ما أدغمت التاء في الظاء ، وتلك سعادة بغير انتهاء "[٢] ، أو أن يكون المعنى تابعا للفظ كما هو الحال في أسلوب كتّاب زمانه .. ومع ذلك .. فلولا أنه التزم بأسلوب عصره في رسائله لذهبت الى رأى من رأى أنه جاء بمدرسة جديدة في الأساليب النثرية[٣] ، بناء على حملته التي رأيناها في كتبه النقدية على الكتاب ، ولخلو كتبه من تلك الصنعة .. فاننا حين نقرأ مؤلفاته لا نشعر أنه يهتم بالصنعة أدنى اهتمام .. بل نراه يركز اهتمامه في مناقشة القضايا والأفكار بأسلوب مرسل قوى رصين .. يذكرنا بأسلوب الجاحظ .

ومن يقرأ كتب ابن الأثير لا يصدق أنه من كتاب القرن السادس الهجرى .. فلم يلتزم بأسلوب عصره المسجوع المتكلف كأسلوب العماد في كتبه ، ولم يكن أسلوبا مرسلا ضعيفا كأسلوب معاصره أسامة بن منقذ في كتبه .

---

(١) انظر نصرة الثائر ورد الصفدى عليه ص ٣٦٩ .
(٢) المثل السائر ٣ / ١٥
(٣) انظر أدب الدول المتتابعة ص ٨٣٦ ، ٨٣٧ .

واذا كان لابن الأثير فضل على النثر العربي فقد جاء من أسلوب مؤلفاته التي أحدثت حركة نقدية ونشاطا ثقافيا أحيا به أسلوبا طغى عليه أسلوب الرسائل الذى انتقل الى التأليف .. وللمحاته النقدية الذكية التي حكّم فيها ذوقه العربي المثقف .. ولمآخذاته على كتاب عصره الذين تنافسوا الصنعة اللفظية ونسوا المعاني .

ولكن لابن الأثير خيب ظننا حين غلبه طوفان الصناعة اللفظية وجرفه في تياره — حينما نطالع رسائله — وان كانت صنعته أخف ثقلا وأقل اغراقا حتى من صنعة أديب عصره القاضي الفاضل .

فصنعته صنعة العالم المثقف الذى يتصرف بها تصرف الخبير بمواقعها .. ولا غرو فقد رأينا الرجل محيطا بعلوم البلاغة يحكّم ذوقه ويسترشد بعلمه في استخدام أقسامها ..

وقد أدرك الرجل بذوقه أن أسلوب الرسائل والمقامات منذ القرن الرابع قد انحرف عن مجراه الطبيعي ، من الوضوح وقوة الأفكار وسلاسة الأسلوب ووضوح العبارة .

الا أنه اكتفى بتلك المآخذ الجزئية .. ولم يكن ذلك لتهيبه أو عدم جرأته ، فقد رأيناه يتعرض لنقد الفحول من الأدباء ويعترض على العلماء ، ويعرّض بضعف عقول بعضهم [1] .. فهل يجوز لنا أن

---

(١) انظر المثل السائر ٢ / ١٠٨ وفيه يقول عن ابن جني " ما كنت أظن أن أحدا من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل ".

نعزو عدم صدعه برأيه في الصنعة كلها .. الى أن هذا الطابع الذى امتد اكثر من قرنين قد تمكن من نفوس القوم الذين تدرّبوا عليه منـــذ نعومة أظفارهم ، و تحكم في أذواقهم ،حتى اذا أدرك أحدهم بسليقته و بعقله الباطن ما في هذا الأسلوب من التكلف والقيود والتصعيب ، لم يجد منه مخرجا بدليل أنه ساد الى عصر النهضة عبر قرون طويلة ..

ولو أنه تحرر من ذلك الأسلوب في رسائله كما فعل في كتبـــه لأحدث ضجة عظيمة وصدع برأى جديد ـــ يستحق معه أن نقول : انه حمل راية التجديد في أساليب الرسائل بل في أساليب النثر العربي كله ولو فعل فلربما استطاع أن يغلب ، و يغير ذلك الأسلوب الذى صعب على أى كاتب أن يخرج عنه ذلك الأسلوب ، الذى طبع الرسائل بطابع واحـــد حتى ليصعب أن نفرق بين أسلوب كاتب وآخر بسبب كثرة تلـــك المحسنات البديعية التي طغت على كل رسائل الكتاب ،حتى خرج عـــن كونه احدى وسائل التعبير وغدا مظهرا من مظاهر العبث اللفظي .

و يمكن أن نلحظ الفرق بين أسلوب ابن الأثير وأسلوب معاصريه الفاضل والعماد ،بأنه أقل الحاحا على الصنعة منهما ، ولم يكلـــف بالجناس والتوريـــة كلفهما .. ولم يوغل في استخدام الصنعـــة والبديـــع ايغالهما .. فهو لا يغفل المعنى وان اعتنى باللفظ مع قصر سجعاتـــه و قلة تكرر المعنى بتكرر الأسجاع ...

وقد أولع بمعارضات الفاضل [(١)] ،وكان يحاول أن يتغلب عليه ،

---

(١) انظر رسائل ابن الأثير ،نشر نورى القيسى ،الرسائل رقم ٣ ،٤ ، ٥ ، ٦ .

ولكنه حصر موضوع المغالبة في الصيغ والأساليب ، التي تعارف عليها القوم فلم يأت في ذلك بجديد ، اذ اتبع نفس الأسلوب واستخدم الصنعة والمحسنات بنفس الطريقة ، وربما فضلنا بعض رسائل ابن الأثير لخفة صنعته فيها ، اذا قارناها برسائل الفاضل .

فمن مقدمة رسالة له في معارضة للفاضل يقول : " خلد الله سلطان الديوان العزيزي النبوي ، وجعل أيام دولته أترابا ، ومناقب جدها هضابا ، وزادها على مرور الأيام شبابا ، وأوسعها توشية واذهابا ، اذا أوسع غيرها تلاشيا وذهابا ، ومنحها في الدنيا والآخرة عطاء حسابا ، ومثّل جدودها في عيون الأعداء شيئا عجابا ، وأراهم منها وراءهم في اليقظة ارهابا وارعابا ، وفي المنام ابلا صعابا ، تقود خيلا عرابا "(١) .

وقد علق الصفدي على ذلك بقوله : " ان ابن الأثير — لما أنشأ هذا الكتاب — قعد في بيته وتأنّى وتأنق ونقّى ونقّح وكان في ذلك كالحريري في مقاماته ، فانه عملها في بيته بمسودات واختيارات ومطالعات ، والقاضل أصدر ذلك الكتاب وهو ابن يومه بل ابن ساعته "(٢) .

وفي هذا اعتراف من الصفدي ضمنيا باجادة وتفوق ابن الأثير في تلك الرسالة .

---

(١) المثل السائر ٢/ ٣٧٥ .
(٢) نصرة الثائر ص ٣٠٤ .

وهاك نموذجا لكتابته التأليفيــة المرسلة :

" اعلم أن أصل البديع : النادر الغريب ،ومنه "بديع السموات"(١)
لأنه أنشأهن على غير مثال سابق ، والبديع من الشعر ما سبق اليه الشاعر ،
ولم يسبق الى نظيره أو ما يقرب منه أو ما يدل عليه فلذلك سمى علماء البيان
هذه الأنواع بأسماء ، وأطلقوا لفظة البديع على الجميع نظرا الـــــى
الأصل وهو في الشعر نبذ تستحسن ،ونكت تستطرف مع القلة ،وفي
الندرة ،فاذا كثر دل على الكلفة ، ولا يحسن أن يكون الشعر كله استعارة
وبديعا كشعر أبي تمام ،ولا أمثالا وحكما كشعر صالح بن عبد القدوس .
وهذه الأشياء للشعر كالحلي للانسان ، فلا ينبغي أن يعرّى منهـــــا
كثير من شعر أشجع السلمي .. على أنه لا بد لكل شاعر من طريقــــة
تغلب عليه ،وينقاد اليها طبعه ،كأبي نواس في الخمر ، وابن المعتــز
في التشبيه ، وديك الجن في المراثي ، والبحترى في اللطف ، والصنوبرى
في ذكر الطير والنّـور ،وأبي الطيب في الأمثال وذم الزمان ، وأما ابن
الرومـي فأولى باسم شاعر ،لكثرة اختراعــه ، وحسن افتنانه ، وقد غلـب
عليه الهجاء حتى قيل أهجى من ابن الرومي ، وليس هجاؤه بأجـود من
مدحـه ولا أكثر ،ولكن قليل الشر كثير"(٢) . وربما سجع في بعض مقدمات
كتبـه كمقدمة كتابه " المفتاح المنشا " اذ يقول : " اعلم أيها السائل
وفقك الله ،وأرشدك ،وعلمك وعرفك طريق المحامد ، وسددك : أن

---

(١) سورة البقرة آية ١١٧ ،والانعام آية ١٠١ .
(٢) كفاية الطالب ص ٤٠ ، ٤١ .

أشرف صناعات الممالك وأسناها ، وأفضل درجات المملكة وأعلاها ، وأميز رتبها وأبهاها ، منازل الانشاء ، الجامعة للأشياء ، الذى له قوام الملك ، وضبط قواعده ، والكف لكف النسيان بساعده وهو لها اليد اليمنى التي بها الأخذ والعطاء ، والمنع والاقصاء والقبض والبسط والوصل والفض ، والسر والجهر ، والنهى والأمر ، وهو على كل حال أس النظام ، وحفظ الأنام ، فاذا كان الأمر على ما قلناه ، والحال على ما نبذناه ، فيجب أن نختار لهذه الصناعة ذا العقل الوافر ، والهيكل العامر ، الحسن الأخلاق ، الطيب الأعراق ، الصادق في الفعال ، المحقق في الأفعال والفعال ميت الأسرار ، حي الأفكار »(١) . غير أن سجعاته كما ترى قصيرة رشيقة .. والمعنى واضح غير مكرر الا أن هذا لا ينطبق دائما على أسلوب رسائله .. انطباقا كاملا ففي رسائله تكلف وصنعة غير أننا نرى أنه أقل من صاحبيه فيهما .

---

(١) ص ٢٠١ .

الباب الثالث

الرسائل الديوانية

ويشتمل على الفصلين التاليين :-

الفصل الأول :-

ألوان الرسائل الديوانية ونماذجها.

الفصل الثانى :-

نظم الرسائل الديوانية بين العهدين الفاطمى والأيوبى .

الفصل الأول

ألوان الرسائل الديوانية ونماذجها.

الفصل الأول

ألوان الرسائل الديوانية ونماذجها

تعددت ألوان الرسائل الديوانية بتعدد أغراضها وموضوعاتها ، كولاية العهد ، والهدنة ، والمبايعات ، والأمان ، والتهاني ، والبشارة بالفتح ، والعهود ، والمنشورات ، والمقاطعات .. الخ .

وقد كانت أغراضها متشعبة ، اذ تعد في هذه الفترة وسيلة الاعلام الأولى للدولة إن لم تكن الوحيدة في هذا المجال ؟ .. فمنها الموضوعات السياسية والحربية ، والاجتماعية ، والادارية ، والمالية .

كما كانت تعبر عن المناسبات الخاصة ، والاحتفالات العامة .
ومدارها خدمة الدولة ، والدعاية لها ، من اقناع أو تحريض أو تهديد ، أو اشادة ، ولهذا فهي غالبا تخاطب في الناس عقولهم ، ولا تغفل عواطفهم ... وقد أورد القلقشندى في كتابه (صبح الأعشى) — وهو أوسع مرجع عن ديوان الانشاء — ثلاثين نوعا من هذه المكاتبات . غير أنه عدّ منها الخطب ، والمقامات ، وغيرها مما يعد أجناسا أدبية تختلف عن الرسائل ، كما أن بعض التسميات التي ذكرها تتداخل مع بعضها .. ولا يهمني هنا استيعاب تلك الأنواع من الرسائل واستقصاء ما ورد من اصطلاحات لأنواعها ، بقدر ما يهمني ايراد نماذج لأهم أنواعها والتي تعدّ صيغا أدبية جميلة ، تعبر عن مظاهر الحياة في ذلك الزمن ، لأهم فئة من الناس ، وهم السلاطين ، والحكام ،

ومن يدور في فلكهم ، وما يقومون به من مهام في مجالات الحياة .. وقد وقفت طويلا أمام ما اجتمع لديّ من تلك الرسائل ، ليس لقلتها — فهي كثيرة كثرة تفوق — في رأيي — ما قيل من شعر في هذه الفترة .. وقد توفر لي منها مجموعة وافرة سواء ما جمعته من المراجع المتعددة أو من المخطوطات التي أمدتني بمجموعة أخرى — بل سبب وقوفي يكمن في الاختيار .. اذ هي تتراوح بين الجيد المحلق في سماء الخيال والجمال ، وبين المتسفل المتردّى في وحول الصنعة والتكلف .. لا تشعر من خلاله بحرارة عاطفة ولا بسمو معنى ولا بجودة فكرة ، ومنها ما هو بين بين .

وحيث أن رغبتي اعادة بعض الاعتبار لأدب هذه الفترة بعد أن سلبه اياه بعض المؤرخين (١) ، واعطاؤه بعض الاهتمام ، فقد توخيت النماذج الجيدة التي لعلها تفوز باعجاب القارئ ، وكان يمكنني ذلك لولا انى اصطدمت بأصلين من أصول البحث العلمي ، عز عليّ أن أكسرهما :

---

(١) يقول صاحب كتاب " الأدب المصري من عهد الفاطميين الى اليوم " : " على أن الأدب المصري على تفاهته وقلة جودته وندرة جدته في عصر الدولتين (الفاطمية والأيوبية) قد حفظ للغة رونقها وبلاغتها وبقاءها في مصر والشام ص ١٨— ١٩ .

الأول : المنهجية والترتيب في البحث ، فلو أوردت النماذج من غير تبويب ،ولا منهج لعدّ هذا مأخذا عليّ .

الثاني : الموضوعية والصدق باعطاء صورة صادقة لأدب تلك الفترة ـ اذ كيف أختار الأحجار الكريمة من الأرض المتعددة الأحجار وأزعم للناس ان هذه نماذج لأحجار تلك الأرض .

فاضطررت أن أبوب هذه النماذج حسب أغراضها ، وتوخيت ألا أقتصر على رسائل المشهورين من الكتاب ، وأن تكون ممثلة لكتاب مصر والشام . وقد فوّت عليّ ذلك حرية الاختيار لأنّ بعض الأغراض محصورة النماذج . . وقد توفر لدى نماذج لا تنضوي تحت تلك الأغراض التي قسمت الرسائل عليها ، فاخترت بعضها وذيلت بها هذا الفصل ، من غير أن أتقيد باصطلاحات المؤرخين في تسمية أغراض تلك الرسائل . . وفيما يلي نماذج من تلك الرسائل مقسمة حسب أغراضها :

كتب الأمان :

الأمان : أن يكتب الحاكم أو السلطان كتابا الى الخارج عن طاعته يؤمنه فيه على حياته ، والأصل فيه ، أن يستجير الحربي ،ويدخل دار الاسلام مستأمنا (١) .

ومن ذلك الأمان الذى أصدره الحافظ لدين الله الفاطمي : ٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ لبهرام (٢) الأرمني ،حين أظهر الطاعة ، وكان هاربا

---

(١) انظر أساس البلاغة ص ٢٢ .
(٢) انظر موسوعة التاريخ الاسلامي جـ٥/١٤٤ .

بعد عزله عن الوزارة .

" هذا أمان أمر بكتبه عبد الله ووليّه ... الحافظ لدين الله ٥٢٤–٥٤٤ هـ للأمير المقدم ... بهرام الحافظي ،فانك آمن بأمان الله تعالى ، وأمان أمير المؤمنين ،على نفسك ومالك ، وجميع حالك ، ألاّ ينالك سوء ولا يصل اليك مكروه ،ولا تقصد باغتيال ،ولا يخرج بك عن عادة الاحسان والانعام ،والتمييز والاكرام ، وحراسة النفس ، والصون للحريم والأهل ، والرعاية في القرب والبعد ، ما دمت متحيزا الى طاعة الدولة العلوية ، ومتصرّفا على أحكام مشايعتها ،مواليا لمواليها ،ومعاديا لمعاديها ، ومستمرا على مرضاة اخلاصك ، فثق بهذا الأمان ،واسكن اليه واطمئن الى مضمونه ، والله بما أودعه كفيل ، وعليه شهيد ، وما توفيق أمير المؤمنين الا بالله ، عليه يتوكل واليه ينيب "(١) .

ونلاحظ على هذا النص خلوه من التكلف ،ومن الاعتناء بالمحسنات البديعية ـ على خلاف مذهب أدباء الفترة ـ ووضوح المعنى وسهولة التعبير الا أنه لا يرقى الى المستوى البلاغي الذى رأيناه في الأمان المشهور الذى كتبه ابن المقفع على لسان المنصور لعمه عبد الله بن على (٢) .

كما نلاحظ فيه اعتقادات الفاطميين من أن جدهم الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر الصلاة على علي كرم الله وجهه ...

---

(١) صبح الأعشى ١٢/ ٣٢٥ .
(٢) انظر الجهشيارى ص ١٠٤ .

التهاني والبشارة بالفتح :

أما التهنئة فهي غرض قديم استخدمه الشعراء ، كما استخدمه الكتاب ، وبخاصة في الرسائل الاخوانية .. واعتنت به الدواوين الرسمية .. لتهنئة الخلفاء والأمراء والولاة بالمناسبات السعيدة ، والبشارة بالفتوح نوع من التهاني الا أنها تقتصر على تهنئة الخليفة أو الوالي بالانتصارات الحربية ..

وقد كثرت في عصر الحروب الصليبية — وبخاصة أيام الدولة الأيوبية — رسائل التهنئة أو البشارة بالانتصارات .. التي توالت على المسلمين ، ولهذا يعد هذا الغرض أهم أغراض الرسائل الديوانية في تلك الحقبة من الزمن ، ومجالا واسعا لتسابق الكتاب والشعراء ، للتعبير عن نشوة النصر ، وتصوير المعارك بأبلغ قول وأجمل أسلوب .

وتلك الانتصارات لم تكن كأي انتصار ، بل كانت بعثا جديدا لقوة الاسلام واحياء للكرامة العربية الاسلامية ، ضد عدوّ شرس قوى أذاقهم الذل ، واحتل أجزاء عزيزة من بلادهم وجثم على صدورهم عشرات السنين ، يسلب وينهب ، ولا يجد من يوقفه عند حده .. فلما أراد الله بهذه الأمة أمر رشد ، هيأ لها القادة العظام الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية تحرير البلاد ، والانتصار للمسلمين أمثال نورالدين زنكي ، ومن بعده البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي بعد أن يئس المسلمون من استرداد بلادهم ، وأنساهم القهر كل فرحة ، ولو كانت فرحة العيد ..

فلما است دار الزمان دورته وعادت الكرّة على أعدائهم وأذن الله بنصرهم ، وبلغ من عظم تلك الانتصارات أنهم كانوا يأسرون من أعدائهم عشرات الألوف ويبيعونهم بثمن بخس حتى وصلت قيمة الأسير الصليبي ثلاثة دنانير ، وكانوا " يبيعون الأب وزوجته وأبناءه جملة واحدة بثمن لا يتعدى ثمانين دينارا " (١) أنستهم فرحة النصر كل فرحة سواها وصغر في أعينهم كل سرور الى جانبها ، وهذه رسالة من القاضي الفاضل للسلطان صلاح الدين يهنئه فيها بانتصار المسلمين في معركة حطين المشهورة سنة ٥٨٣ هـ ، اذ لم يكن الفاضل حاضرا في تلك المعركة ، فلما علم بما فتح الله على المسلمين ، كتب له يقول :

" ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيم ، وأنه كما قيل أصبحت مولاي ومولى كل مسلم وأنه قد أسبغ عليه النعمتين الباطنة والظاهرة ، وأورثه الملكين ، ملك الدنيا وملك الآخرة ، كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس الى الآن لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من خدودها ، وكلما فكر الخادم أن البيع (٢) تعود وهي مساجد ، والمكان الذى كان يقال فيه : ان الله ثالث ثلاثة (٣) ، يقال فيه اليوم : انه الواحد . جدد لله شكرا تارة يفيض من لسانه ، وتارة يفيض من جفنه .

تلك المكارم لا قعبان من لبن وذلك الفتح لا عمان واليمن
وذلك السيف لا سيف ابن ذى يزن " (٤)

---

(١) انظر الروضتين ٢ / ٨٢ .
(٢) جمع: بيعة بكسر الباء وهي متعبد النصارى . . القاموس المحيط
(٣) يشير الى عقيدة النصارى الذين يقولون زورا وبهتانا : ان الله ثالث ثلاثة .
(٤) الروضتين ٢ / ٨٢ــ٨٣ والبداية والنهاية ١٢ / ٣٢٢ .

وكتب اليه أخرى يهنئه بفتح "حصن برزية" :

" وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزية ، وهو الذى تضرب به الأمثال ، وتضرب عنه الآمال ، ويكاد يحرن اذا قادت أيدى السلاسل أزمة الجبال ، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال ، بل من خطوات الآجال ، وكان للكفر درعا حصينة لما لما كانت تهزأ بالنصال ، فعظمت المنة السلطانية عند أهل الاسلام ، ودعوا بأن يفلج الله بحجة (١) سيفه ألد الخصام ، وقد كان الناس يمدّون مواهبه مما لا تحصى ، فقد تحققت بها فتوحاته فهي لا تحصر ، فمرحبا بفتوح يقول غائبها : الحمد لله وحاضرها اللهأكبر وما بقي الملوك يستبطىء خبر أنطاكية ، فقد ألقت الأرض أفلاذها ، وقد ولدت لـكرمه ذهبها ولنصره فولاذها .

ولم نر في نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيهة ، ولا نعرف بعدها للزمن سيئة ولا كريهة . الا أنّا نرجع في معرفة قدرها ، واخلاص شكرها الى ما رضيه الله شكرا ممن نجّاه من أهوال يوم القيامة ، وأدخله دار المقامة ... " وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها " (٢) وفتوح مولانا من تلك النعم وان قصرنا في شكرها فما نقصر في ذكرها ، وان عجزنا عن حصرها فما نعجز عن المعرفة بفضل قدرها ...

---

(١) يفلج يغلب أو يملك .. وبحجة : زدت الباء لأنّ الكلمة بدونها يختل معناها .
(٢) سورة ابراهيم آية : ٢٠ .

كادت العيون قبل وقوعها تلحظها ، وكادت المنابر لما يدرس[1] عليها من كتبها تحفظها ، فما يشرح صدر[2] من خبرها فيسمعه ذو صدر الا انشرح ، وما يسأل الناس هل فتح الملك الناصر ، وانما يقال : ما اسم البلد الذى فتح ؟ فمن عند مولانا الجنان ، ومن عندنا اللسان ، وعليه الجهد وعلينا الحمد ، فهي فتوح كثمرات الجنة "لا مقطوعة ولا ممنوعة"[3] ، وأعمالها المبرورة الى الله مرفوعة"[4] .

وقد أحسن الفاضل ـ في القطعة الأولى ـ تصوير سرور المسلمين بهذا الفتح المبين ، بادامة السجود لله شكرا لهذه النعمة وانهمار الدموع من شدة الفرح .

وجاء استشهاده بالشعر ، كأنه لم يقل الا لهذه المناسبة ولا يخفانا تكلّفه للسجع والطباق والجناس .

فما أتى بجملة : " وأنه كما قيل أصبحت مولاى ومولى كل مسلم" الا ليزاوج بها العبارة السابقة ويحافظ بها على السجع فلم تفد المعنى ... بل هي حشو .. وذلك ما نلاحظه في الرسالة الثانية من الجملة التي تنتهي "بلا تحصير" ، والجملة التي تنتهي بـ " الله أكبر".

---

(١) يدرس .. من الدراسة بمعنى المطالعة والمذاكرة ، انظر أساس البلاغة من قوله تعالى "ودرسوا ما فيه" سورة الأعراف آية ١٦٩ .
(٢) أراد صدر الكتاب .
(٣) سورة الواقعة آية : ٣٣ .
(٤) الروضتين ٢ / ١٣١ - ١٣٢ .

بالاضافة الى طول جملة السجعة .. واذا طالت الجملة المسجوعة تفككت واسترخت .

غير أن هذه الطريقة أصبحت ديدن كتاب العصر والميزة التي يعدونها ذروة البلاغة ، ومفخرة الكتابة .. مع أن الفاضل من أقدر كتاب عصره على استعمال تلك الصنعة ، اذا طاوعته القريحة وأسعفته العاطفة ..

كقوله : فقد ألقت الأرض اليه أفلاذها ، وقد ولدت لكرصه ذهبها ولنصره فولاذها — وقوله : فان قصّرنا في شكرها فما نقصر في ذكرها .

ومن رسائل البشارة بالفتح ،تلك الرسائل التي بعثها صلاح الدين الى الخليفة العباسي في بغداد يبشره بفتح بيت المقدس — وهو أجل الفتوح وأعظمها ،لأنّ فتحه يعني الانتصار النهائي على الصليبيين .. فمن فتحه هان عليه فتح غيره — وقد تسابق الكتاب في صوغ وتدبيج عشرات الرسائل — الى خليفة بغداد وغيره — كالفاضل ،والعماد ،وابن الأثير . وقد ذكر العماد أنه " كتب في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة كل منها بمعنى بديع وعبارة "(١) .

كما انبرى ابن الاثير لمعارضة رسائل الفاضل ،اذ فاته شرف الكتابة عن صلاح الدين ، وقد ادعى فضل السبق عليه (٢) .

---

(١) انظر الروضتين ٢/ ٩٦ .
(٢) انظر المثل السائر ٢/ ٣٧٤ .

وقد بلغت تلك الرسائل من الطول حدا يصعب معه ذكرها كاملة ..

وكان العماد حاضر الفتح ولعل كتابه أول كتاب يصل الى بغداد وفيه يقول :

" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا " (١) . الحمد لله الذى أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف .. وذخر هذا الفتح الأسنى، والنصر الأهنى للعصر الامامي النبوى الناصرى .. وهذا الفتح العظيم والنجح الكريم قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية على حسرة تمنيه، وجدة ترجيّه، ووحشة اليأس من تسنّيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم .

فالحمد لله الذى أعاد القدس الى القدس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالأنس، وجعل عزيومه ماحيا ذل أمس، وأسكن الفقهاء والعلماء بعد الجهال الضلال من البطرك والقس (٢)، وعبدة الصليب، ومستقبلى الشمس (٣)، وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين، وقطع دابر القوم الظالمين (٤) ... وهذا الفتح قد أقدره الله على اقتضاضه

---

(١) سورة النور آية ٥٥ .

(٢) البطرك والقس من ألقاب علماء النصارى .

(٣) يقصد توجه المسيحيين في صلاتهم تجاه الشرق

(٤) من قوله تعالى " وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" سورة الأنعام آية ٤٥ .


جامعة أم القرى مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
المكتبة المركزية مكة المكرمة
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

بالحرب العوان ،وجعل ملائكته المسومة له من لعيز الانصار وأظهر الأعوان، وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد (١) ،وقمع من كان يقول : ان الله ثالث ثلاثة بمن يقول " هو الله أحد " ، وأعان الله بانزال الملائكة والروح ،وأتى بهذا النصر الممنوح الذي هو فتح الفتوح .. وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ ،نظما و نثرا ،وعبد الله في البيت المقدس سرا وجهرا ، وملكت بلاد الأردن و فلسطين غورا و نجدا وبرا وبحرا ..وأبى الخادم الا استباحة أموالهم وأرواحهم ،وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم، (٢) وأنه لا بد من تطهير الأرض المقدسة من رجس دمائهم ،وقتل رجالهم و سبي ذراريهم ونسائهم ،ولما أيسوا من النجاة و فتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة ،خوّفوا بقتل الأسارى المسلمين ـ وهم أكثر من ثلاثة آلاف ـ وأنهم يفسدون جميع ما في البلد من مال و بناء بهدم ،واحراق واتلاف. وعرف أن جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع ،وأنهم تدعوهم فظاظتهم الى كل أمر فظيع ،وبذلوا اطلاق الأسرى ،وشرطوا حمل مال الغدا ، وما زالوا يستهلون ويضرعون ،ويذلون و يخشعون ،حتى استقر الأمر أنهم يفادون". (٣)

و نلاحظ من هذا النص زيادة كلف العماد بالجناس خاصة من بين

---

(١) اشارة الى أن العيد الاسبوعي للمسلمين الجمعة وأن النصارى يتخذون الأحد عيدا لهم فكنى عن النصارى بيوم الأحد .

(٢) الاجتراح : الفعل والأثر،من قوله تعالى :".. ويعلم ما جرحتم بالنهار" سورة الأنعام آية ٦٠ . والاجتياح : الاستئصال والهلاك ـ القاموس المحيط .

(٣) الروضتين ٢/ ٩٦ — ٩٧ .

أنواع البديع ، بالاضافة الى السجع .. كقوله : القدس ، والقدس ،والرجس، والنفس ،والانس ،وأمس ،والقس ،والشمس . ونلاحظ أنه عدل عن قوله " وجعل عزيومه ماحيا ذل أمسه " الى " ذل أمس " من أجل السجع ليكون الجناس أكمل .

وكما نجد عنده سجعا قصيرا رشيقا كقوله : " غورا ونجدا وبرا وبحرا " ،نجد عنده السجع الطويل كقوله : " خوفوا .. الى قوله ألاف " وفي السجعة الثانية :" وأنهم يفسدون " الى قوله : " واتلاف " وهو من السجع البارد .

ولنا أن نتساءل من وجهة تاريخية ،هل ما فعله صلاح الدين من أخذ الفدا من الصليبيين خيرا أم أن قتلهم وسبي نسائهم كان أقطع لدابرهم ؟ خاصة أنه قد ذكرلنا التاريخ أنهم حينما هجموا على القدس سنة ٤٩٢ هـ في حملتهم الأولى _ قتلوا من المسلمين مائة ألف وأسروا منهم مثلهم (١) ... فكان حقهم أن يدانوا بما دانوا ...

ومن رسالة للقاضي الفاضل في نفس المعنى :

" كتب الخادم هذه الخدمة ، تلوما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه العزمة .. ولقد صارت أمور الاسلام أحسن مصيرها واستتبت عقائد أهله على بصائرها ،وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط،

---

(١) انظر الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ص ٦٥ ،وأنظر تاريخ الخلفاء ص ٤٢٧ وفيه أن عدد القتلى سبعون ألف..

وصدق الله أهل دينه ،فلما وقع الشرط حصل المشروط (١) ،وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه ،والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه .. وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة ،فأولجت السيوف الى الآجال وهي نائمة ... واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا (٢) ، وظفروا يقظة بما لم يصدّقوا أنهم يظفرون به طيفا ،على النأى طارقا . واستقرت على الأعلى أقدامهم ،وخفقت على الأقصى أعلامهم ... وكان الخادم لا يسعى الا لهذه المنقبة العظمى ،ولا يقاسى تلك البؤسى الا رجاء هذه النعمى ... ومن طلب خطيرا خاطر ،ومن رام صفقة رابحة تجاسر ... وكتاب الخادم هذا ،وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت (٣) قناته شفقا ،وطارت فرقه فرقا ،وفلّ سيفه ، فصار عصا ،وصدعت حصاته ،وكان الأكثر عددا وحصى (٤) .. وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ،وغضت عينه ،وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ،... وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى ، أو راعفة بالمنون ،وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث (٥) ،والرب المعبود الواحد ،وكان عندهم الثالث فبيوت الشرك مهدومة ،ونيوب الكفر مهتومة (٦) ...

---

(١) هذه من اصطلاحات العلوم التي أغرم بها القوم وظنوا أنها تزيد أسلوبهم جمالا وقوة .

(٢) من أبق العبد اذا هرب .

(٣) تشظى العود : تشقق .. أساس البلاغة .

(٤) كناية عن الكثرة وفي المثل : هم أكثر من الحصى .. أساس البلاغة .

(٥) الطمث : الافتضاض ،يقول تعالى " لم يطمثهن قبلهم انس ولا جان " سورة الرحمن آية ٥٦ .

(٦) الهتم : انكسار الثنايا من أصلها .

لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة (١) ،ولا في فناء الأفنية لهم نصرة .
وقد " ضربت عليهم الذلة والمسكنة " و بدل الله مكان السيئة الحسنة (٢)
و نقل بيت عبادته من أيدى أصحاب المشأمة الى أيدى أصحاب الميمنة (٣) ،
وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركه ،وأنجده بملائكته
فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ،وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة اللـه
كـفر . . . فكم أهلـةّ سيوف تقارضـن الضراب بها حتى عادت كالعراجين (٤) ،
وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين . . وأسر الملك وبيده
أوثق وثائقـه ،وآكد وصلة بالدين و علائقـه ،وهو صليب الصلبوت ،وقائـد
أهل الجبروت .

و في هذا اليوم أسرت سراتهم ،وذهبت دهاتهم (٥) .

ولا يخفى ما حشد فيها الفاضل من الاستعارات والصيغ البديعية ،
واحتفل بالسجع والجناس خاصة . . و نراه يستجلب السجع للجملة الأولى
من أجل سجعة الجملة الثانيـة كقوله : " أضحت الأرض المقدسة الطاهرة ،

---

(١) عصرة : نجاة .
(٢) الآية : " ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة " سورة الأعراف آية ٩٥ ،
والتي قبلها البقرة آية ٦١ .
(٣) أصحاب المشأمة : كناية عن الكفار النصارى وأصحاب الميمنة كنايـة
عن المسلمين .
(٤) مفرده عرجون وهو أصل عذق النخل ، قال تعالى ".. حتى عـاد
كالعرجون القديم " سورة يس آية ٣٩ .
(٥) انظر الرسالة بتمامها في الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ص١٥-٣٤ ،
وفي كتاب من ترسل القاضي الفاضل مخطوط ص١٠٣ في أربع عشرة
صفحة وفي صبح الأعشى ٦/ ٤٩٦ ، ٨/ ٤٠٧ ،وفي وفيات الأعيان
٧/ ٨٠ وانظر الرسالة أيضا في مخطوطة المختار من انشاء الفاضـل
مع اختلاف في بعض كلماتها وطولها ص ٥٥ .

وكانت الطامث ،والرب المعبود الواحد وكان عند هم الثالث ، فما جاء بكلمة " الطامث" الا لتوافق " الثالث ".

كما دفعه اصطياد السجع الى تكرار المعنى في أكثر من عبارة .. ليس لتوضيحه أو تأكيده ، بل لأنّ السجعة لا تواتي أحيانا الا بتكرار المعنى .. كقوله : " ومن طلب خطيرا خاطر ،ومن رام صفقة رابحة تجاسر " و " من سما لأنّ يجلّى غمرة غامر " ولا يشفع له ايرادها على شكل أمثال و قصر السجع فيها عن ما تحدثه من املال . ونحن نقرّ أن تأدية المعنى الواحد بطرق من البيان مختلفة ،من البلاغة ،غير أن تلك الطرق يقصد بها البلاغيون علم البيان .. لأنّ في الاستعارة والمجاز خيالا وصورا ، ومتعة عقلية لا تحدثها صيغ البديع الذى اتخذه كتاب ذلك العصر وسيلة لتجميل معانيهم وتلوينها . ويظهر أن السجع يؤدى الى الاطالة بتكرير المعاني ولذلك يمكننا أن نحذف أكثر من نصف الرسالة دون أن نخل بالمعنى .. بل لعل اختصار بعض جملها يجعل المعنى أكثر فهما ووضوحا .

وقد اتخذ من حل آيات القرآن وسيلة لتحلية كتابته : " وبدل الله مكان السيئة الحسنة " ، " وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة " ؛ " ومن أيدى أصحاب المشأمة الى أيدى أصحاب الميمنة ".

والرسالة بعد ذلك ، حافلة ببعض الصور البلاغية الجميلة وبخاصة في وصف هزيمة العدوّ : " تشظت قناته شفقا ، وطارت فرقه فرقا ،وفل سيفه فصار عصا ، وجدعت أنوف رماحه .. " وهي قدرة خيالية بارعة حينما يستخدم المجاز ويتكئ عليه ،فاذا ابتعد عنه واقتصر على المحسنات

... استمد قليلا من المعنى ، وظهرت صورة اللفظ حاجزة دونه .
ولتكون الصورة أكمل ، نورد نموذجا من رسالة ابن الأثير التي عارض بها رسالة الفاضل في نفس المعنى ، وقد أكون أكثرت النماذج وأطلتها في هذا الغرض ، وفي هذا الحدث بالذات ، وعذري أن أهمية الحدث تستحق ذلك ، وقد استأثرت برسائل كثيرة كما سبق أن ذكرت ، ثم أن هذه الرسائل هي لفرسان الأدب الثلاثة في عصرهم ، وقد شغل بها النقاد والمؤلفون كثيرا .. يقول ابن الأثير :

" خلد الله سلطان الديوان العزيزي النبوي .. وجعل أيام دولته أترابا ، ومناقب مجدها هضابا .. وقيض الله لها من الخادم وليا يوصل يومه في طاعتها بأمسه ، ولا يرى الا ومن نفسه — في خدمتها — رقيب على نفسه ، وطالما سعى بين يديها بمساع تفض بأخبارها محافل القوم ، ويقال له فيها ، ما ضرك ما صنعت بعد اليوم (١) .. وقد سلفت منها آيات تتماثل في أشباهها وأضرابها ، واستولت لها الآن واحدة تدعى بأم كتابها ، وهي فتح البيت المقدس الذي فتحت له أبواب السماء ، وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء ، واسترد حق الاسلام وطالما سمت الهمم في طلبه بالزاد والماء ...

---

(١) يشير الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه " ما على عثمان ما عمل بعد هذه شيء " ، وذلك أن عثمان رضي الله تعالى عنه تصدق بثلاثة مائة جمل بأحلاسها يوم جيش العسرة ، تاريخ الخلفاء ص ١٥١ .

ولما شارفه نظر الى ظلة من الظلل ،ورأى بلدا قد استقر على متن جبل ، مثل الجبل ، ويطيف به واد تستهزىء صمته بنوب الدهر ،وقد انعطف على جوانبه انعطاف الحبوة بالظهر . . . فلما رآه قال : هذا أمنية لمن يرى ،وعلم أن الصيد في جوف الفرا (١) . . . وكان قد برز من السلاح في لباس رائع من النهمة ،وأخرج من السواد الأعظم ما خدع العيون ، "والحرب خدعة" (٢) وما يمنع رقاب البلاد بكثرة السواد ولا يحمى بعوالي الأسوار بل بعوالي الصعاد . . . وفي يوم كذا وكذا خيم المسلمون في عقر داره ونزلوا منه نزول الجار الى جانب جاره . . . هذا والحديد لا يفلح الا بالحديد ،والركن الشديد لا يصدم الا بركن شديد . . ولما وقع الزحف صورع البلد صراعا ،بعد أن قورع قراعا . . . وكانت وجوه المؤمنين في هذا المقام أحظى بلباس الاشراق ، وأتم أبدرا ،والبدور لا يكون تمامها في المحاق فما منهم الا من عرض نفسه ليوم العرض ، ومشى الى "جنة عرضها السموات والأرض" (٣) . . . وقد أسعد الله أولئك بالشهادة التي هي الفوز الأكبر ،وقرنها بادناء مضاجعهم من الأرض المقدسة التي هي أرض المحشر ، فما يسرهم أن يعودوا الى الدنيا الا للاستزادة من ثواب الجهاد ،وأيسر لك

---

(١) مثل يضرب لمن يفضل على غيره ،أنظر قصة المثل في مجمع الأمثال للميداني ١٣٦/٢ ،أصله "كل الصيد في جوف الفرا".

(٢) من قول الرسول صلى الله عليه وسلم لنعيم بن مسعود : "خذل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة" انظر المستطرف ١٠٤/٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٣٣ أصل الآية "وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض".

أن أرواحهم في حواصل طير خضر تعلق من ثمار الجنة الى يـــوم المعاد [(١)] ...

ولما رأى الكفار أن صليبهم قد صار خوّارا ،وأن زئيرهم قد انقلب خوارا ،أذعنت أيديهم باستسلامها وصانعت بالمال عن الرقاب واسترقاقها ، وبالبلد عن النفوس وحمامها ،فأبى السيف أن يترك رقابا تغذّى بأكلها ، ويحل من عشقها على مداومة وصلها ..

ولما تحقق العزم على ذلك أشار ذوو الرأى بقبول الفديــة المبذولة ، وألا يحمل العدو على ما ليست نفسه عليه بمحمولة فان النّقد [(٢)] اذا أحرج صار ذا ناب وأظفار ،واستضرى حتى يلتحق بالسباع الضوار ، وهؤلاء اذا رأوا عين القتل تجردوا للقتال ،وركبوا الأهوال للنجاة مـــن الأهوال ... وعلى كل حال فان الفديــة للمسلمين أرغب ،وأمـــوال يتقوّى بها على العدوّ خير من دماء تذهب ...

ولقد كان يوم التسليم عريض الفخار ، زائد العمر على عمر أبويـــه الليل والنهار .. ولما دخل البلد ،وجد به أمما لولا أن ضربت عليهم الذلة لدافعوا المنايا مكاثرة ، وغالبوا السيوف مصابرة [(٣)] ، وهـــم طوائـــف

---

(١) يشير الى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة فتأكل من ثمارها و تأوى الى قناديل معلقة في ظل العرش " الفتوحات الالهية ،ورد في معرض تفسير قوله تعالى " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا " ١/ ٣٣٥.

(٢) النـقد جنس من الغنم أو صغار الغنم وجمعه نقاد / أمالي القالي ١/ ٢٧ .

(٣) يقال صابرته مصابرة من المغالبه .. وكل من حبس لقتل فقد صبر . أساس البلاغة .

مختلفو الألبسة والألوان ،وان قيل انهم أناسي فان صورهم صور الجان... ولما رأوا طلعة الاسلام داخلة عليهم ،أعلنوا الجؤار (١) واصطرخوا جميعا كما يصطرخون غدا في النار ،وزادهم غيظا الى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة ،وقد صار الناقوس (٢) أذانا ، والكفر ايمانا ،وأقيمت الجمعة ،وهي أول جمعة حظي الأقصى بمشهدها ،وحضرتها الأمة الاسلامية بأحمرها وأسودها ، فمن باك بدمعة سروره الباردة ، ومن مجيل نظره في نعمة الله الواردة ...

ولا ينتهي الوصف الى ما شوهد بالبلد من الآثار العجيبة التي تستلبث العجلان ،وتستجلب الأذهان ،وتستنطق الألسنة بالتسبيح لله الذي فطر الانسان ،ومن جملة ذلك ،ما تهوهي في حسنه من البيع والصوامع (٣) ذوات الأبنية الروائع ، التي روضت بالزخارف تروبض الأزهار ،ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحي اليها بالأسرار، وما منها الا ما يقال انه " ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد (٤) ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تخيروا في توسيعها بضروب الاختيار ، وجعلوها أعاجيب للأسماع والأبصار ،وقيل فيها هذه أفنية جنان لا أفنية ديار (٥).

---

(١) الجؤار .. صوت العجل .. وفي الآية " اذا هم يجأرون " أساس البلاغة .

(٢) الناقوس : الذى يضرب به النصارى لأوقات صلاتهم .. القاموس المحيط .

(٣) مفردها : صومعة كجوهرة .. بيت للنصارى سميت بذلك لدقة في رأسها .. القاموس المحيط .

(٤) سورة الفجر آية : ٧ .

(٥) المثل السائر ٢/٣٧٥ ومابعدها وقد وجدت نفس الرسالة بمخطوطة بعنوان / كتاب مكاتبات الوزير الجزرى في الترسل ، بمكتبة أحمد الثالث تحت رقم / ٢٦٣٠ ص ١٤٣–١٤٦ .

وقد قارن الصفدى بين رسالة ابن الأثير هذه ،ورسالة الفاضل السابقة . . ومال مع الفاضل .

ومن مآخذه على ابن الأثير ،قوله : " وطالما سمت الهمم في طلبه بالزاد والماء " فقال : " وأى هم هذه ،وما عسى أن تناله اذا لم يكن همها الا الزاد والماء ؟ أما كان لهم مهم غير الزاد والماء ؟ وهمة لا يكون همها الخيل والرجل والسلاح والدأب والسرى وركوب الأخطار، وقطع المفاوز،والصبر على السهر وأنواع المشاق ،أى شيء تناله "(١) .

وهو انتقاد في موضعه رغم تحامل الصفدى على ابن الأثير . . وهذا موضوع من المواضع التي يتبع فيها المعنى اللفظ ،والذى حذر ابن الأثير من الوقوع فيه . . فالذى أحوجه لذكر الزاد والماء . . طلب السجع بين " السماء والظلماء . . والماء " وما كان أغناه عن الجملة الثالثة . . .
ولنفس السبب انتقده الصفدى في قوله " وكان قد برز من السلاح في لباس رائع من المنعة وأخرج من السواد الأعظم ما خدع العيون والحرب خدعة ".
فليس هذا موضع الخدعة ،وليس هذا بلائق في هذا المقام ،فلم يفتح صلاح الدين القدس بالخدعة ولكنه كابد الأهوال وواجه الأخطار ،وأعد للعدو عدته ،كما استعد له العدو وأخذ حذره . . . ولكن طلب السجع أفسد المعنى مرة ثانية فلم يأت "بخدعة " الا من أجل مقابلة كلمة " المنعة " .كما انتقده في قوله " وما تمنع رقاب البلاد بكثرة السواد ولا تحمى بعوالي الأسوار بل بعوالي الصعاد " . وقال " كان الأحسن أن لو قال : بل ببياض الرأى وكثرة السداد "(٢) .

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٠٧ ومابعدها .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٧ ومابعدها .

ولست مع الصفدى في انتقاده لابن الأثير في هذه، لأن ابن الأثير أراد أن يثبت الشجاعة للمسلمين .. وأن الكفار لم تمنعهم كثرتهم ولا أسوارهم من بأس المسلمين الذين لم يحتموا بالأسوار بل عوّلوا على السيوف والرماح . فالمقام مقام شجاعة وبطولة أكثر منه مقام رأى ومشورة .. وليس الأمر بابدال سجعة مكان سجعة ..

ولو تتبعنا ما جره طلب السجع من تعسف في المعنى لوجدنا عند الفاضل وغيره أكثر مما وجدناه عند ابن الأثير ، وهو مرض قد بلي به الجميع .. ولكي لا نتحامل على ابن الأثير كما تحامل عليه الصفدى نقول : انه أبدع في وصف حالة جموع المسيحيين حين دخول المسلمين القدس ، وقد قارن حالة المنتصر النفسية بحالة المنهزم أثناء خطبة الجمعة (١) مقارنة من يعرف دخائل النفوس ويحسن تصوير المواقف .. كما صور شرف الاستشهاد في سبيل الله والحالة التي يئول اليها الشهيد بعد الموت .. مستخدما حل الآيات القرآنية والأحاديث .. والأمثال السائرة ووصفه لآثار الفرنج في القدس وما حوته بيعهم وكنائسهم ، لوحة زاهية جميلة ، تدل على أن الرجل كان فعلا يكتب بتأنٍ وهو مطمئن في بيئته كما يقول الصفدى .. كما تدل كثرة استعاراته واشاراته على سعة اطلاعه .

---

(١) كان الخطيب القاضي محي الدين ابن الزكي محمد بن علي ت ٥٨٨ هـ وهي أول خطبة تقام في المسجد الأقصى منذ احتلاله سنة ٤٩٢ هـ وقد بقي في أيديهم ٩١ سنة ، انظر تاريخ الخلفاء ص ٤٥٣ .

كتب العهد والبيعة :

العهد : هو أن يعهد الخليفة بالأمر من بعده الى من يختاره من ابنائه و اقربائه أو أعوانه ،فيصير ولي عهده في حياته ،حتى اذا فاجأته المنية لم تختلف الأمة على من يلي أمورهم بعده ..

والأصل فيه كما يقول القلقشندى : ما روى عن عمر رضي الله تعالى عنه حينما قيل له عند موته : ألا تعهد ؟ فقال رضي الله تعالى عنه أأتحمل أمركم حيا وميتا ؟ (١) .

وأول عهد في الاسلام هو عهد أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما (٢) ،و هذا عهد من الخليفة الفاطمي الحافظ — ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ لولده "حيدرة" ليكون خليفة من بعده .

"من عبد الله ووليه / عبد المجيد أبي الميمون الحافظ لدين الله (٣) ... الى ولده و نجله وسلالته الطاهرة و نسله والمجمع على شرفه ... الأمين أبي تراب حيدرة (٤) ولي عهد أمير المؤمنين ، عليه السلام.

---

(١) انظر صبح الأعشى ٩ / ٣٤٩ .

(٢) نفس المرجع ٩ / ٣٥٩ .

(٣) تولى الحافظ الخلافة بعد الآمر ولم يكن ابن خليفة لأن الآمر لم يخلف ولدا و لذلك ولوه الخلافة مع أن مذهبهم ألا يتولى هذا المنصب الا ابن خليفة . انظر أخبار ملوك بني عبيد ص ١٠٦ .

(٤) حيدرة : اسم كان لعلي كرم الله وجهه فغيره أبو طالب وسماه عليا . وأبو تراب : كنيته أيضا كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،انظر مقاتل الطالبيين ص ١٤ .

سلام عليك : فان أمير المؤمنين يحمد اليك الله الذي لا الــه الا هو ، ويسأله أن يصلي على جده محمد .. صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين ..

أما بعد : فان الله تعالى ، لبديع حكمته ، ووسيع رحمته استودع خلفاءه من خلقه وبرأه .. وجعلهم مستخدمين لأفكارهم في مصالــح البريــة التي غدت في أمانيهم ، وحصلت في ضمانهم ... لأنهم نصبوا للنظر فيما جل ودق ، وتعبوا لراحــة الكافــة تعبا صعب وعظم وشق ، وقد استخلص الله أمير المؤمنين من أشرف أسرة وأكرم عصابة ، وأيده في جميع آرائه بالحزامة (١) والجزالة ، والاصالة والاصابة ، وقضى لأغراضه أن يكون السعد لها خادما ، وحتم لمقاصده أن يصاحبها التوفيق ، ولا ينفك لها ملازما ، وجمع له ما تفرق في الخليقــة من المفاخر والمناقب ، وألهمه النظر في حسن الخواتم وحميد العواقب .. ولما كان وليّ عهــد أمير المؤمنين أكبر أبناء أمير المؤمنين ، والمنتهى لأشرف المراتب من تقادم السنين .. وله من فضيلة ذاته ما يدل على النبأ العظيم ، وعليــه من أنوار النبوة ما يهتدي به الساري في الليل البهيم ... وليفخــر بأن خص من العناية الملكوتيــة بالحظ الأجزل ، وليتسمع علــى البرايا ، ليكون صدوعها بالكتاب المنزل ، وليبذخ (٢) فان وصفــه

---

(١) الحزامة من الحزم .. قالوا في المثل : ربما كان من الحزامة أن تجعل أنفك في الخزامة / أساس البلاغة .

(٢) البذخ : التطاول / أساس البلاغة .

لا تبلغ غايته وان استخدمت فيه الفكر ، ولبيجح (١) فان فضله لا يدرك حقيقة الا اذا تليت الصور ، فأمتعه الله بمواهبه لديه ، وأمتع أمير المؤمنين أن يختصه بولاية عهد أمير المؤمنين ، تمييزا له بهذا النعت الشريف ، وسموا به الى ما يجب لمجده الشامخ ومحله المنيف ، واقتداء بأسلافه الأئمة الأطهار فيما يشرفون به أبناءهم الأكرمين ، وتخصيصا له بما ينبغي فخره على متجدد الأزمان ومتطاول السنين ... والسلام على ولي عهد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته (٢) .

هذا العهد خير شاهد على معتقدات الفاطميين الذين يرون أن نسبهم ينتهي الى فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها وأن الرسول صلى الله عليه وسلم جدهم (٣) . وانطلاقا من هذا السبب يرون أن لهم على الخلق ميزات اختصهم الله بها .

وما قوله : يسأله أن يصلي على جده محمد الا ليؤكد هذه الدعوى في أذهان الناس . ولكنه يذهب شططا حين يزعم بناء على اتصال

---

(١) التبجح : التفاخر والتباهي . أساس البلاغة .
(٢) انظر صبح الأعشى ٩ / ٣٧٧ وما بعدها .
(٣) ينكر كثير من المؤرخين ادعاءهم ذلك .. وكان الناس يغمزونهم في نسبهم .. وحين سئل المعز عن نسبهم ، سل نصف سيفه وقال : هذا نسبي ولم يدرجهم السيوطي في كتابه انكارا لخلافتهم وتكذيبا لادعائهم النسب الى فاطمة رضي الله تعالى عنها .. انظر تاريخ الخلفاء ص ٤ — ٦ ، وقد ألف ابن حماد ت ٦٢٨ هـ كتابا ناقش فيه هذه المسألة سماه / أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم / وخاصة مقدمة المحقق .

نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم : أن الله قضى وحتم أن يكون سعيدا وأن يصاحبه التوفيق .. وأنه جمع له ما تفرق في خلقه من المفاخر والمناقب ومن الذى يعلم أن الله سخر له السعد أو ضمن له التوفيق ؟

وكيف يدّعي أن الله جمع لانسان من المفاخر والمناقب ما تفرق في جميع خلقه .. انها مبالغات قبيحة اذا امتدح بها الخليفة فكيف اذا كان هو الذى يدعيها لنفسه أو ولده ..

انظر الى قوله : " وله من فضيلة ذاته ما يدل على النبأ العظيم... وعليه من أنوار النبوة ... " انها تعبيرات لا نجدها الا عند الكتاب الفاطميين الذين يحاولون أن يحيطوا خلفاءهم بهالة من التقديس والتعظيم.

وانظر الى قوله : " وليبذخ " ... أو قوله : " ليبجح " ، فان فضله لا يدرك حقيقة الا اذا تليت السور" ،لأن للشيعة مذهباً في تأويل بعض الآيات[1] يثبتون بها أحقية العلويين في الخلافة ، ومع ذلك فغير مستحسن من خليفة أن يأمر ابنه وولي عهده بالبذخ والتبجح .. واذا كان على هذه الأخلاق فأى خير يرجى منه لأمته ورعيته ؟..

أما من ناحية أسلوب الرسالة .. فنجده أقل الحاحا على الصنعة والتكلف الثقيل . ولعل هذا دليل على أن الصنعة البديعية كانت

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ص ٦ ، ٤٤٩ وأنظر أيضا في ذلك " الالمام بالأعلام للنويرى ٤/٤٧ — ٤٨ ، حيث قال : الخلفاء العبيديون يزعمون أنهم فاطميون وليسوا كذلك بل نسبتهم الى ديصان بن سعيد الخرمى في الدين .

تتطور بمرور الزمن ـ كلما تقدم الوقت ازدادت شكلا ،وأوغل فيها الكتاب تكلفا .. ونراه يعيد كلمة "أمير المؤمنين" في الفقرتين بدل الضمير كقوله : " رأى أمير المؤمنين أن يختص بولاية عهد أمير المؤمنين " تنزيها لاسمه أن يحذفه ويدل عليه بضميره ،أو ليؤكد هذا اللقب الذى ينكره عليه كثير من المسلمين .

و هذا عهد آخر من خليفة فاطمي الى ولده من انشاء القاضي الفاضل :

" أما بعد : فالحمد لله الذى استحق الحمد بفضله ،وأجرى القضاء على ما أراده ،ووسع الجرائم بعفوه وعدله ... والحمد لله الذى وصل النبوة بالامامة ،وجعلها كلمة باقية في عقبه الى يوم القيامة[(١)] ، وخصها بالخصائص التي لا تختفي الالتئام الكرامة ،وأجار بها خلقه من متالف الطامة .. يحمده أمير المؤمنين أن رفعه الى ذلك المحل المنيف[(٢)] واستعمر به المقام الشريف . ويسأله أن يصلى على جده محمد الذى نسخ بشريعته الشرائع ،وهذب بهدايته الشارع .. وعلى أخيه وأبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المخصوص بأخوته ،وأبى الثقلين من عترته .... وان الله بحكمته البديعة ورحمته الوسيعة أقام الخلفاء لخلقه قواما ، وبحقه قواما ، واستصرف بهم عن الخلق عذاب جهنم ، ان عذابها كان غراما"[(٣)] . يسهرون في منافع

---

(١) الآية من سورة الزخرف آية ٢٨ ونصها : "وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون" .

(٢) المنيف : المرتفع .. جبل منيف اذا كان مرتفعا .

(٣) سورة الفرقان آية ٦٥ .

الأنام وهي نيام ،وينفردون بوصب [١] النصب ... ويهتدون بهدايتهم الى ما تدق عنه خواطر الأفهام ولا يدرك الا بوسائط الهام [٢] .

وقد اصطفى الله الأمير من تلك الأسرة ورقاه شرف تلك المنابر ، وملك تلك الأسرة .. واستخدم العالم لأغراضه وسدد كل سهم في رميه الى أغراضه ... وأدار الحق معه حيث دار ، وكشف له ما استجن تحت ستار الأقدار [٢] ... والهمه كأن يحفظ للأمة غدها كما حفظ يومها ... ويقتدى في ذلك بسيد المرسلين في يوم الغدير [٣] و يشير الى من يقوم به المشير مقام البشير .

ولما كنت حافظ عهد أمير المؤمنين والسيد الذى لا بد أن يتوج به السرير ،والنجم الذى لا بد أن نستطيل الى أنواره و نستطير والذخيرة التي ادخرها الله لنيل كل خطر ، و دفع كل خطير ،والسحاب الذى فيه الثج المطير ،والنجم النير والرجم المبير ...

---

(١) الوصب : المرض والتعب .

(٢) يشير بهذا الى اعتقاد الشيعة بأن الامام المعصوم يعلم شيئا من الغيب ، انظر تاريخ الخلفاء ص ٤٤٩ .

(٣) هو غدير خم : على ثلاثة أميال من الجحفة .. آخى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كل اثنين من الصحابة و جعل عليا أخاه وقال : اللهم وال من والاه و عاد من عاداه ... والشيعة يجعلونه العيد الثالث يحيون ليلته بالصلاة ،راجع صبح الأعشى ٤١٧/٢ و تاريخ الخلفاء ص ١٦٩ .

وغدت وجوه الأنام بأيامك مجلوة ،وتوافقت الألسن على مدحك ، ولا مثل ما مدحت من الآيات المتلوة .. ولو أن راكبا ظل لهداه نورك من الليل البهيم . ولو أن ذكرك شذ لتبدى في الآيات والذكر الحكيم ، ولو أنك طلعت على الأولين لماتعا لوا عن النبأ العظيم ... ولو أن جميع الأنام في صعيد واحد لصعدت دونهم المقام الكريم ، ولو أن يدك البيضاء تجسمت للناظرين لمدت آية موسى الكليم ، ولو أن هدايتك الغراء تنسمت للذاكرين لأحييت العظام وهي رميم ،وأشمخ بأن سادة القبائل مضر ،وأنك بعد أمير المؤمنين سيد مضر ، وابذخ بأنك عوض من كل من غاب وما عنك عوض في كل من حضر ، وأبجح بأنك قد أهلت لأمر أبى الله له الا أولي العزم والخطر ، واشكر الله على نعمة خلقك الله لها بقدر ... وقل " الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله "(١) . وقل : " رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه "(٢) ، فاليك هذا الأمر يصير ،وأنت له والله لك " نعم المولى و نعم النصير "(٣) ، وتأهب له في درجته التي لا ينالها باع قصير .. وفاوض أمير المؤمنين في مشكلات الأمر " ولا ينبئك مثل خبير "(٤) ،واقتد منه بحن

---

(١) سورة الاعراف آية : ٤٣.
(٢) سورة الأحقاف آية : ١٥.
(٣) سورة الأنفال آية : ٤٠.
(٤) سورة فاطر آية : ١٤.

هو في أهل دهره وصي الوصي ونظير النذير .. وأما العدل وافاضته والجور واغاضته والصعب ورياضته والجدب وترويضه ، والخطب وتفويضه ، والجهاد ورفع علمه ، والذب عن دين الله وحفظ حرمه ، والأمر بالمعروف ، ونشر ردائه ، والنهي عن المنكر وطي امتدائه ، واقامة الحد بالصفح والحدّ والمساواة في الحق بين المولى والعبد ، وبث دعوة الله في كل غور من البلاد ونجد ... فذلك عهد الأئمة الراشدين ، وهو اليك من أمير المؤمنين .. عهد مؤكد العقد ، وهي سنة فضل الخلفاء التي لا تجد لها تحويلا ، ومضى العهد الذى أمر الله بالوفاء به فقال " ان العهد كان مسئولا "(١) .

وهل يوصى البحر بتلاطم أمواجه ؟ ، وتدافع أفواجه ، وبتزاخر عجاجه(٢) ؟ وهل يحضّ البدر المنير على أن ينير سراجه ؟ ويطلع ليتضح للسالك منهاجه ، أو ينبه على هدايته اذا تهادت أبراجه ؟(٣) .

ومن الانصاف أن نعترف للفاضل بهذه المقدرة على تطعيم كتابته بالآيات وحوادث التاريخ وهو لا يكتفي بالاقتباس من القرآن بل يعمد أحيانا الى حل آياته " وجعلها كلمة باقية في عقبه الى يوم القيامة " ، " ولو أنك طلعت على الأولين لما تساءلوا عن النبأ العظيم ".

---

(١) سورة الاسراء آية : ٣٤ .

(٢) العجاج : شدة اندفاع الماء . يقولون نهر عجاج . أساس البلاغة .

(٣) صبح الأعشى ٩/ ٣٧٩ — ٣٨٥ .

مع احساسي بأن صنعته أقل ثقلا في هذه الرسالة ... ولكنه مع ذلك يكرر السجعة في أكثر من خمس جمل مما يدعوه الى تكرار المعنى وترادف العبارات .

وتكرار الحمد لله في مقدمة الرسالة مع بداية كل مقطع يقرّبها من الخطبة ، بل من الصعب أحيانا التفريق بين الأسلوبين .

كما نلاحظ كثرة المبالغات في مدح ابن الخليفة .. ولا أظن أن تكلف الصنعة أداه الى ذلك بقدر ما هي معتقدات القوم — أو ما يحاول الفاطميون — أن يعتقده الناس فيهم .

ولو أن هذه المبالغات في الشعر لكانت معيبة فكيف وهي في النثر؟ اذ الشعر يحتمل من المغالاة والمبالغات ما لا يحتمله الأسلوب النثرى ، أنظر الى قوله :

" ولو أن راكبا ضل لهداه نورك في الليل البهيم ... ولو أن ذكرك شذ لتهدّى في الآيات والذكر الحكيم ،... ولو أنك طلعت على الأولين لما تساءلوا عن النبأ العظيم ... ولو أن هدايتك الغراء تنسمت للذاكرين لأحييت بها العظام وهي رميم ".

فمن ذا الذى يحيي العظام وهي رميم غير الله ؟ .

وقوله : " وكشف له ما استجن تحت أستار الأقدار " وذلك الغيب الذى لا يطلع الله عليه الا من اختاره من رسله .. والعهد مملوء بالمعتقدات الشيعية :

" الحمد لله الذى وصل النبوة بالامامة ... وعلى أخيه وأبينا أمير المؤمنين علي المخصوص بأخوته وأبى الثقلين من عترته ... واستصرف بهم عن الخلق عذاب جهنم " .. ولا أدرى كيف يصرف الأئمة عن الخلق عذاب جهنم ؟!! .

" وصي الوصي ... ويوم الغدير .. " .

ومن الملاحظ أننا لا نجد في طيات رسائل الفاطميين ذكرا للخلفاء الراشدين — سوى علي كرم الله وجهه — في حين نجد ذكر الأئمة المهديين ويعنون بهم خلفاء الفاطميين ..

ويظهر أن أمر ولي العهد بالبذخ والشموخ والتبجح أصبح نظاما متبعا ، فقد لاحظناه في الرسالتين ... وهو أسلوب اتبعه الفاطميون ووضعوه لأنفسهم ليزيدوا الفجوة بينهم وبين الرعايا بحيث يشعر الانسان من رعاياهم أن هؤلاء فيهم سر الهي استحقوا به أن ينالوا هذا المنصب ،وأن يعظموا ويتطاولوا ويتباهوا .. وكأنهم لا يحاسبون على ذلك ،أو أن ذلك مسموح به لهم دون غيرهم من الخلق .

البيعة :

هي مبايعة الناس للخليفة .. بمعنى معاهدته على السمع والطاعة ،والأصل فيها قول الله تعالى " ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ،يد الله فوق أيديهم "(١) .

---

(١) سورة الفتح آية : ١٠ .

وكانت أول بيعة في الاسلام مبايعة المسلمين لأبي بكر رضي الله تعالى عنه (١) .

وهذه بيعة كتب بها للحافظ بعد موت ابن عمه الآمر ٤٩٥—٥٢٤هـ عقدها الوزير " أبو الفتح يانس الحافظي " (٢) :

" وقد علم الكافة أن حجة الله في أرضه ، والمجتنب من الأعمال ما لم يرضه . . . الامام الآمر بأحكام الله . . . الذى آتاه الله الحكم صبيا ، ورفعه من ارث النبوة مكانا عليا ، واستخلفه على خلقه فكان للفضل باسطا ولراية العدل ناشرا ، وجعله لشمل المحاسن جامعا ولأئمة الخلفاء الراشدين عاشرا !! لم يزل ناظرا في البعيد والقريب ، عاملا في الأمة عمل المجتهد المصيب ، مستنفدًا جهده في الجهاد ، فيمن خالف أهل القبلة باذلا من جزيل العطاء وكثيره ما لا يعرف معه أحد من خاصته بالفقر ، ولا ينسب معه الى القلة ، . . حتى استوفى مدته الموهوبة ، واستوعب غايته المكتوبة ، ونالـه من القضاء ما أخرجه من الدنيا سعيدا ، وأقدمه على الله شهيدا . وكان انتقاله الى جوار ربه تبارك وتعالى كانتقال أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بغيا من الكافرين واغتيالا وقد كان يذكر ما يعلمه من حق أمير المؤمنين تارة مجاهرا ، وتارة مخافتا ، الى أن صار على بسط القول في ذلك ، وتبيينه شابرا متهافتا . . .

---

(١) انظر صبح الأعشى ٩ / ٢٧٥ .

(٢) وزير فاطمي أرمني تولى الوزارة للحافظ سنة ٥٢٦ هـ واغتيل في نفس السنة ، انظر موسوعة التاريخ الاسلامي ٥ / ١٣٨ .

وذلك لمّا ألفاه أشرف فرع من سنخ (١) النبوة ، ورآه أكرم في فخارة الأبوة ... ولا خلاف بين كافة المسلمين بأن الله تعالى أمر جدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بعقد ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلى الله عليه وسلم ، فعقدها له يوم غدير خم ، وأمير المؤمنين علي ، ابن عمه ، وكان له حينئذ عم حاضر ، وأوصى ما أمر الله به ، والاسلام يومئذ غضّ ، وعوده ناضر . كذلك أمير المؤمنين هو ابن عم الامام الآمر بأحكام اللـــــه أمير المؤمنين .

وقد نص مع حضور عمومته عليه ، وفعل ما فعل جده رسول الله ، واقتدى به وانتهى اليه .. واذ قد تبين هذا الأمر الواضح الجلـــيّ ، وتساوى في علمه الشانئ (٢) والولي ، وعلم هو ما خص الله به أميـــر المؤمنين من الامامة ، وأزاله عن المعقول من ضباب متكاثف وغمامة ... فيجب عليكم لأمير المؤمنين أن تدخلوا في بيعته منشرحة صدوركم طيبة نفوسكم مجتهدين له في خدمة تقابلون بها احسانه ، متقربين اليــــه بمناصحة تحظيكم (٣) عند الله سبحانه ، عاملين بشرائط البيعة المأخوذة

---

(١) سنخ : أصل ، والفرق بين الأصل والسنخ : أن السنخ هو أصل الشيء الداخل في غيره مثل سنخ السكين ، والأصل اسم مشترك يقال أصل الجهل وأصل العداوة وأصل الانسان . انظر الفروق في اللغة ص ١٥٦ .

(٢) الشانئ : الكاره ، أساس البلاغة .

(٣) تحظيكم : تقربكم ، أساس البلاغة .

على أمثالكم ، الذين يتّبعون في فعلهم ، ويقع الاجماع بمثلهم ، ولكم على أمير المؤمنين أن يكون بكم رحيما وعن الصغائر متجاوزا كريما ، وبالكافة رؤوفا رفيقا ، وعلى الرعايا عطوفا شفيقا ، وأن يصفح عن المسيء ما لم يرتكب كبيرة ويبالغ في الاحسان الى من أحسن السيرة ، ويتولى من الأفضال ما يستخلص الضمائر ، ويستبقي من الانعام ما يقتضي نقاء السرائر . وأمير المؤمنين يسأل الله أن يعرفكم بركة امامته ويمن خلافته" (١) .

ويمكن أن يعرف القارئ لأول وهلة أن هذا العهد لامام شيعي لما فيه من معتقدات القوم وعبارات لا نجدها الا عند الفاطميين كقوله : " وفرع من سنخ النبوة ، ولأئمة الخلفاء الراشدين عاشرا .. وهو يقصد بالخلفاء الراشدين الفاطميين .. لأن الحافظ هو عاشر خليفة فاطمي . وكأن القوم لا يعترفون بخلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحديثه عن عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم الولاية لعلي يوم غدير خم ، وادعاؤه أن ذلك لا خلاف فيه بين كافة المسلمين ، يوضح مذهب الشيعة في الخلافة وأنهم مخالفون لما عليه جمهور المسلمين .. من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعهد الى أحد بالخلافة من بعده ، وانما فهم تقديمه لأبي بكر رضي الله تعالى عنه بقرائن ليست صريحة ، كتقديمه اياه في الصلاة بالمسلمين (٢) .

وقد أحسن الكاتب فيما ألزم به الخليفة لرعيته من الرفق والرحمة والاحسان .. اذ قلما نجد من يلتزم من الخلفاء المتأخرين لرعيته بمثل هذا

---

(١) صبح الأعشى ٩/٢٩١–٢٩٧ .
(٢) انظر تفصيل ذلك في تاريخ الخلفاء ص ٧ وما بعدها .

في طلب بمعتهم .. في حين نجد أنهم يحرصون على حقوقهم علـــى الرعية ويوءكدونها .. غير أن قوله : "باذلا من جزيل العطاء وكثيره ما لا يعرف معه أحد من خاصته بالفقر"، يدل على أن أولئك الخلفـــاء انما يبذلون الأموال لخاصتهم وأن بقيــة الأمــة محرومة منها..

والرسالة مع هذا من الناحية الفنيـة أخف صنعة وأقل تكلفـــا للبديع من الرسائل التي سوف نطالعها بعد هذا العهد.

التقاليـــد :

جمع تقليد .. مأخوذ من القلادة في العنق : قلدته أمـــر كذا، اذا وليته اياه[(١)].

وللقارىء أن يتساءل عن الفرق بين العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير والسجلات، وكلها — فيما يظهر — بمعنى واحد اذا نظرنا الى غرضها ...

ولكنها تختلف عند أرباب هذه الصناعة تبعا للمكتوب اليه.. فالعهد من خليفة أو ملك الى وليه.

والتقليـد منــه للوزيـر أو ما في طبقتـه.

والتفويض لعامـــة القضـــــاة.

والتوقيع لصغار الموظفيـن[(٢)].

---

(١) انظر صبح الأعشى ١٠١/١١ عن الجوهرى.

(٢) انظر نفس المرجع ١٠٧/١١، ١٠٨ وقارن بما في "المصطلح الشريف" ص ٨٤، ٨٥.

والمراسيم تختص — كما يقول القلقشندى — بنواب القلاع المنصورة بالممالك الاسلامية وأمراء العربان (١)، وهو اصطلاح استحدثه المماليك (٢).

والمناشير تقرأ على جمع من الناس في المساجد وغيرها والسجلات بمعناها.

وهذا تقليد بالوزارة كتبه الفاضل لأسد الدين شيركوه عن العاضد الفاطمي آخر خلفاء الفاطميين — ٥٥٥ — ٥٦٧ هـ — وقد سماه القلقشندى عهدا مع أنه من خليفة الى وزير ... ولعل ذلك اعظاما لحق أسد الدين، أو أن الوزير في ذلك الوقت كان يقوم مقام الخليفة .. وقد نص الفاضل على أنه تقليد في نفس الرسالة .. وهذا نموذج من التقليد :

بعد المقدمة " ... أما بعد فالحمد لله القاهر فوق عباده، والظاهر على من جاهر بعناده .. موتى الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده، ونازعه ممن يشاء (٣) بما اقترفه من كبائر فساده، منجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته العزائم واستقبله الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم ...

والحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين .. وجعله شهيد عصره، وحجة أمره، وباب رزقه ... وشفيع أوليائه، والمستجار من الخطوب

---

(١) عربان : المقصود بها الأعراب .. لعلها مولدة لأن جمع الأعراب أعاريب ولا واحد له، القاموس المحيط .

(٢) انظر صبح الأعشى ١١ / ١٠٨ .

(٣) يشير الى قوله تعالى : " تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء " سورة آل عمران آية ٢٦ .

بلوائه ،والمضمونة لذويه العقبى ،والمسئول له الأجر في القربى ....
ليكون لشيعته الى الجنة نعم الشافع والرائد ... وليبين لهم الذى
اختلفوا فيه وأنما هو اله واحد ، وان أمير المؤمنين لما فوّض الله تعالى
اليه من ايالة[1] الخليقة ،ومنحه من كرم السجية وكرم الخليقة ... ،وأظهر
له من المعجزات[2] ، التي لا يخلو منها زمن ،وظاهر له من الكرامات التي
زادت على أمنية كل متمنّ ،وأتحفه عليه من أسرار النبوة[3] التى رآه الله
تعالى لها أشرف مودع ،وعليها أكرم مؤتمن ... يستخيره ، عالما
أنه يقدم اليه أسباب الخير ، ويناجيه فيطلعه الالهام على ما يحلو السير
ويجلّى الخير ... فما اعترض ليل كربة الا انصدع له عن فجر وضاح
ولا انتقض عقد غادر الا عاجله الله سبحانه بأمر فضاح ... واذا عدد
أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة ،والمنح الكريمة ، كنت أيها السيد
الأجل ... أعظم نعم الله تعالى أثرا وأعلاها خطرا ... وأمضاها
على الأعداء حدا ،وأبداها في الجهاد جدا ، وأعدها على الأعداء يدا
... وأحسنها فعلا لليوم ،وأرجاها غدا وأفرجها للأزمة وقد كادت
الأمة تصير سدى ،وأحق الأولياء بأن يدعى للأولياء سيدا ،وأبقاهم
فعلة لا ينصرم فعلها الذى بدا أبدا .

فليهنئك أنك حزب الله الغالب ، وشهاب الدين الثاقب ، وسيف
الله القاضب ... كشفت الغماء وهي مطبقة ، ورفعت نواظر أهل الايمان

---

(١) الايالة : السياسة والتدبير .
(٢) هذه مبالغات قبيحة لأنّ المعجزات لا تكون الا لنبي .
(٣) لعله يريد بأسرار النبوة أن الامام اختص بأسرار لم يطلع عليها بقية البشر .

وهي مطرقة ،ومقصت[1] أعنة الطغيان وهي مطلقة ،وأعدت بحنكتك على الدولة العلوية بهجة شبابها المونقة ، وأنقذت الاسلام وهو على شفا جرف هار[2] ،ونفذت حين لا تنفذ السهام عن الأوتار . . . وأقدمت على الصليب وجمراته متوقدة ،وقاتلت أولياء الشيطان وغمراته متمردة . . . وناهضت الكفر بالباع الأشد ،والرأى الأسد ،نادتهم سيوفك ،ولا قرار على زأر من الأسد.[3] وأدال الله بك ممن قدم على ما قدّم ، وندم فما أغنى عنه الندم ،حين لج في جهالته ،وتمادى في ضلالته ،واستمرعلى استطالته ،وتوالت منه عثرات ما أتبعها باستقالته ،فكم اجتاح الدولة رجالا ،وضيق من أرزاقهم مجالا ،وسلب من خزائنها ذخائر وأسلحة وأموالا ونقلها من أيدى أوليائها الى أعداء الله تبارك وتعالى ،واتسمت هفواته عن التعديد ،وما العهد منها ببعيد ،وقد نسخ الله تعالى بك حوادثها فوجب أن تنسخ أحاديثها . . ورأى أمير المؤمنين لك اقدامك ورقاب الشرك صاغرة وقدومك ،وأفواه المخاوف فاغرة ، . . . وانك لمبعوث الى بلاد أمير المؤمنين بعث السحاب المسخر ،ومقدم في النية وان كنت في الزمان المؤخر . . . ولما نشرت لواء الاسلام وطواه ، وعضدت الحق وأضعف قواه . . . قضى الله تعالى الى أمير المؤمنين عدة قدمها ثم

---

(١) مقصت : ربطت وعقدت ولويت ،انظر أساس البلاغة ص ٤٣٠ .

(٢) حل للآية " أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم " سورة التوبة آية ١٠٩ .

(٣) شطر بيت للنابغة الذبياني ــ تمامه :
" أنبئت أن أبا قابوس أوعدني " انظر النابغة الذبياني حياته وشعره ص ٦٩ .

قضاها ،وولاه كما ولا جده صلى الله عليه وسلم قبلة يرضاها (١) ،وانتصر له بك انتصاره لأهل البيت بسلمانه وعماره ، وأنطق أمير المؤمنين باصطفائك اليوم وبالأمس كنت عقد اضماره (٢) ،وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته ،وتدبير مملكته ،وحياطة ما وراء سرير خلافته ،وصيانة ما اشتملت عليه دعوة امامته ،وكفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين ، وتدبير ما عذقه (٣) بأمير المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين ،وما يفتحه الله على يدك من البلاد ،وما تستعيده من حقوقه التي اغتصبها الأضداد ، وألقى اليك المقاليد بهذا التقليد ،وقرب عليك كل غرض بعيد ،وناط بك العقد والحل ، والولاية والعزل ، والمنع والبذل والرفع والخفض ، والبسط والقبض ، والابرام والنقض ،والتنبيه والخفض . . . تقليدا لا يزال به عقد فخرك نظيما ،وفضل الله عليك وفيك عظيما " (٤) " ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما " (٥) .

وهذا التقليد يعطينا فكرة عن مدى الضعف الذي أصاب خلفاء الفاطميين — آخر دولتهم — اذ تسلط الوزير وأصبح هو الآمر والناهي ،

---

(١) مأخوذة من قوله تعالى " فلنولينك قبلة ترضاها " سورة البقرة آية ١٤٤ .
(٢) يشير الى اعتقاد الامامية في الامام المعصوم بأنه يعلم الغيب .
(٣) في أساس البلاغة : فلان معذوق بالشر أي موسوم به .
(٤) حل للآية " وكان فضل الله عليك عظيما " سورة النساء آية ١١٣ .
(٥) صبح الأعشى ١٠/٨٠ — ٩٠ والآية من سورة النساء آية ٧٠ ، وانظر التقليد في : اتعاظ الحنفا ٣/٣٠٢ ،وانظر تقليد صلاح الدين في نفس المرجع ٣/٣٠٩ .

ولم يبق للخليفة سوى الاسم .. وقد حاول الكاتب أن يؤكد تلك الهالة والتقديس التي احتمى بها الفاطميون ، فنسب له أشياء لا تنسب الا الى نبي ، ليزيد من حفظ احترامه ، وليهابه الوزير ، أن يجترئ عليه ، كقوله :

" الحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين ، وجعله شهيد عصره وباب رزقه ، وشفيع أوليائه ، والمستجار من الخطوب بلوائه ، والمضمونة لأوليائه العقبى " ..

وقوله : ليكون لشيعته الى الجنة نعم الشافع والرائد ، وليبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وانما هو اله واحد ".

فالشفاعة يوم القيامة انما أعطيت للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ولم يعطها غيره حتى من الرسل .. والذى أرسله الله " ليبين للناس الذى اختلفوا فيه " انما هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس العاضد الذى عجز حتى عن تدبير ملكه .

وحين تسمع قوله : " وأظهر له من المعجزات " .. " وأتمنه على أسرار النبوة " .. تظن أنه يحدثك عن نبي وليس عن انسان لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ...

ويقصد الكاتب بمنجد أمير المؤمنين : أسد الدين شيركوه وبمن ظلم نفسه الوزير شاور .. الذى قضى عليه أسد الدين .. بعد أن استعان بالفرنج ليخرجه وعسكره من مصر فاستطاع أسد الدين أن يهزمهما جميعا (١) .

---

(١) انظر الروضتين ١/١٥٤ وما بعدها .

وقد وصف المقدسي كتاب الفاضل هذا بقوله :

" وهو مشتمل على كلام طويل ، وحشو غير قليل ، على عادة الكتاب المتأخرين ، الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبريـــن ، والبلاغة عكس ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " بعثت بجوامـــع الكلم ، واختصر لي الكلام اختصارا "(١) . واذا كان هذا رأى من عاش في عصر ازدهار الصنعة في أسلوب كتاب عصره ، فماذا نقول نحن فـــي عصر اندثرت فيه أساليب المحسنات البديعية ، وعدت تكلفا وثقلا ، تدل على ضحالة في التفكير وتقربا الى التقعر والتعقيد ؟ ..

المنشـــــورات " الاقطاعات :

المقصود بالمنشور : ما يعلن على الناس بقصد التبليغ والافهام ، في شتى أمور الدولة السياسية والحربية والادارية .. ويقول القلقشنـــدى : " انهم اصطلحوا في الدولة التركية على قصر المنشور على ما يكتـــب في الاقطاعات ، أما في الزمن المتقدم فكانوا يطلقونه على ما هو أعم . ويقول : " انه لا مشاحة في الاصطلاح اذا فهم المعنى "(٢) .

وهذا يعني أن هذه التسميات تختلف من عصر لعصر كما قـــد تتداخل تلك الاصطلاحات .

---

(١) انظر الروضتين ١/١٥٩ .

(٢) صبح الأعشى ١٥٧/١٣ ، ويقول ابن منجب : " المناشير هي الكتب الخاصة بالاقطاع وجباية الضرائب " / قانون ديوان الرسائل ص ٩٠ .

أما الاقطاع [١] فهو ما يهبه السلطان لأحد أفراد أسرته ،أورعيته من مزارع أو أراض .. والأصل فيه ما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم: أنه أقطع تميما الدارى أرضا بالشام وكتب له بها كتابا " [٢] .

وهذا منشور باقطاع خليفة فاطمي ولده ناحية من الأرض ،بقلم القاضل :

" هذا كتاب من أمير المؤمنين لولده الذى جل قدرا أن يساما ، وقرّفي ناظر الايمان نورا ،وسلّته يد الله حساما .. الأمير — فلان — جريا على عادة أمير المؤمنين التي أوضح الله فيها اشراق العوائد ، واتباعا لسنة آبائه التي هي سنن المكارم والمراشد ...

واختصاصا بفضله لمن كفاه من الشرف أنه له والد ،وعموما بما يسوقه الله على يده من أرزاق العباد ،وانعاما جمل نجله طريقه الى أن يفيض على كل حاضر وباد ،وأمير المؤمنين بحر ينشئ من آله [٣] السحاب المنزل ،ويمدهم جوادّ العطاء الأجزل ،أمر بكتبه لما عرضت لمقامه رقعة بكذا وكذا ، وخرج أمر أمير المؤمنين الى وليه وناصره ،وأمينه

---

(١) مأخوذ من : أقطعه قطيعة من الأرض .. وقطائع ،واستقطعت الوالي فأقطعني ،أساس البلاغة .

(٢) انظر صبح الأعشى ١٣/ ١١٨ ،وانظر نص كتابة الرسول صلى الله عليه وسلم في نفس المرجع ١٣/ ١١٩ .

(٣) الآل : الذى تراه في الأفق أول النهار وآخره ،وليس هو السراب/ الصحاح ٤/ ١٦٢٧ ،والآل : القرابه .

على ما استأمنه الله عليه وموازره ... بأن يوعز الى ديوان الانشاء باقطاع ناحية كذا ، بحدها والمعتاد من وصفها المعاد ، وما يدل عليه الديوان من عبرتها[1] ، ويتحصل له من عينها وغلتها الى الديوان الفلاني ، اقطاعا لا ينقطع حكمه ، واحسانا لا يعفو رسمه ، وتسويغا[2] لا يطيش سهمه ...

يتصرف فيه هذا الديوان ، ويستبد به ملكا ويفاوض فيه مشاركا ، ويزرعه متمثلا ، ومضمنا ، ويستثمره عادلا في أهله محسنا لا تتعقبه الدواوين بتأويل ما ، ولا الأحوال بتحول ما ، ولا الأيام بتنقلها ولا الأغراض بتعقبها ، ولا اختلاف الأيدي بتنقلها ، ولا تعترضه الأحكام بتأولها . وقد أوجب أمير المؤمنين أن يتحاما[3] هذه الناحية بضرره ويقصدها بجميل أثره ، ويحيطها بحسن نظره ... ولا يمكّن منها مستخدما ، ولا يكلف أهلها مغرما ، ويجريها مجرى ما هو حمى ... فمن قرأه فليعمل به "[4] .

وهو منشور اداري أشبه بصك الملكية في أيامنا ، لا تربطه بالأدب الا هذه الصناعة الأدبية ، وذلك الأسلوب الجزل وبعض الومضات من الصور البلاغية الجميلة والعبارات الرشيقة كقوله : " وأمير المؤمنين بحر ينشئ من آله السحاب المنزل " أو قوله : " تسويغا لا يطيش سهمه " ، والا

---

(١) في أساس البلاغة : عبر الدنانير تعبيرا وزنها دينارا دينارا .. ويظهر أن عبرتها في النص بمعنى صفتها .

(٢) التسويغ من ساغ له الطعام والشراب أي طاب وأصبح هنيئا . أساس البلاغة .

(٣) يتحاما هذه الناحية يتجنبها .. من الحمى .. أساس البلاغة .

(٤) صبح الأعشى ١٣ / ١٣٢ ومابعدها .

فلا يمكننا أن نتحسس من خلاله عاطفة حارة أو فكرة جديدة أو معنى ساميا يثير عاطفتنا أو يهيج وجداننا .

كما نلاحظ أن كثرة التكرار والترادف في الجمل المعطوفة بالواو تبعد الجواب عن الشرط والخبر عن المبتدأ والمفعول عن الفعل الى درجة ينسى معها القارئ الشرط واذا عثر على الجواب بعد رحلة طويلة مع هذا الترادف المحلى بالسجع لزمه أن يبحث عن الشرط من جديد فمفعول : " أمر بأن يوعز " في المنشور حال بينه و بين فعله جملة طويلة في مدح الوزير المفوض بانفاذ الاقطاع ، بلغت ستة أسطر ، و ربما بلغت نصف صفحة .

و هذا منشور كتبه مجد الدين مبارك بن الأثير ، الأخ الأكبر لضياء الدين بن الأثير — عن السلطان مسعود بن مودود بن آق سنقر ضمنه ذكر باغى انضم الى عدو له يدعى " مجاور " :

" الحمد لله مديل الحق على الباطل ، و معليه ، ومنيل الظفر بالخاذل ومولیه ، وملحق الغدر بفاعله ، و محيق (١) المكر بقائله ، الذى عضّد أولياء الدولة بالتوفيق ، وسلك بهم من السداد أقوم طريق . نحمده على منته الجسام ، وآلائه الوافرة الأقسام ، و نصلى على محمد عبده ورسوله المختار لوحيه المؤيد من اقتدى بهديه . . أما بعد : فان عوائد (٢)

---

(١) الحوق : اجتياح المال من الخلف والاحاطة به .
(٢) العوائد : جمع عائدة . . وهي فعل الخير مرة بعد مرة .

الله ما زالت لدينا مفترّة المباسم ، ونعمه ما برحت عندنا قائمة المواسم ، ما تذهب منها من نعمة الا تردفها أخرى ، ولا تنقضى منها موهبة الا أذنت بأمثالها ، فمن منحه التي جددها لدينا ، وأفاضها علينا أن جعل أولياءنا في كل مسعى منجحين ، وعلى أولى الجدّ والجدّ مرجحين ، وقرن بأعمالهم النصر والتأييد ، وبأقوالهم الصواب والتسديد ، وألقى في قلب من حدّث نفسه شقاق ، أو جال في خاطره لدولتنا شايبة نفاق ، رعبا بلغ بقلوبهم الى الحناجر (١) ، وذلا يحلهم محل الحاين (٢) الفاجر ، ولما كان الأخ شرف الدين / بلغنا الله فيه الآمال والظنون كما أقرّ بحياته العيون ، / ممن اذا اضطلع بأمر كفاه ، واذا تكفل بعظيم وفّاه ، واذا هم بجليل بلغه و ناله ، واذا عزم على كبير فعله و قاله ، واذا حطت به الأثقال نا ءبها ، واذا نيطت به المهام أحكم واهي نسجها ، فلهذا اشتد بناه في قصد الأعداء المارقين ، الخالعين ربقة الطاعة ، والفاسقين الذين سول لهم الشيطان وأملى لهم ، وزين لهم الطغيان " فأضل أعمالهم " (٣) . فقام في ذلك مقاما شكرت فيه مساعيه ، وأسفر عن النجح صبح دواعيه ، وجلّى في مضمار المراد بسوابق الظفر والانتصار وجلى اخضرار المراد بوارف النصر والاستبصار ، حتى انقسم الناكثون

---

(١) من قوله تعالى : " وبلغت القلوب الحناجر " سورة الأحزاب آية ١٠ .

(٢) الحين : الهلاك .

(٣) سورة محمد آية ٨ .

من بأسه الى أقسام ، ما بين فرادى في الصنع وتوءام ، فمنهم من رأى الطاعة مغنما فحواه ، والوفاء ذخيرة فاقتناه ، والولاء عزا فسابق اليه والصفا كنزا فحافظ عليه ، ومنهم من رأى الهرب ملجأ والهزيمة موئلا والفرار مخرجا ، والنفار معقلا ، ظنا أن مهربا ينجيه أو مولجا يوءيه ، فوجد عليه الارض كفة حابل ، وكل وزر اعتصم به غير قابل ، ومنهم من أصر على العناد والشقاق ، ومتحيزا الى الفئة الخارجة عن الوفاق ، فهم من خوفهم المتوفر لديهم "يحسبون كل صيحة عليهم" (٢) وكان قد أسلمتهم الايدى التي اعتقدوها ناصره ، وعميت عن هدايتهم الاعين التي ظنوها باصرة ، وأمطرتهم ظلل العذاب رجزا ألحقهم بالاخسرين فأصبحوا "يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى الموءمنين" (٣) فرسمنا والله يجعل أوامرنا نافذة وأيدينا بنواصي أعدائنا آخذة ، أن يضاف الى ما في نظره وحكمه ما يرد في هذا المنشور باسمه ويعين من ديوان الاستيفاء (٤) برسمه فلينهض وفقه الله وأيده وأمده بنصره وسعده بما ورد اليه من هذه الايالة ، العظيم أمرها ، وعوّل عليه من هذه الولاية السني قدرها ، ويقوم في الاهتمام بها مقام مثله ، موضحا معالم الملك جامعا لشمله ، و يخطر في ابراد العدل سابغه ، ويرد أصواه الاحسان سائغه ، والله سبحانه

---

(١) كفة حابل : مصدة من يستعمل الحبالة للصيد .
(٢) سورة المنافقين آية : ٤ .
(٣) سورة الحشر آية : ٢ .
(٤) ديوان الاستيفاء كان بمثابة ديوان المراقبة في وقتنا ، انظر صبح الاعشى ١١/٣٢٥ .

بهى ؛ لدولتنا حجة ، وبرهانا ، ويجعل لأيامنا بمن نقيبته عضـــدا وسلطانا»(١) .

وهي رسالة جيدة السبك ، مختارة الألفاظ ، يستمد أكثرها من القرآن الكريم ، كالبشرى ، وأذنت ، والشقاق ، وتكفل ، ونبأ بها ، وسول ، فأضل أعمالهم ، وأملى لهم ، مقام ، ملجأ ، بنجيه ، يؤيه ، وزر ، اعتصم متحيزا الى فئة ، وجزا ، الأخسرين ، بنواصى ، ظلل ، وكذلك ألفاظ الحديث .. كما نلاحظ عدم تعويله على الجناس الذى رأينا الفاضل ومن جرى في حلبته يولونه اهتمامهم .

وان كانت الرسالة مبنية على السجع والطباق وغيره من أنواع البديع ، الا أنهـا خفيفة الصنعة ، لتمكن البارك من اللغـة ولغزارة معانيه .. وثروته اللفظية .. ولا غرو فهو عالم من علماء الحديث ، له مصنفـات عدة تدل على عمق ثقافته ، وتمكنه من زمام القول .

ولا أظن ابن الأثير تكلف انشاءها ، ولا حرص على أن يحشـد فيها ألوان المحسنات .. أو يستجلب لها كلمات من أجل توافق السجع أو لاثبات افتنانه في الجناس .

ولذلك لم نشعر عند قراءتها بذلك التكلف الذى غالبا مـا

---

(١) كتاب الرسائل ، أو رسائل ابن الأثير ص ٧-٨ وهي نفس مخطوطة أحمد الثالث تحت رقم ٢٦٣٠ . وعنوانها فيها " كتاب مكاتبات الوزير الجزري في الترسل " الا أنه ينسبها لضياء الدين .

تحدثه الصناعة اللفظية .. وكأن هذه الرسالة تنتسب الى زمن متقدم على زمنه .. ولعل اشتغاله بالعلم ،والتأليف شغله عن التعمق في الصناعة اللفظية .. وعول على ما تمليه قريحته ،وما يوافق طبعه .

ولقد قارب الحقيقة جامع رسائله حيث قال يصف رسائله : "فهي في الكلام والقياس كالكرام في الناس ،وانما صغر مقدار حجمها وان كبر قدرا وقلت أوراقها وان كان قلّها كثرا ، مع مخاطباته للملوك عن الممالك ومجاوباته مما يرد عليه من مثل ذلك لعدم مراعاته حفظها وقلة مبالاته بحصرها ،وصرف عنايته الى ما هو آثر عنده وأعلق بمهجته منها ... بل كان مصروف قوى العزيمة ظاهر الميل الى تفسير كتاب الله تعالى وكشف غوامضه ، والوقوف على دقائق معانيه ،وشرح أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وايضاح مشكلاتها ،وتبيين ما غمض منها الى ما أتاه الله من تفننه في العلوم وأخذه من كل فضيلة بقسط وافر"(١) .

السجلات :

قد يكون الاسم مأخوذا من تسجيل ذلك العهد ، أو المنشور في سجلات الديوان(٢) ... ويقول القلقشندى ان الفاطميين كانوا

---

(١) كتاب الرسائل ،أو رسائل ابن الاثير ص ٧ .
(٢) يقول ابن منجب : "السجلات كانت تطلق في عهد الفاطميين على المكاتبات التي يبعث بها من ديوان الانشاء الى الاعمال لابلاغ حادثة من الحوادث الخاصة بالخليفة كركوبه في الاعياد / قانون ديوان الترسل ص ٨٠ .

يسمون جميع ما يكتب من ديوان الانشاء سجلات وربما سموه عهودا [١] .
وهذا سجل كتبه ابن الخلال من العاضد (٥٥٥—٥٦٧ هـ) بالوزارة لشاور السعدى ، بعد أن كانت له الكرة على ضرغام.

" أما بعد : فالحمد لله مانح الرغائب ، ومنيلها ، وكاشف المصاعب ومزيلها ، ومذلل كل عصبة كلفت [٢] بالغدر والشقاق ومزيلها ، وناصر من بغي عليه ، وعاكس كيد الكائد اذا فوق سهمه اليه ... يحمده أمير المؤمنين على نعمه التي جعلته للبشر اماما ، وأمضت له في المشارق والمغارب أوامر وأحكاما .. واستخلص لانجاد دولته من أوليائها أكملهم شجاعة واقداما ، وأحسنهم في تدبير أمورها ، قانونا ونظاما ، وأتمهم لمصالح أجنادها ورعاياها تفقدا واهتماما ... وان أمير المؤمنين لما اختصه الله به من المنصب الشريف ، وسما به اليه من المحل الشامخ [٣] المنيف ، يبذل جهده في الاستعانة بمن تقوم به حجته عند الله بالاعتماد عليه ، ويتوثق لنفسه في اختيار من يقوم برضى الله في اسناد الأمور اليه ، ويحرص على التفويض لمن يكفي في التدبير ، وتحيط غاية نظره بالصغير من رجال الدولة والكبير ، تقربا الى الله بالعمل فيما ولاه بما يرضيه وازدلافا [٤] باتباع أمره في كل ما ينفذه ويمضيه.

---

(١) صبح الأعشى ٣٠٨/١٠ .
(٢) الكلف : كلف به اذا تكلفه وكلف بالمرأة : حبها حبا شديدا . أساس البلاغة .
(٣) شمخ بأنفه : تعالى وتكبر .. والشامخ هو العالي والمنيف بمعناه أساس البلاغة .
(٤) ازدلافا : تقربا ، أزلفته : قربته . أساس البلاغة .

وقد كان أمير المؤمنين تصفح أولياء دولته ، وعظماء مملكته ، وأكابر شيعته ، وأنصار دعوته ، فوجدك أيها السيد الأجل أكملهم فضلا ، وأقلهم مثلا ، وأتمهم في التدبير والسياسة ، انصافا وعدلا ، وأحقهم بأن تكون لكل رياسة وسيادة أهلا ، ففوض اليك في أمور وزارته ، وعول عليك في تدبير مملكته ، وجمع لك النظر فيما وراء سرير خلافته ، فجرت الأمور بمقاصدك السعيدة على ايثار أمير المؤمنين وارادته ، واستمر أمر المملكة بمباشرتك على أحسن قانونه وعادته ، وشملت الميامن والسعود أتم اشتمال على تفصيله وجملته ، وانحسمت الأدواء ، وذلت بسلطتك الأعداء ... ولما وجّهت الى أعمال أمير المؤمنين بمن استصحبته راجيا من عدوك الانتصار ، قاصدا ادراك الثار ، وحللت بعقوته (١) ، وخيمت في جهته ، فاتصلت بينكم الحروب ، وعز على كل منكما نيل المطلوب ، أنجدك أمير المؤمنين عند علمه ببلوغ الكتاب أجله ، واستيفاء الوقت المحدود مهله ... فحين عدت الى بابه عود الشموس الى مشارقها ، قبلك أحسن قبول ، وتلقاك بتبليغ السّول ... وجدد لك ما كنت تنتظر فيه من الوزارة ، ومباشرة ما كان مردودا اليك من السفارة والظهارة ...

ولم تزل للاسلام سيفا قاطعا ماضيا ، وعلى الالحاد سيفا مرهفا قاضيا ، تذود الشرك عن التوحيد ، وتصد الكفر عن الايمان فيحيد مرغما ويبيد ... فكم لك في خدمة أئمة الهدى من مآثر تؤثر فتبهج ، ويورد ذكرها فيغرى بالثناء عليك ويلهج ... فلذلك فزت بدعوتهم التي أعقبتك حسن العواقب ، وأحلتك المحل الذى لا تسمو الى رقيه النجوم الثواقب (٢) .

---

(١) العقوة : الساحة .
(٢) صبح الأعشى : ١٠ / ٣١٠–٣١٨ .

مناسبة هذا النص التاريخية أن أبناء شاور الوزير — أثناء وزارته الأولى سنة ٥٥٨ هـ تعاضوا على الناس ،حتى كرهوهم ، ثم قام أحدهم بقتل العادل رزيك (١) — الوزير السابق عليه وهو في السجن — فثار الناس بقيادة ضرغام (٢) وأخيه عليهم .. وكانا من صنائع رزيك ،فاضطر شاور للهرب للشام ،والاتصال بنور الدين زنكي حيث زين له الاستيلاء على مصر ، وتم بينهما اتفاق ،يأخذ بموجبه نور الدين ثلث غلة البلاد — ان هو أعاده على الوزارة — فأرسل نور الدين جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، فاستطاع ذلك الجيش خلع ضرغام واعادة شاور الى مكانه من الوزارة (٣) ..

وكل هذه الأحداث تدل — كما ذكرت — على أن الخلافة الفاطمية قد بلغت مرحلة الشيخوخة .. فالوزير ينال هذا المنصب مغالبة ، وما على الخليفة الا مباركة الغالب عليها .

أما أسلوب النص فهو يجرى على نفس النظام الذى رأيناه عند الفاضل ومعاصريه .. من حيث الاعتناء بالسجع وتطعيم النص بالمحسنات البديعية وتكرار المعنى بعطف الجمل المسجوعة بالواو ... الا أنه أخف تكلفا

---

(١) هو العادل بن الصالح بن طلائع بن رزيك تولى الوزارة من سنة ٥٥٦ الى سنة ٥٥٨ هـ .

(٢) هو ضرغام بن عامر اللخمى تولى الوزارة من ٥٥٨ هـ الى ٥٥٩ هـ .

(٣) انظر تفصيل ذلك في الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ٢٨٥ ومابعدها ،والروضتين ١ / ١٦٥ ومابعدها ،وموسوعة التاريخ الاسلامي ٥ / ١٤٦ .

للجناس والاستخدام وأقل استشهادا بالقرآن .

وإذا عرفنا أن ابن الخلال كان أستاذا للفاضل (١) لم نستغرب هذا التشابه بين أسلوبيهما .

الاستنجاد :

وهو طلب العون بالسلاح والمال والرجال في أيام الحروب ... وقد كثرت الرسائل في هذا الغرض لكثرة الحروب التي تعرضت لها الأمة الاسلامية في هذا العصر .. ومع أن الاستنجاد من أغراض الشعر .. فقد تطرق الكتاب اليه لمّا بدأت الرسائل تزاحم الشعر في أغراضه ، وحين أعطاها الناس اهتماما ، أخذت السبق على الشعر أحيانا .

كتب ضياء الدين بن الأثير يستنجد بخلافة بغداد أثناء حصار الصليبيين لحصن عكا ... وهو من معارضاته لرسائل الفاضل (٢) ، يقول :

" جأر (٣) الدين واستغاث بك الاسلام للنصر ، مستغاث الغريق ... أدام الله ديوان العزيز النبوى ،وحاطه بكلماته وأسمائه .. ونصر الاسلام بامداد جيوشه ونعمائه ... الخادم ينهى أن كتبه كانت

---

(١) انظر الروضتين ١ / ١٩٢ .
(٢) هو معارضة لرسالة للفاضل بهذا المعنى لخليفة بغداد ،انظر الروضتين ١ / ١٥٧ .
(٣) الجؤار : صوت المجل . أساس البلاغة .

كانت ترد معلمة الصدور ،موشية السطور ، تنقل أخبار النصر ،و تحدّث بلا حرج أحاديث البحر .

وقد انتقلت الآن الى الاستنجاد والاستمداد ،وتجهيز بعوث الأقلام لاستصراخ بعوث الجياد ،وكتابه هذا ينطق عن حال المجاهدين ، ويهز لنصره عزمات القاعدين ،فقد عم النفير (١) و قل النصير ،وان عادت البلاد المنتزعة من يد الكفار ،مرهوبة منهم بقارعة الحصار ،فلا ينبغي لمسلم أن تشغله ريحانة فؤاده عن أجر جهاده ،ولا يمنعه حب كسبه عن نصرة ربه ، ولا تلفته خلطة قطينه (٢) عن انجاد دينه * قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ،وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله ،وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره " (٣) .

وقد علم أن الخادم و من قبله من خيل الله قد أكلتهم الحرب الضروس ،و فنيت منهم الأموال كما فنيت النفوس ،واستمر ذلك فيهم حتى أتلف الوشيج (٤) جالبه وأفنى الحديد ضاربه ،وعلى هذا فان صبرهم في أوله ،لم تخلقه الأيام بتطاولها ،ولا أثرت فيه وطأة الحرب بتثاقلها ،

---

(١) النفير : الدعوة للحرب .
(٢) القطين : الخدم والحاشية ،أساس البلاغة ،وريحانة الفؤاد هم العيال .
(٣) سورة التوبة : آية ٢٤ .
(٤) الوشيج : عروق القصب ،قال زهير : "وهل ينبت الخطي الا وشيجه" أساس البلاغة ص ٦٧٦ .

ولئن نفدت نفقاتهم فما نفدت عزائمهم ، أو كلت أحوالهم ، فما كلّت صوارمهم ، غير أن العدو قد علم اقلالهم ، فزادت أطماعه ، وكثرت أشياعه وأنشب مخالبه في الثغر المحصور ، وفوق اليه سهم الساعد الموتور [1] . والخادم قد أنفق حتى أملق [2] ، وأخرج حتى أحوج ، وكلما سد خرقا وسّعت الأيام في خرقه ، وقذفه البحر من امداده بمثل طعمه ، ومثل خلقه ، فطرقه مسلوكه ، لا يهدى فيها بعلم منصوب ، ولا يستعان عليها بظهر مركوب ، بل يسرى فيها على الخيول التي أرواحها في جسوم الألواح ، وأزمتها مصرّفة بأيدى الرياح ، وهي تحمل من الحديد بحرا ، ومن الرجال جمرا ، وقد جاهدتها عساكر المؤمنين صابرة ، ورابطتها مصابرة ، وهي ممنوة بالثبات على حر الأقدام ، وضر الاعدام .

ولا يزيد ثباتها الا نجدة المال ، التي هي أنفع من نجدة الرجال ... وهذه النبوة هي أخت جيش العسرة ونصرة الاسلام فيها فوق كل نصرة ، ورب همة حطت ما تعجز عنه همم القوم ولمثلها قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم " [3] ...

---

(١) وترت الرجل : قتلت حميمه فأفردته منه . أساس البلاغة .

(٢) أملق الرجل حتى افتقر . أساس البلاغة .

(٣) انظر الحديث والمناسبة في تاريخ الخلفاء ص ١٥٢ ، ونصه هناك : " ما على عثمان ما عمل بعد هذه شيء " .

فليس كل زمان موسما ولا كل مكان معلما ... ودرجات الأعمال تتفاضل في الأوقات والمشاهد ، ولهذا كانت الصلاة الواحدة في المسجد الحرام كألف صلاة في غيره من المساجد "(١) .

ومناسبة هذه الرسالة : أن الفرنج لما هزموا في القدس سنة ٥٨٣ هـ تجمعت جيوش أوربا كلها ، ألمان وفرنسيون وانجليز ، وغزوا الشام من جديد فاستمادوا حصن عكا سنة ٥٨٥ هـ فيما عرف في التاريخ بالحملة الصليبية الثالثة وقد حشدوا جيشا قدّره ابن شداد بثلاث مئة ألف (٢) .

فحاصرهم المسلمون مدة عشرين شهرا ، ودارت بينهم معارك شرسة ، وتكبدوا من المشاق الكثير (٢) . وقد كتب الفاضل في ذلك كتابا الى ملك المغرب يطلب نجدته (٣) ، اذ كان المسلمون في ضائقة .

وبالرغم من قصر طلبه على المال دون الرجال ، فان خليفة بغداد رد الرسول خائبا (٤) .. ولم ينجدهم ملك المغرب بشيء .

والرسالة من أخف رسائل العصر تكلفا وثقل صنعة .. وقد طعمها ابن الأثير بالآيات والأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد والبذل

---

(١) رسائل ابن الأثير ، نشر نوري القيسي ص ٧٤—٧٥ .

(٢) انظر الروضتين ٢/ ١٤٢ ، ١٥١ ومابعدها وانظر الأعلام والتبيين ص ٨٥ ومابعدها .

(٣) انظر الروضتين ٢/ ١٥١ .

(٤) سوف يأتي خبر ذلك في الرسالة الآتية .

في سبيل الله . . ومع جودة تعبيره فيما يتطلبه المقام الا أنه لم يركـز على فضل الجهاد ،وعظم جزاء المنفقين في سبيل الله ،ولم يورد مـن الآيات والأحاديث ـ وهي كثيرة ـ ما يوضح ذلك ويدل عليه . ولعل اهتمامه بالصناعة اللفظيـة ألهاه عن ذلك .

ونسجل له حسن تصويره للسفن في البحر ،وتشبيهها بالخيـول في الصحراء " أرواحها في جسوم الألواح وأزمتها مصرفة في أيدى الرياح " أما قوله : أو كلّـت أحوالهم فما كلت صوارمهم . . فلو قال : " أوكلـت صوارمهم فما كلت عزائمهم " لكان أبلغ .

وهذه رسالة القاضل عن السلطان صلاح الدين الى المنصـور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب يستنجده على الصليبيين القاصدين بلاد الشام فيما عرف بالحملة الثالثة يحثه على امداده بالأساطيل ومهاجمة حاكم صقلية الذى كان يمدهم بالسلاح والمال (١) .

يقول بعد مقدمة طويلة يصف فيها ما ابتلى به المسلمون مـن هؤلاء الكفار :

" . . . وقد اشتهر خروج الكفار في الجمع الجم ، والعدد الدهم (٢) " كأنهم الى نصب يوفضون " (٣) وعلى نار يعرضـون (٤) .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في الحروب الصليبية لأرنست ص ٨٦ ومابعدها .
(٢) الدهم : الكثير .
(٣) سورة المعارج آية ٤٣ .
(٤) حل لقوله تعالى " ويوم يعرض الذين كفروا على النار . . " سورة الأحقاف آية ٢٠ .

ووصولهم على جهة القسطنطينية — يسر الله فتحها — على عزم الاعتصام الى الشام في منسلخ الشتاء و مستهل الصيف ،والعساكر الاسلامية لهم تستقبل ،والى حربهم تنتقل فلا يؤمن على ثغور المسلمين أن يتطرق العدو اليهم واليها ،ويفرغ اليها و يتسلط عليها " والله من ورائهم محيط ".(١)

واذا قسمت القوة على تلقي القادم ،وتوقي المقيم ، فربما أضر بالاسلام انقسامها و ثلمه — والعياذ بالله — انثلامها ولما محض النظر زبده ،وأعطى الرأى حقيقة ما عنده ،لم نر لمكاثرة البحر الا بحرا من أساطيله المنصورة ،فان عددها واف ،وشطرها كاف ،و يمكنه — أدام الله تمكينه — أن يمد الشام منه بمدد كثيف ،وحدّ رهيف ، ويمهد الى واليه أن يقيم الى أن يرتبع و يصيف ،و يمكنه أن يكف شطرا لأسطول طاغية " صقلية " ليحصّ جناح قلوعه(٢) أن تطير ، ويعقل عباب(٣) بحره أن يغير ،ويعتقله في جزيرته ،ويجرى اليه قبل جريرته ، فيذهب سيدنا و عقبه ،بشرف ذكر لا ترد به المحامد على عقبها ، و يقيم على الكفر قيامة تطلع بها شمس النصر من مغربها ، فاذا نفذ طريقه ،وعلم الناس بموفده ،أوردوا وأصدروا في مورده ،و شخص المسلم والكافر : هذا ينتظر بشرى البدار(٤) ، و هذا يستطلع لمن تكون

---

(١) سورة البروج : آية ٢٠.

(٢) القلوع : السفن.

(٣) عباب البحر : هيجانه

(٤) البدار : من تبادروا السلاح : تسارعوا الى أخذه .

عقبى الدار ،وخاف وطـأة من يصل من رجال الماء من وصل من رجال النار .. ولو بزقت عليهم بازقة غريبة لأغرقهم طوفانها ، ولو طلعت عليهم جارية بحرية ، نعقت فيهم بالشتات غربانها ، وما رأينا أهلا لهذه العزمة الا حضرة سيدنا — أدام الله صدق محبة الخير فيه — اذ كان منحه عادة في الرضى به ، وقدرة على الاجابة ،ورغبة في الانابة ، ولاية لأمر المسلمين ،ورياسة للدنيا والدين ... والآن فقد خلا الاسلام بملائكته ،لما خلا الكفر بشياطينه ،وما أجلت السوابق الا لاطلاقها ، ولا أثلت الذخائر الا لانفاقها ، وقد استشرف المسلمون طلوعها من جهته المحروسة جارا (١) من الأساطيل تفشى البحار ،وليالي من المراكب تركب من البحر النهار ،واذا خفقت قلوعها خفقت للاقلاع قلوب ، واذا تجافت جنوبها عن الموج تجافت من الملاعين جنوب ، فهي بين ثغر كفر تمتقله وتحصره ،وبين ثغر اسلام تفرج عنه وتنصره (٢) ...".

مناسبة هذا الاستنجاد ،هي نفس مناسبة الاستنجاد السابق (٣) ، ولما لم تجد هذه الصرخة ، أتبعها صلاح الدين باستغاثة أخرى ،كتبها الفاضل لعبد المؤمن ،قال فيه بعد أن ذكر له ما أعده الافرنج لقتال المسلمين :

---

(١) جارا : غيث غزير كثير الحظ ،مخففة ، من جارّ أو جأر .
(٢) صبح الأعشى ٦/٥٢٦ — ٥٣٠ .
(٣) انظر تفاصيل أكثر في الحروب الصليبية لآرنست ص ٨٦ وما بعدها .

" وأن أمر العدو مع ذلك قد تطاول ،وخطبه قد تمادى ،ونجدته تتواصل ،ومنها ملك الألمان في جموع جماهير مجمهرة ،وأموال قناطيرها مقنطرة ... وأن هذا العدو لو أرسل الله عليه أسطولا قويا يقطع بحره ، ويمنع ملكه ،لأخذنا العدو ، اما بالجوع والحصر ،أو برز فأخذناه بيد الله تعالى الذى بيده النصر ..

فان كانت الأساطيل بالجانب الغربي ميسرة ،والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقاء فارهة [١] غير كارهة ،فالبدار البدار .. وان كانت دون الأسطول موانع ، اما من قلة عدة ،أو من شغل هناك بمهمة ، أو بمباشرة عدو ما تحصن منه العورة ،أو قد لاحت منه الفرصة ،فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبلها مسدودة ،ولا أنواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال وتارة بالمال ...

فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر ، ولا يعين الاسلام الاسلام، وما اختصّ بالاستعانة الا لأنْ العدو جاره ،والجار أقدر على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ..." [٢] .

وقد أرسل ابن منقذ برسالة ثالثة مع هدية سنة ٥٨٦ هـ في رمضان من سنة ٥٨٦ هـ فلم يصل المغرب الا في ذى الحجة من نفس السنة وبقي هناك الى سنة ٥٨٨هـ [٣] .

---

(١) فارهة : طيعة جميلة .

(٢) الروضتين ٢/١٧٠ — ١٧١ .

(٣) انظر تفصيل ذلك في الروضتين ١٧٢/٢ ومابعدها .

ومع ذلك لم تنجح وفادة ابن منقذ ، ولم تحرك سلطان المغرب بلاغة الفاضل ،وقد عزا ذلك المقدسي الى أنه لم يخاطب "بأمير المؤمنين" على جاري عادتهم . . فلنا أن نستغرب مدى محافظتهم على الألقاب ونستغرب أيضا أن يكون سبب ضعيف مثل هذا مانعا لسلطان مسلم من نجدة المسلمين المستغيثين به ، ضد عدوّ مشترك ،وبخاصة أن ابن عبد المؤمن هذا ممن عرف عنه حب الجهاد واقامة الشريعة (١) .

<u>أغراض أخرى :</u>

١ — الحث على الجهاد والصبر على ملاقاة الأعداء :

كتب الفاضل للناصر صلاح الدين يقوى عزمه ويسليه عما عاناه من شدة ابان حصار حصن عكا — الذى مر بنا ذكره — مع قلة اليد وضعف النصير يقول :

" . . وما تجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا ، وما أرجف (٢) به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة ،والبعيدة ،وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة . . . وحاجة المولى من الانفاق الى ما لا يسعه التدبير ،ويضيق عنه الامكان . . . وبخل الأيدى بالمعونة ،

---

(١) انظر الروضتين ٢ / ١٧٤ وانظر اعتذار الفاضل عن عدم ذكر اللقب ٢ / ١٧٥ من الروضتين .

(٢) الارجاف : الاسراع : رجف البحر اضطربت أمواجه ،أساس البلاغة .

وانفراد المولى بالتعب ،واشتراك الناس في الراحة ،وما ابتلى به المسلمون من مرض ، أظهروه ليكون لهم عذرا في القعود ،وكتمه المولى على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، فهذه الأمور — وان كانت شدائد ، وزادت على العوائد[1] فقد الهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن الصبر ،ليشعره أن صبره يعقبه النصر ،وحسبته يعقبها الأجر ، ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى ،وعروة عزمه أوثق العرى ، لما أهله لأن ينصر ملة لا يعرف الملوك غير الله ينصرها ،وغير مولانا يباشر النصرة ويحضرها ،فليس الا التجرد للدعاء ،والتجلد للقضاء ،فلا بد من قدر مفعول ،ودعاء مقبول ... ومعاذ الله أن نغلب على النصر، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر .. واذا كان ما يقدم الله اليه المماليك قبل المولى لا بد منه —وهو لقاء الله سبحانه — فلأن نلقاه والحجة لنا خير من أن نلقاه والحجة علينا ، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا ، فتبهر[2] صبره وتطأ صدره " فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم "[3] وهذا على دين ما غلب بكثرة ،ولا نصر بثروة انما اختار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوى قلوب سمه وحالات ،فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة "[4] واشتدى أزمة تنفرجي)[5] والغمرات تذهب

---

(١) العوائد .. مفردها : عائدة : يقولون فلان كثير العوائد على قومه أى كثير فضل الخير.

(٢) بهره — غلبه .

(٣) سورة محمد آية ٣٥ .

(٤) سورة الأحزاب آية : ٢١ .

(٥) مثل قديم . انظر المستطرف ١ /٢٨ .

ثم لا تجى ، والله تعالى يسمع الأذن ما يسر القلب ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب ، ونستغفر الله العظيم فانه ما ابتلى الا بذنب. (١)

وهذه القطعة يمكن أن نسميها خطبة الحرب .. وهي من رسائل الفاضل التي يقول عنها صلاح الدين : " لا تحسبوا أني فتحت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم الفاضل ... ولا شك أن كلام الفاضل هذا وقع على قلب سلطانه كالسكينة ، في وقت بلغ اليأس مبلغه من قوة العدوّ وخذلان الصديق وطول مدة الحصار .. فقد تخلى من نصرته ملوك المغرب والمشرق وبقي وحده أمام جيوش تعد بمئات الآلاف ومع ذلك .. فقد بقي على حصارهم عشرين شهرا وما دعا أفراد جيشه أن يختلقوا الأعذار للقعود .

وفي هذه الظروف العصيبة يحتاج المرء الى من يشجعه ، ويبعث فيه روح المقاومة والصبر ... ولذا نرى الفاضل يطلب منه أن يصبر ويصابر لأنّ ما بعد الصبر الا النصر ، وما بعد الشدة الا الأجر ، ويذكره أن الله لو لم يعلم ما يتمتع به من قوة العزم ، واحتمال الصبر ، لما أهله لهذا المقام .

ثم أنه اذا لم يكن بدّ من الموت فالأولى أن نلق الله والحجة لنا لا علينا ..

واذا ابتلى المؤمن بشدة فلا يضيق ذرعه بها .. لأنّ الأزمات

---

(١) الروضتين ٢/١٦٦–١٦٧.

اذا بلغت منتهاها انفرجت .. ثم يشفع ذلك بالآيات الحاثة على الصبر وعدم الذل والهوان : " فلا تهنوا " .

وعاطفة الفاضل في رسالته هذه حارة صادقة تقوّى العزم ، وتقرب الفرج والنصر ، وتعزّى المبتلى عن مصيبته . وقد اختار من الحكم وجوامع الكلم ما يسكن القلوب المضطربة . ويقول له من كتاب آخر :

" يامولانا أليس الله تعالى اطّلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ولم يختر .. في اقامة دينه واعلاء كلمته .. وحفظ قبلة موحديه الا أنت ؟

هذا وفي الأرض من هو للنبوة قرابة ، ومن له المملكة وراثة .. فأقعدهم ، وأقامك ، وكسّلهم ونشّطك .. وحبب الدنيا اليهم ، وبغضها اليك ، وصعبها اليهم وهو نهاها عليك ، وأمسك أيديهم وأطلق يدك ، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك .. وثبطهم وسيرك " ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين "(١) .

نعم ، وأخرى أهم من الأولى : أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ومغرب الشمس ومزخر(٢) البحر ، ما تأخر

---

(١) سورة التوبة آية : ٤٦ .
(٢) زخر البحر : طما مده ، وزخر القوم : جاشوا لحرب أو نفير ، أساس البلاغة .

منهم متأخر ، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ،وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة ،لا أموال تنفق فيهم ،ولا ملوك تحكم عليهم ،ولا عصا تسوقهم ،ولا سيف يزعجهم "مهطعين الى الداعي"(١) ساعين في أثر الساعي ،"وهم من كل حدب ينسلون"(٢) ، ومن كل بر وبحر يقبلون ، كنت ،يا مولانا كما قيل :

ولست بملك هازم لنظيره   ولكنك الاسلام للشرك هازم

... هذا وليس لك من المسلمين كافة مساعد الا بدعوة ولا مجاهد معك الا بلسانه .. ولا خارج بين يديك الا بالأجرة ،ولا قانع منك الا بزيادة .. تدعوهم الى الله وكأنما تدعوهم الى نفسك ،وتسألهم الفريضة وكأنما تكلفهم النافلة ، وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم"(٣) .

وما أجمل هذه المقارنة بين صلاح الدين وسلاطين وملوك عصره ، وقد قارن قبله المتنبي بين سيف الدولة وملوك عصره فقال :

ليس من عنده تدار المنايا   كالذى عنده تدار الشمول(٤)

والفاضل يعبر عن الموقف بصدق ، فكما قارن بين صلاح الدين وغيره من الحكام ، أخذ يقارن بين استعداد الكفار للحرب واستعداد المسلمين ، فمع أن

---

(١) هطع : أسرع مقبلا طائعا .. سورة القمر آية : ٨.
(٢) سورة الأنبياء آية ٩٦ .
(٣) الروضتين ٢/١٦٧ ، ١٦٨.
(٤) ديوان المتنبي ص٢٢٦ ـ ط بيروت ـ سنة ١٩٠٠م

الكفار على ضلال وجهالة والمسلمين انما يشترون بذلك الجنة وأعظم بها من ثمن ، فان المسلمين متقاعسون لا يخرجون الا بثمن ،أما الكفار فيبادرون لأول نداء .

ان هذه الرسائل لا تقل تشجيعا وبثا للحمية عن قصائد الشعراء الفحول ... فهي تزيد الأبطال حماسا وتحبب البذل والتضحية والجهاد الى النفوس ،وتثير الحمية وتقوى العزائم وتهون الموت .

ونرى في هذه الرسالة صدق الشعور ،وحرارة العاطفة ،ولذا فهي أقل اعتناء بالصنعة .. بل نرى كاتبها يهتم بالمعنى ويفرع الأفكار .. ويوضحها .

واذا كانت تهيئة نفس القائد ،وتقوية عزيمته واستنهاض همته مما يرمي اليه الكاتب ،ويحرص عليه ،لأن القائد قدوة الجيش وشالمة ،فان الجيش والأمة كلها تحتاج الى من يشحذ همتها ويستثير حماسها وغيرتها .. ولذا

كتب الفاضل يستنهض الهمم ،ويستحث أهل الشجاعة والنخوة اذ يقول :

" لقد عرفنا خبر العدو المشئوم الواصل من جانب الروم ،وهذا أوان تحرك ذوى الحمية ،ونهوض أهل الهمم الأبية العلية ،وأنهم في كثرة ،مستتون (١) في طريق المشرة ، والسيل اذا وصل الى الجبل

---

(١) مستتون : أى مسحتون : بمعنى مستأصلين .

الراسي وقف ، والليل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف ،فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين ،وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين ،وأين المسلمون وحاشا أن يكونوا للاسلام مسلمين ،وأين المقدمون في الدين ومعاذ الله ألا يكونوا في نصرته مقدمين" (١) .

انه تعبير أديب صادق ،يقول ما يشعر به . . ومثل هذا القول يحفز الهمم ويثير في النفوس الحمية ويرفع من المعنويات ويدفع للاقدام فاما النصر أو الشهادة .

وغراه يتنبه لناحية حربية مهمة حين يهون من أمر العدو ،حتى يجترىء عليه المقاتلون . . لأنّ الهلع والخوف يهزم النفوس قبل الهزيمة في المعركة .

٢ — التوبيخ والتهديد :

كتب الفاضل أيام الوزير الفاطمي شاور — ٥٥٩ — ٥٦٤ هـ ،متوعداً محذراً بني جعفر وبني طلحة من القريشيين حين أثاروا الفتن عند نزول الافرنج بالقاهرة :

" نشعركم كافة القرشيين الجعافرة والطلحيين — أدام الله سلامتكم — أنه بينما نحن ننتظر (٢) وصولكم للجهاد ،وصيانة الحريم

---

(١) الروضتين ٢/١٥٧ .
(٢) في النص : " ننظم " ولا معنى لها .

والأولاد ، وطاعة الله سبحانه ، وولي الأمر في الوصول والانجاد اذ وردت الأخبار بأنكم عدتم الى البر الغربي ... مثيرين الفتن في الأعمال ، محاربين الله بكبائر الأعمال .. فلا نهضتم الى النصرة ، ولا قعدتم عن المضرة ، فليتكم لا أسأتم ولا أحسنتم ، ولا أطعتم الله ولا عصيتم ، ولكنكم قد استعذبتم طعم النفاق ، وأضراكم (١) العفو بسوء الأخلاق ، و ظننتم أنا يشغلنا عنكم شاغل ، أو يحول بيننا وبين استيفاء الحق منكم حائل ، وساء ما تتوهمون و « كلا سوف تعلمون » (٢) ، وأيم الله ليجدنّ المحسن عندنا عاقبة الاحسان ، وليجدنّ الطاغي لدينا عاقبة الطغيان ، ولنقابلنّ كل امرىء بما يستحق من العالمين ، وليجعلنّه سوء فعله نكالا (٣) في الدارين ، وقد علمت أن العفو شملكم حتى أفسدكم ، وأن سيف الانتقام أغمد عنكم و تغمدكم (٤) ، فالآن أي المعترتين تستقيلون ، وأى المعذرين تقولون ، : قعودكم عن الجهاد الذى فرضه الله على الخلق عموما ، وأوجبه عليكم خصوصا ، لأنكم تنزلون بلادا وأعمالا ، و ترتزقون واجبات ثقالا ، فبأى حق تستحقونها اذا لم تناضلوا وأى فرق بينكم و بين نسائكم اذا لم تقاتلوا ، لقد الحقتم العار بالعشائر ، و ذخرتم في صدور الأيام شر الذخائر ، ولا تظنوا أن الله بأيديكم ينصر ، ولا بسيوفكم الغائبة يقدم النصر ويحضر ، بل لله جنود غيركم .. وقد انفصل ملك الافرنج

---

(١) أضراكم : جرأكم .. وضرى فلان بكذا لهج به . أساس البلاغة .
(٢) سورة التكاثر آية ٣ .
(٣) نكالا : عبرة .
(٤) تغمدكم : غطاكم .

ـ خذله الله ـ عن القاهرة هاربا ، ولبلاده طالبا ، وانكسر أسطوله في البحر ، وولّى خائبا . . واحرصوا ألا ينصرف من طلبهم الى طلبكم ، فيضيق عليكم ما تظنونه فسيحا من مهربكم ، وتعتقدونه بعيدا من عطبكم ، وان أخرتم شيئا مما عندكم من المال والغلال ، ندبنا اليكم عساكرنا برا وأساطيلنا بحرا ، وصيرناكم عظة وذكرى ، وصيرناكم يقال : كان بهذه البلاد قوم ، يعرفون بالقرشيين .

أنذرهم سلطانهم ، وحذرهم سوء عاقبة البغي ، ونهاهم من ذميم السعي ، فلم يرتدعوا ، ولجوّا في التصامم فلم يعوا ، فخلت منهم المنازل ، واستبيحت منهم الحلائل" (١) .

من شروط رسائل الوعيد والتهديد أن تكون موجزة قصيرة العبارات ليكون تأثيرها قويا في نفوس المهددين ، وقد عرف الفاضل كيف يتغلغل الى أعماق نفوس القوم ويثير الرعب في قلوبهم ، بعد أن بكتهم وصور عظم جرمهم وحذرهم عاقبة أعمالهم مستقبلا .

" صيرناكم عظة وذكرى . . يقال : كان بهذه البلاد قوم . . . فخلت منهم المنازل واستبيحت منهم الحلائل . . "

وهي صورة . . لا يريد أيّ انسان أن يتصورها لبشاعتها . وفي هذا النص ما يوحي بأن القرشيين غير راضين عن خلافة الفاطميين ، وأنهم لا يقرونهم على ادعائهم نسب فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها بدليل خروجهم عليهم.

---

(١) الدر النظيم ص ٣٥ — ٣٦ .

٣ ــ العتـــــــب :

بعد انتصار المسلمين على الصليبيين في حطين سنة ٥٨٣ هـ ، وبعد أن فتح الله للمسلمين المسجد الاقصى بقيادة صلاح الدين .. أرسل بكتاب بشارة الى ديوان الخلافة ببغداد ــ وقد تلقب صلاح الدين بالناصر وكان هذا اللقب للخليفة العباسي أبي العباس أحمد بن المستضئ .(١) فشعر الخليفة بقوة عساكر صلاح الدين وخاف أن تزيد على قوة الخلافة ، فكتب اليه يوءاخذه ، ويعتب عليه ، ويستنكر ما بدر منه (٢) :

"ولولا مكـــان صلاح الدين من الخدمة والشح به والمنافسة فيـــه لما جوهر بالعتاب ، ولا رفع دونه الحجاب . بل كان يترك معـــه الأمر على اختلاله ، ويدمل الجرح على اعتلاله وقد ذكرت الاسباب التي أخذ هـــا الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله ، ليوعيها ــ كذا ــ (٣) سمعه ، الكريم و يستورى فيها رأيه الاصيل ، وينصف في استماعها ، والاجابة عنها غير عارج على الجدل ، ولا موءتم بالمراء المذمومين عقلا وشرعا ، بـــل يحمل قولي هذا على سبيل المماحضة والانتصاح وصدق النية في رأب التنائي والاصلاح ، فان ابمار الدواء المقر (٤) لا يتهم فيه الطبيب المجتلـــب

---

(١) تولى الخلافة سنة ٥٧٠ هـ وتوفى سنة ٦٢٢ هـ ، انظر مزيدا من أخباره في تاريخ الخلفاء ص ٤٤٨ وما بعدها ، وانظر تاريخ الامم الاسلامية ٥ / ٤٧٥ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك في الروضتين ٢ / ١٢١ وما بعدها وسنا البرق الشامي ص ٣٢٤ .

(٣) كان الأصل فيها ليعيها .

(٤) المقر : مقر الشيء صار مرا وأمقر الماء ، طح . الصحاح ٢ / ٨١٨ ، ٨٥٥ .

للعافية . . . ومن تلك المآخذ .. " أن من انتفى من العراق بسبب من الأسباب لجأ الى صلاح الدين ،فوجد عنده الاقبال عليه وكان الأدب يوجب ابعاد من أبعد عنه وتقريب من قرب اليه .. وان مما أضحك بثغر الاستعبار(١) ما انتهى عن العوام ،وأشباه الأنعام ،وطغام الشام من الخوض في المذاهب والانتهاء في التشيع الى اختلاف كل كاذب ، ومنهما ما جرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج ،وارهاج تلك الفجاج ، والاقدام على مناسك الله وشعائره وايقاد سعير الفتنة فيها ، ونوائره ،واحتذاء السّير القاسطة ،واحياء بدع القرامطة ،ما نفر منه كل طبع ومجه كل سمع ، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عنان أخيه فيما يفرض من سوابقه وأواخيه ،ومنها ما قضى الناس منه العجب ، وفورق فيه الحزم والأدب ،وهو ما أوجب التلقب باللقب الذى استأثر به أمير المؤمنين ،وقد ساوق(٢) زمان الدولة العباسية ـ ثبتها الله ـ خوارج دوخوا البلاد ،وأسرفوا في العناد ؛ وجاسوا خلال الديار"(٣) ، وأخافوا المسالك ، واستضاموا الممالك ،واقتحموا من الشقاق أشق المهالك ،فما انتهى أحدهم فيما احتقب(٤) وارتكب الى المشاركة في اللقب ،ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام " الذى يصلح للمولى على

---

(١) أي بفم مستعبر .
(٢) ساوق : فاخر . الصحاح ١٤٩٩/٤ .
(٣) سورة الاسراء آية : ٥ .
(٤) احتقب : من ملأ حقيبته .

العبد حرام" ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والأكراد ،ومراسلتهم ،ومهاداتهم ،وقرع أسماعهم بما يعود باستنزال أقدامهم ، وفل" عزائمهم ،وهم لا يعرفون الا أنهم رعية للعراق ،وخول[(١)] للديوان ،يرثون الطاعة خالفا عن سالف . . . وهذا كله لا أقوله انكارا لجلائل مقامات صلاح الدين ،ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين ، فانه — أدام الله علوه — رجل وقته ،ونسيج وحده . . الذى عهد فوفى ، واستكفى فكفا ،وطب فشفا ، فكيف يجوز له بسعادته أن يهجن[(٢)] مساعيه الغر المحجلة ،ويخرج من مكانته المكرمة المبجلة ويبطل حقوقه الثابتة المسجلة . . فقد علم كل من نظر في التواريخ والآثار ،ونصحته بصيرته في التبصر والاعتبار أن هذا البيت المعظم ما زال يرفع الأقدار الغاطسة فينزون عليه بطرا ،فيغار الله له منتصرا ، ويحقه عليهم اظفارا[(٣)] وظفرا ، كدأب آل طولون وآل ساسان ،وآل بويه ،وآل سلجوق ،وقرونا بين ذلك كثيرة ،فمن الذى زلزلوه فثبت ،ومن الذى حصدوه فنبت ،وأى نار أوقدوها فما خبت "[(٤)] .

---

(١) خول : حشم وخدم ،وخوله الذين يستحون منه . أساس البلاغة .

(٢) الهجين : ما كان أبوه عربيًا وأمه أعجمية أما اذا كان أبوه أعجميًا وأمه عربية ،فهو المقرف .

(٣) اظفارا : الاظفار : الكواكب أمام النصر — القاموس ٢ / ٨٤ .

(٤) الروضتين ٢ / ١٢٢ ومابعدها .

و هذه الرسالة من نماذج الكتابة في مشرق الدولة الاسلامية في القرن السادس الهجرى .

و رغم أننا لا نستطيع الحكم على أسلوبها بدقة لأن المقدسي أوردها مقطعة ، فاننا نلاحظ فيها التسلسل المنطقي للأفكار و حسن الاستدلال .. كما يلفت نظرنا ذلك الأسلوب " الدبلوماسي " الذى يأخذ جانب اللين والاطراء حينا حتى اذا اطمأن القلب به وآمن ، أخذ جانب العتاب .. و بعد المقدمات اللطيفة المتأدبة يصل الى مرحلة التخويف والتهديد المبطن ... في صورة التذكير والاعتبار بالسابقين الذين ناوءوا ذلك البيت فأمكن الله منهم ... وقد كشفت لنا هذه الرسالة سوء تصرف سيف الاسلام أخى صلاح الدين من ازعاج الحجاج وسوء معاملة أهل الحجاز الا أننا لا ندرى تفاصيل ذلك ..

والرسالة تأخذ جانب العتاب أكثر من أخذها جانب التأنيب والتهديد .. وكأن الخليفة — مع تخوفه من ازدياد قوة الأيوبيين — لا ينكر أفضالهم على العالم الاسلامي أجمع وقد اعترف بذلك لصلاح الدين .. وسوف أورد رد صلاح الدين على هذه الاتهامات وان كانت كلتا الرسالتين لم تردا كاملتين فقد أورد الخليفة تهما لم يرد صلاح الدين عليها ، كما أجاب صلاح الدين عن أخرى لم ترد في عتاب الخليفة .

٤ — الاعتــــذار :

وهذا الرد بقلم الفاضل على لسان صلاح الدين يعتذر اليه :

"... وفي سابق الوقت قيل : " رب ملوم لا ذنب له "(١) ، وان كان — أعلى الله كلمته — أعتق في النصيحة وأوضح ، فقد أنهر الجروح وأوسع ، وربما بالغ الطبيب في اغراق المبضع فأوجع ، واشتد الألم وان لم يلــم ، لأنه غيــر خاف عن أحد من أهل ملة الاسلام ، وذوى العقول والاعلام أن الدين عقد — سيدنا ، ومولانا أمير المؤمنين صلى الله عليــه وسلم — (٢) ، واسطته وعقد هو رابطته ... وأن طاعته سبيل مــن خالفها ضلّ وغوى .. هذا ما يجب على المسلم اعتقاده ، فكيف يشك فيمــن هذا ما ينطوى عليه ضميره واعتقاده ... ، وأمير المؤمنين — أدام الله سلطانه — ... عين الحنيفية الصافية والنعمة السابغة (٣) ... المتمثلة أوامره ، طوعا أو كرها ، والسعيد من كان لدعواتها أسمع وأوعى ، وهو ولي أمر الأمــة وامامها وجامع شتات الملة ونظامها ، ... لا ينازع في ذلــك منازع الا والله بما يضمر عالم ، ولما يقول سامع ... وأما ما أنهى عــن

---

(١) انظر المثل وقصته في مجمع الأمثال ١/ ٣٠٥ .

(٢) غريب أن يصلى على الخليفة العباسي وانما وجدنا هذا النظام لدى خلفاء الفاطميين ولعل ذلك راجع الى ما رواه بعض المؤرخين من أن الناصر تشيع على مذهب الاثنى عشرية — تاريخ الخلفاء ص ٤٥١ .

(٣) سابغ : أى واسع يغطى .. ثوب سابغ أى مغطى جسمه كله .

يترامى به الى هذه الخطة[1] المرامي ، فانه وان دعت ضرورته الى اعانته ، وجبر كسرته فما أصغى الى شكاية أحدهم بسمع ، ولا التفت عليه بمجمع[2] ، ولا تمهن له في ذلك مطمع ... وأما نسبة ذلك الى الخادم واعتماده فهو الموجب لتلهوب[3] كبده ، واتقاده ، ونفور جفنه عن رقاده ، وكيف يكون ذلك وهو بطاعة هذا البيت الشريف الذى نزلت فيه الآيات ، ووردت الأخبار ، وعلى ولائه عاش الصلحاء ، ومات الأخيار ، واليه مقاليد الأمور ، وعليه أجمع الجمهور ، وبفضله نزل الكتاب[4] وهلك المرتاب وانه ما طمع في مناوأتهم الا من قمع ودثر ، ولا قاولهم[5] الا من درس فلا عين ولا أثر ، ولا تقلب عليهم متقلب الا عثر جده وعفر خده ، ورد الله كيده في نحره ... وقد وهب الله تعالى للرعايا عامة والمماليك الخدمة خاصة ، من فسيح رحمتها ، وتغمدها بالمواطف لمخطيء ومصيب ، ومتثبط عن الطاعة ومستجيب ، ما تحصل به الطمأنينة ، ولا سيما لمن لا يداخله في الخلاف حمية ولا مرق عن طاعتها مروق السهم عن الرمية ، ولا آخذته عن التنويه والانقياد سورة جاهلية .. وما ذكر ذلك الا لتثبيت البراءة من تحرض ما نقل الناقل " ليحق الحق ويبطل الباطل "[6] ثم مع براءة الساحة وثبوت النزاهة ،

---

(١) الخطة : الطريقة .. والمرامى : جمع مرام أى المغزى والهدف .

(٢) بمجمع : أى لم يلتفت عليه بكله .

(٣) التلهوب : من لهب النار .. وكان القياس التهابا ..

(٤) تعبير لم نجده الا في كتابات الفاطميين الامامية .

(٥) قاولهم : بمعنى خاصمهم .

(٦) سورة الأنفال آية ٨ .

فانه يلجأ الى معقل التجاوز والعفو .. " ويأوى الى ركن شديد "[1] ، والمجلس السامي أسماه الله ، يأسو[2] بطبه مرض هذه الحال ويحسم بدعوى عفوه هذا القول المحال ويقول الخادم : ان تجرع مرارة الاعتذار خير من التسرع الى المعارضة بالانكار . لا سيما مع ما يأمل من العفو لعظيم الزلات ... ولولا امتثالي لأمره واعتمادي لمرسومه .. لقلت : متى زلت بي عن الطاعة قدم ، واستقلت لي استقلالا يحمل على ندم ... وما تعرفت اليّ نعمة فكان لها مني تكثير ، ومذ غفلت عن شكر فافتقر الى تذكير ، وأما سيف الاسلام[3] فما جهل فيما اعتمد عن البيت وأهله ، ولا أنكر حدود حرمه وحلّه ، وانما عاين أمورا مختلّة وأموالا معتله ، فظن أنه يلم شعثها ، ويؤم متكثها ، ويثقف اعوجاجها ، ويسكن ارتجاجها ، فعدل المنهى عن الغرض كمن يصف للطبيب غير العرض ، وما قصد الا اطفاء الفتنة واخمادها ، ولو صادف الحساد اخمادها ... ولو علم أن هذا يقع من الخدمة الشريفة موقع السخط والانكار لكان له في حيازة مراضيها شغل عن تلك الأحوال والدخول فيها ، لكن غلب على ظنه أن فعله خدمة يتقرب بها الى حسن الآراء الشريفة ، لا ينسب الى الاقدام والاجتراء ، والحدود تدرأ بالشبهات "[4] والتوبة لمحو السيئات ، وأما الاتسام بما

---

(١) نص الآية " قال لو أن لي بكم قوة أو آوى الى ركن شديد " سورة هود آية : ٨٠ .

(٢) يأسو : يعالج .

(٣) شقيق صلاح الدين كان واليا على اليمن .

(٤) من قول الرسول صلى الله عليه وسلم " أدرؤا الحدود بالشبهات ".

استأثرت به الآراء الشريفة من اللقب المعظم فما كان ذلك الا من قبل أن يقع الاتسام النبوي — زاده الله جلالا — ولم يرسم فيه بما تقع الطاعة في مقابلته بالامتثال والارتسام ولم يجهل في ذلك مفروض ، ولا طمع أن يتناول الجوهر تناول العروض ،وكيف تحاول كف الثريّا باللمس وأين السها (١) من مطلع الشمس . . .

وأما مواصلة من أنكرت مواصلتهم من الأكراد فما كان ذلك لنقلهم من خدمة هو فيها يشاركهم ،قيام كل بها فرض عين من غير تخلف ولا مين (٢) ، ولكن كانت لهم وشائج (٣) نسب وولائج خدم وسبب فالتمست موافاتهم لتحصل مكافأتهم ، . . . ولولا ما قد ألف الخادم من التغلب في هذه البلاد والتصرف والتصرف فيها لمغالبة أعداء الله بالجهاد ،لود أن يكون تحت الولاية الشريفة حاضرا كما هو تحتها باد . . .

وأما ما ذكر فيه من توفير الغنائم والأنفال . . . فان العلوم النبوية محيطة بما قد جرت عليه عادة هذه البلاد من توفير ذلك على أهل المكابدة والجلاد . . . وأى حاصل يسلم للاختزان ، وأى عطاء ينتظر بشرط وميزان ،وليس الا أنفس تسلب ،وجثث تسحب ،ودماء تسكب ،ومهجات تطلب ،وكماة على حشاشاتها تغلب ،وفرسان على مناكبها تقلب وحمام

---

(١) نجم خفي صغير يسمى أسلم . أساس البلاغة ص ٢١٧ .
(٢) المين : الكذب .
(٣) وشائج : صلات ،والوليجة البطانة .

الأرواح يجلب ،وأخلاف المنية تدر قبل أن تحلب ،وشجعان بدمائها تزمّل ، مع ما يعلم أن الخادم ليس له داعية الى احتقاب مال ،ولا احتجان ولا ارتباط مقرف[1] ولا هجان ، وأن ركاز الأبيض والأحمر عنده تحلق فلا يمر عليه الا وهو منطلق ..."[2]

ونرى الفاضل قد مهد لرده بمقدمة تشعر الخليفة أن صلاح الدين حمل ذلك التأنيب محمل العتاب والنصيحة ،وهو من تجاهل العارف مع أن ذلك العتاب أمضّه وأوجعه ولكنه ألم يشبه الألم الذى يحدثه مضع الطبيب لمصلحة المريض .

ويوافق الخليفة في تعظيم بيت الخلفاء العباسيين وأنه ماناوأهم أحد الا اندثر وعثر جده وعفر خده ورد الله كيده في نحره . ليبعد عنه توهم التطاول على الخليفة أو المناوءة له .

أما اعتذاره للتلقب بلقب الخليفة فقصارى ما وصل اليه أنه تلقب به تبركا وانتسابا ،وأنه تلقب به قبل أن يتلقب به الخليفة ، فقد ورد في الروضتين أن الذى لقبه بذلك هو المستضئ والد الناصر[3] ..

---

(١) المقرف : ما يدانى الهجنة أى أمه عربية لا أبوه فالاقراف من جهة الأب ، والتهجين العكس .. انظر الأمالي للقالي ٧٤/١.

(٢) التذكرة للصفدى ٥٨—٦٠.

(٣) انظر الروضتين ١٢٢/٢.

ومن يقرأ هذه الرسالة يحسب أن صلاح الدين قائد وتابع لخلافة بغداد ، وما ذلك الا تأدبا منه ولأن القوم الى ذلك الوقت كانوا يحتفظون ببعض الاحترام للخلفاء ... وقد أحسن الاعتذار عن عدم ارسال الغنائم لبغداد ... وأي مال يبقى وليس الا الأنفس تسلب وجثث تسحب ...

وأبان أن تلك الغنائم تنفق في سبيل الله ومدافعة أعداء الله .. ولم يكن همه في ادخارها والتمتع بها ،وقد صدق ،فقد روى أنه لما توفى ما وجد في بيته سوى دينار واحد ودريهمات (١) .

والرسالة من الناحية الفنية أقل تكلفا بالمحسنات وأفانين البديع التي كلف بها الفاضل . كما أننا نشعر في بعض مقاطعها بحرارة العاطفة ، وصدق التعبير ، وجمال الخيال ... ولعل ذلك راجع الى أن الموقف يحتاج الى جلاء الفكرة ورد الرأى بالرأى ، وحشد الأدلة ، والتعمق في الأفكار ومتى كان هذا اتجاه الكاتب قلّت عنايته بالصنعة .

٥ — الوصف :

ومن رسالة لديوان الخلافة للفاضل في وصف كسرة الصليبيين على بحيرة طبرية :

"... وصبح الخادم طبرية ،فافتض عذرتها بالسيف ،وهجم عليها هجوم الطيف ،وتفرق أهلها بين الأسر والقتل ،وعاجلها الأسر،

---

(١) انظر النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٧ .

فلم يقدروا على الخداع والختل ،ونهب من الذخائر والأموال والعدد والأثقال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة ،والأنعام ما يزيد على التعداد ويعجز خاطر الشكر والاعتداد ، ولما قام قائم الظهيرة ،وقد أعدم الله الكفر ، ناصره وظهيره ، جاءت جموع الافرنج حاشدة ،وأتت لضلالها ناشدة ، وجال الملك ومن معه من كفاره ، ولم يعلم أن ليل الكفر قد آن وقت اسفاره ،فلما نظر اليها وقد "جعلنا عاليها سافلها"[1] وأيقظنا بصياح السيف نائمها ونهبنا غافلها نصب صليب الصلبوت ولم يعلم أن ناصر الكفر مكبوت ،وأن ما شاده من ضلالة "أوهى من بيت العنكبوت"[2] ،فحامت حول الماء صقور رجاله ،وعقبان خيله ،فأنهض الخادم ابني أخيه ،ولو أدركاه عليه لورّداه من دماء ملا عينه .. فبقي محصورا لا يمكنه القرار ،ولا يسوغ له الفرار ، وأضرم الخادم عليه نارا ذات شرار ،أذكرته بما أعدّ الله له في دار القرار، فلقيهم الخادم وقد اشتدت عليهم نيران العطش ،وجازاهم الله بما تقدم من سيئاتهم ،فاشتد عليهم بطشه اذ بطش ،فبنت عليهم سنابك الخيل سماء من العجاج ،نجومها الأسنة ،وطارت اليهم عقبان من الخيول قوادمها القوائم ،ومخالبها الأعنة ،وتصوبت عيون السّمر الى قلوبهم فكأنما تطلب سوادها ، وقصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنما أرادت أن تروّي جوءارها[3] ،فشربوا كأس المنون ، لما تـوردت صفحـات

---

(١) سورة هود آية : ٨٢ .
(٢) حل لقوله تعالىّ وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت " سورة العنكبوت آية ٤١ .
(٣) الجوءار : صوت العجل .

الصفاح ،وغازلتهم عيون الرماح ،وعقدت لهم الحوافر غماما من الغبار ، وأنزلت عليهم قطرا من السهام المتطايرة الشرار ،وحملتها رعود من الصهيل ،وأبرقت في جوانبها بروق من كل سيف صقيل .. وطحنتهم سنابك الخيل بمناكبها ،ورمتهم سماء العجاج بكواكبها ،وقضى الله نصر الملة الحنيفية واستظهار مواكبها ،ووضح للملك — لعنه الله — ما أخفاه عنه الباطل ،وأرته المعركة ما كان يستره عنه رأيه الخاطل ،وترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد ،وتسنموا هضبة من الأرض عسى تنجيهم من حر السيوف هاد (١) ،ونصبوا للملك خيمة حمراء ووضعوا عليها الشرك عماد ، وتولت الرجال حفظ أطنابها فكانوا أوتادها وفنزل أصحابنا عن ظهور الخيول ،وصعدوا اليهم واثقين بالملك المأمول ،وردت طيور النبال الى أوكارها من الجعاب ،وصوبت عيون السمر الى أمثالها من النجوم تشكو ظماء الكعاب ، وصهلت الخيول غيظا حيث لم تخضب بدمائهم حجولها ،واشتاقت الأرض الى وقع حوافرها التي تكسوها حلية السماء من الأهلة عندما تجولها ،فكانت الدولة للقائم ،ولم يتجاوز حده فيهم العدل الذى هو لازم ،فأخذ الملك أسيرا ،"وكان يوما على الكافرين عسيرا" (٢) وأسر " البرنس " لعنه الله فحصد بذره ،وقتله الخادم بيده فوفى نذره (٣) .

---

(١) لعله من هاد بمعنى حرك أى لم ينجهم من حر السيوف تحرك.

(٢) سورة الفرقان آية : ٢٦.

(٣) مرض صلاح الدين فقال له القاضل على سبيل التسلية : " أنذر أنك اذا أبللت وأظفرك الله بالبرنس والقومس — وهي ألقاب أمراء الجيش الصليبي — تقتلهما فنذر ذلك وحقق الله نذره " انظر البرق الشامي ص ٢٩٩.

وأسر جماعة من مقدمي دولته ،وكبراء ضلالته ،وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا ،ولم يبق أحد من الديوية (١) .

فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر ،و تداول فيه القتل والأسر ،وبات الكفار فيه مقرنين (٢) في الأصفاد ،متطين الأداهم الا أنها غير المطهمة الجياد (٣) .

وفي هذه القطعة تظهر براعة الفاضل في الوصف والتصوير والتشخيص ،وكأننا ونحن نقرأ هذه الرسالة انما نقرأ وصف المتنبي لمعارك سيف الدولة في شعره ... وليس ببعيد أنه عمد الى حل بعض أبيات من قصائد المتنبي تلك ... والكتّاب لا يجدون حرجا في ذلك بل يعدونه مما تجب معرفته .. واستخدامه .. والفاضل أجاد ذلك الوصف لأنه شاهده — وليس الخبر كالعيان — ولذلك جاء وصفه لقطات تصويرية متحركة .. وكأننا — ونحن نقرأه — نسمع صهيل الخيل وقراع السيوف ونرى لمعان السيوف واراقة الدماء وعجاج المعركة ...

---

(١) الديوية : معناها فرسان المعبد وقد تكونت هذه المنظمة ومنظمة الاسبتارية في مطلع القرن السادس في بيت المقدس واشتهرت بالشجاعة والارهاب ،راجع الحركة الصليبية ١/٤٨٦ .

(٢) مقرنين : مقيدين .

(٣) انظر كتاب / من ترسل القاضي الفاضل ،الجزء الأول عدد صفحاته ١٥٢ / كتبه موفق الدين بن الديباجي مصور بدار الكتب المصرية عن مخطوط بمكتبة بشير آغا تحت رقم ١٢٦ .

٦ — رثاء المدن :

كتب ابن سناء الملك الى القاضي الفاضل يعزيه عن سقوط عكا حين أخذها الافرنج من المسلمين بعد فتحهم لها يقول :

" ان الداهية التي أصمت ، وعمت ، وأصمت [1] وأصمّت ، ودهت الاسلام ودهمته ، وثغرت ثغره و هتمته [2] ، وأبدت به الاتيـــام اللئيمة من استرجاع العطية ما كانت كسته ، فان رحمة الله قريب ، وان صنع الله عجيب ، وأن نصر الله ينتظر ، وأن فتح الله يرتقب ، وأنا لا نقنط من رحمة الله ، وهل يقنط من رحمة الله الا عدوّ كافر ؟ ، ولا نخاف أن يخفى ديننا وقد ضمن الله أنه الظاهر ، ولا نخشى أن نخذل وكيف وربنا السلطاننا الناصر ؟

ولا نيأس من رحمة الله ، وكيف و نحن المؤمنون ؟ ، ولا نرهب أعداء الله و نحن حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون " [3] ، " و ما كان الله ليضيع ايمانكم " [4] و " عسى ربكم أن يرحمكم " [5] " و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا " [6] " وعد الله لا يخلف الله وعده " [7]

---

(١) أصمت : قتلت و في الحديث " كل ما أصميت ودع ما أنميت " أساس البلاغــة .
(٢) الهتم : انكسار الثنايا . أساس البلاغة .
(٣) أصل الآية " . . فان حزب الله هم الغالبون " سورة المائدة آية ٥٦ .
(٤) سورة البقرة آية ١٤٣ .
(٥) سورة الاسراء آية ٨ .
(٦) سورة النساء آية ١٤١ .
(٧) من قوله تعالى " وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد " سورة الرعد آية ٣١ .

" وكان وعد الله مفعولا "[١] ، " لا يغرنك تقلب الذين كفروا "[٢] ، وليتحقق نزول النصر على المؤمنين ان نصروا[٣] ، والأيام دول[٤] ، واذا قويت الأقدار فما أضعف الحيل ، و " لكل أجل كتاب "[٥] ، ولكل كتاب أجل ، ولا سبيل الى ازالة ما قد تقدم في القدم ، وسبق في الأزل ، ولنا رب واحد يكفينا ما اجتمعت عليه الأرباب ، ولنا حزب بقوة الله هو الغالب نقاتل به الأحزاب ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا "[٦] ، " وانا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا "[٧] . ولهذه الملة رب هو تعالى أكرم من أن يأخذنا باجرامنا ونبي لا يطيب له المقام المحمود ونحن في مذموم مقامنا ، ولا بد لربنا أن يجعل لنا الكرة الرابحة ، ولعدونا الكرة الخاسرة ، ولله تعالى في الغير خير ، وفي النعم حكم ، وفي الشدائد فوائد ، وفي المصائب مآرب لا تخلو أفعاله — سبحانه — من حكمة ، اما بادية لنا لنتنزه فيها ، واما خافية عنا لنثاب على الايمان بها .

---

(١) من قوله تعالى : " كان وعده مفعولا " سورة المزمل آية ١٨ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٩٦ .
(٣) من قوله تعالى " .. ان تنصروا الله ينصركم .. " سورة محمد آية ٧ .
(٤) من قوله تعالى : " وتلك الأيام نداولها بين الناس " سورة آل عمران آية ١٤٠ .
(٥) سورة الرعد آية ٣٨ .
(٦) سورة لقمان آية ٣٤ .
(٧) سورة الجن آية ١٠ .

ولذلك علّمنا ما قد قضاه في "مكا" ، ولا يخلو من حكمة قد بدا لنا فيها ، أنا ما عرفنا شكرها ، ولا أعطينا تلك العقيلة[1] حق مهرها فندمنا واستغفرنا واعتبرنا واستعبرنا ، واستيقظنا لشكر الله تعالى على ما بقي من الشام معنا ، وعرفنا بها الحزم الذى فاتنا فيها ، فاستدركناه فيما هو أشرف منها ، وتجرعنا[2] عليها كأس الحسرة ، فهانت علينا عند ها كأس المنية ، ولا نتخاذل الى أن نتجرع مثلها ، ولا نتقاعد الى لحوق سنّتها"[3] .

وهذه الرسالة توضح لنا مدى ميل الكتّاب في ذلك الزمن الى الاكثار من اقتباس الآيات القرآنية ، ليس هذا فحسب بل حلها ، واستعمالها فيما وافق المعنى الذى يريده الكاتب .

ورغم أن ابن سناء الملك من أكبر أدباء القرن السادس فقد حصر مقدرته البلاغية في ذلك ، وفي الحرص على السجع وغيره من المحسنات البديعية . . وقد قل اهتمامه بالمجاز الذى كثيرا ما يلتفت اليه الفاضل .

ولعل هذا عيب كتاب هذا القرن . . أعنى عدم اهتمامهم بالبلاغة والمجاز — أعنى علم المعاني والبيان بالقدر الذى أولوه البديع — فليست

---

(١) العقيلة : الكريمة على أهلها .
(٢) التجرع . . البلع مع الكراهة .
(٣) فصوص الفصول ص ٢٨ ، ٢٩ .

البلاغة محصورة في علم البديع الذي كان يعدّه القدامى من علماء البلاغة تابعا وذيلا لعلمي المعاني والبيان ، في حين وجدنا أدباء القرون المتأخرة يجعلونه أهم ما يحرصون على اظهاره في كتاباتهم ...

والمجاز علم بنيت اللغة العربية عليه ومن أجله وصف العرب بالبلاغة واللسن .. ولو تصفحنا كلام البلغاء منهم في القرون الأولى لوجدناه كله أو جله مجازًا ... ومن أجله عدّ كلامهم غاية في الجودة ،وآية في الجمال .. وهو ما ينقص أكثر كتابات المتأخرين .

ولكي نعرف منهج القوم في المبالغة وما يؤديهم اليه التهويل والتطويل .. والحرص على السجع وغيره من المحسنات الى الدرجة التي يحجون فيها المعاني حسب ما تقتضيه تلك الصناعة وذلك المنهج .. نطالع جزءاً من رسالة للفاضل في اطراء قصائد ابن سناء الملك .. وهي وان لم تكن من رسائل الديوان الا أنها مثال جيد يبين ما يعتمدون عليه في أساليبهم من تلك الظواهر الأسلوبية . يقول الفاضل :

"... وصل كتابه المعطوف على " الفائيه " الوفائيّة وقبلها " السينية " السنيّة ،وما يرينا من آية الا هي أكبر من أختها (١) وما يجلو علينا عروسا الا وقد جمع بين حسنها وبختها (٢) ،وقلّ ما يجتمع

---

(١) من قوله تعالى "ما نريهم من آية الا هي أكبر من أختها" سورة الزخرف آية ٤٣ .

(٢) البخت : الحظ ، والجد .

الحسن والبخت .. ولهذا قيل : وقد تخنى المليحة بالطلاق .. وعقائله المليحة لا تطلقّ ولا تطلق وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أنّ هذه بالقلوب تعلق ، وبالضلوع تعنق [١] .. فالمعلقات بعدها زادت على عددها ، وفضلتها — هذه — بخودتها [٢] وجدتها .

فأما الغائية فالواو عندها فأفاء ، ومن هو الواو الركيك ، بل كل شاعر مغلق على حروف المعجم عندها فأفاء [٣] ، وأوجه الحساد عند سماع قوافيها أقفاء [٤] ...

ولو استعطفت الفصاحة على الألسنة العربية بكلمة منها لعطفت وانعطفت ، ولو أن البلاغة حلة لكان لا بسها ، ولو أن الشعر حلية لكان فارسها ... وما انصرف عن بيت أشهد له بالسبق ، الا استأنفت بيتا أشهد له بأنه الأحق ، وكل يدلي الى القلب بحجة ، ويفد اليه بمقتضى لذة ، ومستظرف بهجة ، ولو ساعدني الخاطر والوقت الضيقان لوصفتهما مجتهدا ، واطنبت فيهما محتشدا ، وانبثثت [٥] لكشف محاسنها متجردا ، وأتيت على عيونها — وكلها عيون — معددا ثم كنت الجأ الى العذر ، والتمس منه أن يساعدني — حفظه الله — على ما يستحقه من

---

(١) من اعتنق الأمر لزمه . أساس البلاغة .
(٢) الخود : الشابة الناعمة .
(٣) فأفاء : هو الذي يتردد في كلامه بالفاء .
(٤) أقفاء : جمع قفا .
(٥) لعله من نبث التراب من الحفرة ، أخرجه أي نشطت .

معلني الشكر ،ولكن علم الله أن للخاطر متوزع ،وأن الدهر قد تفنن
في مكروهه وتنوع .. وأن القلم يكتب بدربته ،ويرسل نفسه على
سجيته ،ويسحب نفسه على أم رأسه ، وتأخذ العجلة بمضايق أنفاسه
... والقصيدة السينية ما وافقها ... رجل في طريقها .. بل قام المشترى[١]
أحسن القيام في قضاء حقوقها ،وتأخرت عندى الى أن سيرتها مقترنة
بالفائية ،لتكون البلاغة أكثر نفيرا ،ويكون بعضها لبعض ظهيرا[٢] ،
ولو أنصفناه لكان أدنى ما فيها من بيت يعمر ألف بيت ،وكان يوسف ،
ــ عروسها ــ قد قال لها وأغناها عن أن تقول له : هيت[٣] .
وقرنتها بفصل الى المقام الناصرى ،بينت فيه على أنها من القول الفصل ،
وأقمت الشهادة في بابه ، وان كان صغيرا فانه كبير أهل الفضل ،
الذى علمهم الفضل ،وأن الدولة بمدحه قد نزل عليها في الغابرين[٤] ،
وأبقى لها ذكرا حسنا في الذاكرين ،وقيد مآثرها ولا تزال طائرة على
ألسن الآثرين[٥].[٦] .

---

(١) المشترى : نجم.

(٢) الظهير : المساعد ،من قوله تعالى " لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " سورة الاسراء آية ١٧٢ .

(٣) هيت : بمعنى هلم .. أى تعال ،" وغلقت الأبواب وقالت هيت لك " سورة يوسف آية ٢٣ .

(٤) الغابرين : الباقين ،من قولهم فلان غابر بنى فلان أى بقيتهم، أساس البلاغة .

(٥) لعلها من الآثر .

(٦) فصوص الفصول ص ٣ ، ٤ .

وكل هذا الوصف والاطراء في قصيدة هنأ فيها ابن سناء الملك صلاح الدين الأيوبي على شفائه من مرض . وهي والسينية في " فصوص الفصول " على صفحتي ٤ ، ٥ . . وأول " القائية ":

نظر الحبيب اليّ من طرف خفي   فأتى الشفاء لمدنف من مدنف (١)

ومنها :

ودنا فسكن نار قلبي خـــده   أسمعتم نارا بنار تنطفـــي

لا أرتضي بالشمس تشبيها لهـا   والبدر لا بل أكتفي بالمكتفـي

تتلو ملاحتها محاسن وجههـــا   فتريك معجز آية في الزخـرف

وتقول من هذا وقد سفكت دمي   ظلما وتسأل عن فؤادي وهو في (٢)

ومن يطالع تلك القصيدتين يعجب كيف يقول الفاضل : لقد علقت العرب أدون منها . . اذ يريد أنها أجود من المعلقات وما ذلك الا امعانا فـــي المبالغة ، وزيادة في الوصف الذي هو بعيد عن النقد الموضوعـــي .

---

(١) الدنف : الذي ثقل من المرض ودنا من الموت . أساس البلاغة .
(٢) فصوص الفصول ص ٣ ، ٤ .

الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين والافرنج :

لكي نعرف العلاقة التي تربط صلاح الدين بملوك الصليبيين نورد هذه الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل .. الى "بردويل" ملك القدس معزيا له في موت أبيه ، ومهنئا له بجلوسه في الملك و مثل هذه الرسائل قليلة في المراجع العربية و لذلك قال القلقشندى : "والذى وقفت عليه من ذلك أسلوب واحد .. (١) يقول الفاضل :

" .. أما بعد : خص الله الملك المعظم ، حافظ بيت المقدس بالجدّ الصاعد والسعد الساعد ، والحظ الزائد ، والتوفيق الوارد ، وهناه من ملك قومه ما ورّثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ، فان كتابنا صادر اليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق (٢) ، والنعى الذى وددنا أن قائله غير صادق ، بالملك العادل الأعز ، الذى لقاه الله خير ما لقى مثله ، وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله ، معزّ بما يجب فيه العزاء ، ومتأسف لفقده الذى عظمت به الأرزاء الا أن الله سبحانه قد هون الحادث ، بأن جعل ولده الوارث ، وأنسى المصاب ، بأن حفظ به النّصاب ، ووهبه النعمتين : الملك والشباب ، فهنيئا له ما حاز ، وسقيا لقبر والده الذى حق له الفداء لوجاز ، ورسولنا ــ الرئيس العميد مختار الدين ، أدام الله سلامته ، قائم عنا باقامة العزاء من لسانه ، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق ، وخلوّ مكانه ،

---

(١) انظر صبح الأعشى ٧/١١٥ .

(٢) جمع الجمع مفرده أصدقاء .

وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه ،وقد استفتحنا الملك بكتابنا ، وارتيادنا ،ودادنا الذى هو ميراثه عن والده من ودادنا ،فليلق التحية بمثلها ، وليأت الحسنة ليكون من أهلها .. وليعلم أنا له كما كنا لأبيه : مودة صافية وعقيدة وافية ، ومحبة ثبت عقدها في الحياة والوفاة ،وسريرة حكمت في الدنيا بالموافاة مع ما في الدين من المخالفات ،فليسترسل الينا استرسال الواثق الذى لا يخجل ،وليعتمد علينا اعتماد الولد الذى لا يحمل عن والده ما تحمّل ، والله يديم تعميره ،ويحرس تأميره ، ويقضى له بموافقة التوفيق ، ويلهمه تصديق ظن الصديق "(١) .

الرسالة كانت أيام الهدن بين صلاح الدين وملوك الصليبيين وفي وقت كان يحتاج فيه صلاح الدين الى مصانعتهم ،اذ كان في مرحلة تجميع القوى ،ولذا نرى فيها من المجاملات والاستعطاف ما ينافى حالة الحرب التى كانت قائمة بين الطرفين .. ويلفت نظرنا الى أن الرسالة مبنية على السجع وجارية على سنن الكتاب في أساليبهم المصنعة مع ملاحظة قلة المجاز فيها .. فكيف تسنى له أن يظهر ذلك في الترجمة .

---

(١) صبح الأعشى ١١٥/٧ + ،وبردويل : هو بلدوين الرابع تولى بعد موت أبيه سنة ١١٧٤م ،وكانت هذه الرسالة أيام صلاح الدين في طور تجميع القوى ومهادنة الافرنج ،راجع كثيرا من التفصيلات في الحركة الصليبية ٧١٠/٢ .

والذى يظهر أن " بودوين " يعرف العربية .. ولا يستغرب ذلك اذا علمنا أن غزو الصليبيين دام للقدس مدى جيلين وأن بلدوين تولى الملك مكان أبيه وعمره ثلاث عشرة سنة فقط (١) .

فالذى ولد من أولادهم ،ونشأ فى البلاد العربية لا يستغرب منه أن يجيد العربية . أو أن المرسل كان يرفق الرسالة بالنص المترجم والناقل نقل النص العربى منها . ولا يخفى مدى الاختلاف فى الخطاب والدعاء والأسلوب بين الرسائل التى توجه لملوك المسلمين وهذه ... كما نلاحظ ،خلوها من الاقتباس من القرآن كما هى عادة الفاضل فى كتابته .

وهذه رسالة من امبراطور الروم الى صلاح الدين حول قدوم ملك الألمان عبر أراضيه وذلك سنة ٥٨٦ هـ :

" من " ايساكيوس " الملك المؤمن بالمسيح الاله ،المتوج من الله ،المنصور العالى أبدا " أنقموس " المدبر من الله القاهر الذى لا يغلب ،ضابط الروم بذاته " أنكل يوس ١١٨٥—١١٩٥ م (٢) الى النسيب سلطان مصر صلاح الدين ..

المحبة والمودة ، وقد وصل خط نسبتك الذى أنفذت الى ملكى ، وقرأناه وعلمنا منه ،أن رسولنا توفى ،وحزنا حيث أنه توفى في بلد غريب ،

---

(١) انظر الحركة الصليبية ٢ / ٧١٠.

(٢) هو اسحاق الثاني انجليوس ،انظر الحركة الصليبية ٢ / ٨١٣ .

وما قدر أن يتم كما رسم له ملكي ،وأمره أن يتحدث مع نسبتك ، ويقول في حضرتك ،ولا بد لنسبتك أن تهتم بانفاذ رسول الى ملكي ، ليعرف ملكي ما بعثت اليك مع رسولي المتوفى ،وأما القماش الذى خلفه ووجد بعد موته ،ينفذ الى ملكي ،لنعطيه أولاده وأقاربه ،وما أظن سمع نسبتك أخبارا رديه (١) . وأنه قد سار في بلادى الالمان ،وما هو عجب ،فان الاعداء يرجفون (٢) بأشياء كذب على قدر أغراضهم ،ولو تشتهى أن تسمع الحق فانهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلا حتى بلادى .

وقد خسروا كثيرا من المال والدواب ،والرحل والرجال ،ومات منهم كثير ، وقتلوا وتلفوا ،وبالشدة ،قد تخلصوا من أيدى أجناد بلادى ، وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون الى بلادك ،وان وصلوا كانوا ضعافا بعد شدة كثيرة ،ولا يقدرون ينفعون جنسهم ،ولا يضرون نسبتك .

وبعد ذلك كله ، العجب كيف قد نسيت الذى بيني وبينك وكيف ما عرفت لملكي شيئا من المقاصد والمهمات .

ما ربح ملكي من محبتك الا عداوة الافرنج وجنسهم ، ولا بد لنسبتك كما قد كتبت لملكي في كتابك الذى قد نفذت الينا من انفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت اليك في القديم من الحديث ،ويكون

---

(١) لعلها مخففة من رديئة ،بمعنى سيئة .
(٢) الارجاف : الاخبار بما يوقع بين الناس الاطراب .

ذلك بأسرع ما يمكن ،ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم ، فان ادبارهم على قدر نيتهم وآرائهم (١).

وجيش الألمان الذى يتحدث عنه الامبراطور ، هو ما يسمى فى التاريخ بالحملة الصليبية الثالثة .. فقد خرج الصليبيون فى عدة عظيمة بعد سقوط بيت المقدس على اثر انتصار المسلمين عليهم فى حطين سنة ٥٨٣ هـ .. وغزو الشام برا وبحرا وكان يقدر عددهم أكثر من مائتى ألف ،وقيل بل مائتان وستون ألفا (٢) .

وكانت الصلات بين صلاح الدين وامبراطور الروم فى ذلك الوقت حسنة ، ولذلك فقد صدق فيما أخبره به من ضعف الجيش الألمانى مع كثرة عدده (٣) .. ثم كفى الله المسلمين أذاهم حينما توفى ملكهم فى الطريق ،وسلط الله عليهم وباء أفنى عددا كبيرا منهم ، حتى طمع المسلمون فيهم وأسروا منهم طائفة ، كانوا يبيعونهم فى الأسواق بأبخس الأثمان (٤) . وكان قد أصاب المسلمين منهم كرب عظيم وظنوا أنهم سيجلونهم من الشام (٥) .

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٣٢ ، ١٣٣ .
(٢) نفس المرجع السابق ،ص ١١٥ ،ويقول صاحب كتاب "الحركة الصليبية نقلا عن بعض المؤرخين ان عددهم مائة ألف"
(٣) انظر قصة هذه الحملة بالتفصيل فى الحركة الصليبية ٨١٢/٢ ومابعدها .
(٤) انظر مفرج الكروب ٣٢٢/٢-٣٢٣ والروضتين ١٥٦/٢ .
(٥) انظر الكامل لابن الأثير ،حوادث سنة ٥٨٥ هـ .

أما من حيث أسلوب الرسالة .. فلا يرقى الى الأسلوب الأدبي وليس عليه أي مسحة جمالية .. بل تظهر عليه الركاكة .. التي لا ندري أهي بسبب رداءة أسلوب الرسالة قبل الترجمة ، أم أنها بسبب رداءة أسلوب المترجم نفسه . وانما أوردتها لتكون مثالا لرسائل الأعاجم المترجمة الى العربية (١) .

---

(١) انظر رسالة أخرى مترجمة من "كاغوس" الأرمني الى صلاح الدين في النوادر السلطانية ص ١٢٤ .

الفصل الثانى

نظم الرسائل الديوانية بين العهدين الفاطمى والأيوبى .

الفصل الثاني

نظم الرسائل الديوانية بين العهدين الفاطمي والايوبي

اهتم المؤرخون بنظم الدواوين وبخاصة في القرنين الخامس والسادس الهجريين وما تلاهما . فكما اهتم السابقون بالتأليف في تاريخ الديوان ،ومكانة الكاتب ،وصفاته ،وثقافته ، اهتم المتأخرون — زيادة على ذلك — بالتأليف في نظم ،واصطلاحات الرسائل ،وأولوا ذلك اهتماما كبيرا .

ومن الكتب التي ألفت في هذا الفن : " رسوم دار الخلافة "(١) للصابي ٤٤٨هـ ، و" مواد البيان "(٢) لعلي بن خلف ، من كتاب الفاطميين .

و" قانون ديوان الرسائل "(٣) لابن الصيرفي ت ٥٥٠ هـ ، و" قوانين الدواوين "(٤) لابن مماتي ت ٦٠٦ هـ ،و" معالم الكتابة ومغانم الاصابة "(٥) لابن شيث ت ٦٢٥ هـ ،و" المفتاح المنشا في حديقة الانشا "(٦) لابن الاثير ت ٦٣٧ هـ ، (" لمع القوانين

---

(١) مؤلفه / أبو الحسن هلال بن المحسن الصابي ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ح ٨١١٤ .

(٢) مؤلفه / أبو الحسن علي بن خلف بن علي بن عبد الوهاب الكاتب مخطوط بمكتبة الفاتح تحت رقم ٤١٢٨ بالسليمانية والجزء التاسع والعاشر منه لا يحتويه هذا المخطوط .

(٣) مطبوع سنة ١٩٠٥م بمطبعة الواعظ . بمصر بتعليق علي بهجت .

(٤) مطبوع ١٩٤٣م بمطبعة مصر تحقيق عزيز سوريال عطية والابواب من ١١—١٥ ساقطة

(٥) مطبوع ببيروت بالمطبعة الادبية سنة ١٩١٣م تعليق الخوري قسطنطين .

(٦) مخطوط مصور لدى معهد المخطوطات تحت رقم ٧٨٣ أدب ،ولدى نسخة منه

المضيئة في دواوين الديار المصرية "[١] لابراهيم النابلسي ت ٦٨٥هـ ، و" قانون الترسل "[٢] للصفدي ت ٦٩٦ هـ ،و" البرد الموشا في صناعة الانشا "[٣] لموسى بن حسن الموصلي الكاتب ت نحو ٧٠٠ هـ ،و" حسن التوسل الى صناعة الترسل "[٤] للحلبي ت ٧٢٥ هـ ،و" الرأى الصائب في اثبات ما لا بدّ منه للكاتب " لابن العماد[٥] ،و" التعريف بالمصطلح الشريف " للعمري[٦] ت ٧٤٩ هـ ، و" المقصد الرفيع المنشا الهادى الى صناعة الانشا " للخالدى ، و" صبح الأعشى " للقلقشندى .. وهو غني عن التعريف .

والمقصود بنظم الرسائل : مراسيمها وتقاليدها من ألقاب ومقدمات ، ودعاء وترجمة وخاتمة ... الخ

وندرك مدى أهمية هذا النظم من كثرة ما ألف فيها من كتب ، ومن مدى مراعاة الكتاب لها في رسائلهم .. فقد وضع للرسائل نظم مرعية لا يجوز الخروج عنها[٧] . بل وضعوا نظما لكل غرض من أغراضها .. فهناك شروط خاصة لكل من الولايات والعهود والبيعة ،

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية ،يتعلق بديوان الخراج .
(٢) مخطوط بمعهد المخطوطات تحت رقم /ح ١١٤ ٨.
(٣) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم / ٤٩٣٢ أداب .
(٤) مطبوع بالقاهرة سنة ١٣١٥هـ.
(٥) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات عن مخطوطة احمد الثالث برقم ٢٥٨٣ ولدى نسخة منه .
(٦) مطبوع بمصر سنة ١٣١٢هـ مؤلفه / شهاب الدين علي بن عبد الله ابن الشبلي .
(٧) انظر زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ١٠١ .

من حيث المقدمات والألقاب والدعاء ومواقعه ، ومن حيث الطول والقصر تبعا لمنزلة المكتوب اليه (١) أو المكتوب عنه ، وقد بلغ من دقة مراعاتهم لها أنهم وضعوا سجلا لتلك الألقاب ، وغيرها من النظم ، يرجع اليه الكاتب لصعوبة حفظها ، ولتشعبها والافراط فى طولها .

يقول ابن الصيرفى : " ويجب لهذا الكاتب أن يصنع فى هذا الديوان دفترا بألقاب الولاة ، وغيرهم من المستخدمين ، وأسمائهم وترتيب مخاطباتهم ، وتحت اسم كل واحد منهم ، كيف يكاتب بكاف الخطاب أوهاء الكناية ، ومقدار الدعاء الذى يدعى له به فى السجلات ، وفى المكاتبات ، والمناشير والتوقيعات لاختلاف ذلك فى عرف هذا الوقت ، ويضع فيه أيضا ألقاب الملوك الأباعد ، والمكاتبين من الآفاق ، وكتابهم ، وأسماءهم ، وترتيب الدعاء لهم ، ومقداره " (٢) .

ويحذر الكاتب من التفريط فى ذلك ، فانه ان أهمل شيئا من ذلك " زل بزلله الكتاب ، وصاحب الديوان ، بل السلطان " (٢) .

ولكي نعرف مدى اغراقهم فى تطويل الألقاب مثلا : نورد الألقاب التى منحها الخليفة لأحد الوزراء فى العهد الفاطمى : " الوزير الأجل الأوحد المكين ، سيد الوزراء ، وتاج الأصفياء ، وقاضي القضاة ، وداعى الدعاة ، علم المجد ، خاصة أمير المؤمنين الناصر للدين غياث المسلمين " (٣) .

---

(١) انظر زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ١٠١ .
(٢) قانون ديوان الرسائل ص ١٣٨ ، ١٣٩ .
(٣) الاشارة الى من نال الوزارة ص ٤٣ وانظر تقليد أسد الدين شيركوه فى صبح الأعشى ١٠ / ٨ — ٩ .

ولأهمية تلك الألقاب جعل حق منحها مقصورا على الخليفة (١).

ولأنها من أجل ما يكرم به الملقّب حتى الملوك ، والخلفاء وجدنا أن صاحب المغرب يتجاهل استغاثة صلاح الدين ويخذله ويقعد عن نصرته بسبب أنه أهمل مخاطبته بأمير المؤمنين " على جاري عادتهم (٢).

ويقول في ذلك صاحب مواد البيان : " الملوك تسمح ببدرات المال ، ولا تسمح بالدعوة الواحدة " (٣).

وقد وضع علماء هذا الفن نظما عامة للرسالة الديوانية يمكن تلخيصها فيما يأتي :-

١ — أن تفتتح الرسالة بالحمد لله ، أو بالسلام ، أو بما فيه تعظيم المكتوب اليه ، من تقبيل الأرض أو اليد ، أو الدعاء له . وقد علل القلقشندي هذا الخضوع ، والذل بقوله : " فان أمر المكاتبات مبنى على التملق ، واستجلاب الخواطر ، وتألف القلوب " (٤).

٢ — أن تبدأ بما يناسب الغرض ، ويسمون ذلك " ببراعة الاستهلال " وذلك بأن يؤتى في أول الكلام بما يدل على عجزه ، وفي الدعاء بما يناسب اسم المكتوب اليه (٥).

---

(١) انظر صبح الأعشى ١٠/١١٢ ، ٦/٩٦ وانظر كثيرا من التفصيلات عن الألقاب في كتاب " الألقاب الاسلامية ".
(٢) انظر الروضتين ٢/١٧١ — ١٧٦.
(٣) انظر ضوء الصبح ص ٣٦ — ٥٠.
(٤) انظر صبح الأعشى ٦/٢٧٤ — ٢٧٥.
(٥) انظر المرجع السابق ٦/٢٧٦ ، ١١/٣٦٣ وبديع الانشاء ص ٣١ ، ٣٢.

٣ — أن تراعى موضع الدعاء من الرسالة بحسب منزلة المكتوب اليه [١] .

٤ — أن يعرف ما يناسب المكتوب اليه من الألقاب والأدعية [٢] .

٥ — أن يراعى مواقع آيات القرآن وأبيات الشعر في المكاتبات [٣] .

٦ — أن تكون الخاتمة مبنية على ما سبقها ويسمون ذلك بحسن الختام.

ومن حيث الطول والقصر ، والمساواة قال القلقشندى : " ان الايجاز يحسن من الخليفة الى من دونه في أوقات الحرب ، وما يريد الاخبار به مع التورية عنه ، أو أن يكون أمرا أو نهيا ، أو وعدا ووعيدا ، أو توبيخا و يحسن الاطناب فى المناشير والاستنفار ، والدعوة للجهاد " [٤]

وقسموا الرسالة فى التقاليد مثلا الى أقسام متفاوتة المقادير .

الخطبة — ويقصدون بها المقدمة — ثم ذكر الانعام ، وتفخيم الرتبة ، ثم أوصاف المقلد بما يناسب رتبته ، ثم الوصايا الخاصة بالانعام الجديد [٥] . وكل ذلك ضمن حدود لا يخرج عنها الكاتب .

---

(١) انظر صبح الأعشى ٦/٢٨٤ وفى البرد الموشى تفصيلات طويلة عن مواضع الدعاء والألقاب .

(٢) انظر صبح الأعشى ٦/٢٩٣ ، ٧/٧٨ ، ٨٧ ، ١٠/١١١ وقد بنى ابن الأثير كتابه المفتاح المنشا على كيفية استعمال الأدعية وأنواعها ومثله قانون الترسل للصفدى .

(٣) انظر المثل السائر ١/٧١ ومابعدها .

(٤) انظر صبح الأعشى ٦/٣١٥ ، ٣١٦ .

(٥) انظر المرجع السابق ١٠/٣٠٩ وانظر فى معانى الخطبة / كشاف اصطلاحات الفنون ٢/١٧٨ .

ولعل مبدأ تنظيم الرسائل ،ونواة مراسيمها بدأ بعبد الحميد الكاتب الذى نسبوا اليه أنه أول من أطال التحميدات وقال : أما بعد ، وقسم الرسالة الى مقدمة ومتن وخاتمة (١) .

وقد تطورت تلك النظم مع الزمن وتشكلت فى دولة بنى العباس لاعتمادهم على خبرة الفرس فى ذلك . ولعلهم أول من اتخذ الألقاب: كالمنصور والهادى والمأمون ... الخ ،كما اتخذوا لوزرائهم القابا فخرية كذى الوزارتين وذى الرئاستين (٢) ... الخ .

واتبعهم الفاطميون ونسجوا على منوالهم .. يقول القلقشندى عن نظم الكتب الصادرة عنهم : " وقد ذكر صاحب مواد البيان ،وكان من كبار دولتهم فى المكاتبات الصادرة عنهم ،نحو المكاتبات الصادرة عن خلفاء بنى العباس ببغداد " (٣) .

فتلقبوا بالألقاب العامة كأمير المؤمنين والامام ، والمعز والعزيز والظافر ... الخ ... وبالغوا فى ألقاب وزرائهم ،وتطويلها الى حد الافراط .. كما مربنا (٣) .. وكانوا يسمون جميع ما يكتب عن ديوان الانشاء سجلات وربما سموه عهودا (٤) .

---

(١) انظر بلاغة الكتاب ص ١٤٣ والنثر الفنى وأثر الجاحظ فيه ص ١٢٩ وما بعدها ،والفن الشعرى فى نثر عبد الحميد ص ٣ وما بعدها ، ونشأة الكتابة الفنية ص ١٢٦ .

(٢) انظر صبح الأعشى ٩/٣٠٤ وما بعدها والألقاب الاسلامية ص ٩٥ وما بعدها ،وعنوان المعارف ص ٢٩ .

(٣) انظر صبح الأعشى ٦/٤٣٢ .

(٤) نفس المرجع ١٠/٣٠٨ .

ويمكن تلخيص النظم التى سار عليها الفاطميون فى رسائلهم كالآتى :

تبدأ الرسالة فى التقليد .. بقولهم : من عبد الله ووليه فلان .. الى فلان .. سلام عليك .. ثم يأتون بعد ذلك بـ " اما بعد " ثم بالحمد لله مرتين أو ثلاثا ، ثم يصلون الى صلب الموضوع بقولهم فلما ... ومن جهة ثانية فان هذه التقاليد تختلف باختلاف صاحبها ، وهل هو من أرباب السيوف أم من أرباب الأقلام ، أم الوظائف الدينية أم الديوانية .. وهم مع ذلك طبقتان ، ولكل طبقة صيغة تلائمها (١) .. وتختلف أيضا باختلاف مصدرها ، فاذا كانت صادرة عن الخليفة كان لها صيغة ملائمة ، واذا كانت صادرة عن الوزير كان لها صيغة أخرى (٢) ..

فى حين أصبحت عند الأيوبيين — وكانوا يطلقون عليها تارة تقاليد ، وتارة تواقيع ، ومراسيم ، وربما عبروا عن بعضها بالمناشير — تبدأ الخطبة مفتتحة بالحمد لله — وغاية عظمة المكتوب اليه أن يكون الحمد ثانية وثالثة فى المكاتبات ، ثم يؤتى بالشهادتين والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم (٤) .. ثم يؤتى بالبعدية — أما بعد — ويذكر

---

(١) انظر صبح الأعشى ١٠/٣٠٨ ، ٤٣٩ .
(٢) انظر نفس المرجع ١٠/٤٤٦ .
(٣) انظر نفس المرجع ١١/٣٢ .
(٤) انظر نفس المرجع ٧/٢٠ .

ما سنح من حال الولاية ، والمولى ، ويوصى المولى بما يليق بولايته ، ثم يقول : وسبيل كل واقف عليه من النواب العمل به و ربما افتتحت بأما بعد ، أو فان .. أو بلفظ "رسم" على الأمير فلان (١) .
أو : ان أحق .. أو ان أولى ، أو من كانت صفته كذا كان جديرا بكذا (٢) .

وقد مر بنا في نماذج الرسائل بعض تقاليد الفاطميين ، وهذا تقليد كتبه ابن الأثير عن أحد ملوك الأيوبيين لوزير : —

" الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده ، وأغنانا بمزيد عطائه .. وجعلنا ممن استخلفه فى الأرض فشكر عواقب اصداره ، ومبادئ ايراده ، نحمده ، ولسان أنعمه أفصح مقالا ، وأفسح مجالا .. ونسأله أن يوفقنا لتلقى أوامره ونواهيه بالاتباع ...

أما بعد : فان الله قرن استخارته برشده ، وجعلها نورا يهتدى به فى سلوك جدده ... ومن شأننا أن نتأدب بآداب الله فى جليل الأمر ودقيقه ..." (٣) .

وقد نقل القلقشندى عن ابن شيث — أحد كتاب الدولة الأيوبية — فى أواخر عهدها — كثيرا من اصطلاحاتهم فى الألقاب فقال :

---

(١) انظر صبح الأعشى ١١/٣٢ ومابعدها و ١١/٤٣ ، ٤٧ .
(٢) انظر نفس المرجع ١١/٤٩ .
(٣) انظر نفس المرجع ١١/٣٧ .

المقام والمقر للسلطان ،والمجلس لمن دونه[1] .

أما الترجمة[2] ـ فكان صلاح الدين يكتب " الخادم " اذا كانت المكاتبة لأعلى منه . . . وكتب العادل وأبناؤه " المطوك " وكتب الكامل " العبد " وكتب الناصر " أقل المماليك "[3] .

وقد أطالت الكتب في تفصيلات ذلك مما لا يفيد ذكره كثيرا .

كما قال محمود مصطفى : " لا نرى خيرا كثيرا في تفصيل هذه الرسوم فهي قيود التزمها أصحابها لا يلزمنا اتباعها ،ولا نرى فيها كبير نفع ، ولا ناحية دلالة بلاغية"[4] كما أن المجال لا يتسع لكل تلك التفاصيل على أن العهد الأيوبي يعتبر امتدادا للعهد الفاطمي في الأدب ، والرسائل بالذات لأمور :

منها أن صلاح الدين خدم الوزارة الفاطمية أكثر من ثلاث سنوات ، كما كان قبل ذلك يشتغل في دواوين الفاطميين ،وكان ينوب عن ابن الخلال قبل تخليه من الكتابة ،وهذه فترة كافية للاطلاع على نظم القوم الادارية والسياسية . . .

---

(١) انظر معالم الكتابة ص ٢٢ ومابعدها ـ وصبح الأعشى ١٩/٧ .
(٢) انظر من ترسل الفاضل " المطوك يقبل الأرض " ص ١٠٧ والترجمة ما يكتب قبل اسم المرسل . ـ
(٣) انظر التعريف بالمصطلح الشريف ص ٥ ،وانظر ما قاله صاحب كتاب بديع الانشاء عما في ذلك من مخالفة للشرع ،وما فيه من ذلة لا تليق بالمسلم ص ٥ والمفتاح المنشا ص ٢٨٣ .
(٤) الأدب العربي في مصر من الفتح الى العصر الأيوبي ص ٢٤٠ .

ومنها أن صلاح الدين لم يكن همه بعد استقلاله بمصر تغيير تلك النظم والتقاليد ، وبخاصة أنها امتداد للأنظمة العباسية .. بل كان همه منحصرا في تغيير عقائد الاسماعيلية .. والشيعة ..

ومنها أنه اعتمد في ترتيب شئون وزارته — ومنها ديوان الانشاء — على القاضي الفاضل .. وقد عرفنا من قبل أن الفاضل وصل في دولة الفاطميين الى رئاسة ديوان الانشاء من بعد استاذه ابن الخلال .. فكان عمله في الدولة الأيوبية امتدادا لعمله في الدولة الفاطمية ..

فما مدى التزام الأيوبيين بالنظم الفاطمية في شئون الادارة ، والديوان ؟

ذهب بعض المؤرخين الى أن هناك تباينا بين نظم الدولتين (١) ، وقد مر معنا ما ذكره القلقشندي وابن شيث .

وأرى أن التغيير المهم الذي طرأ على نظام الرسالة في العصر الأيوبي يكمن في اختفاء العقائد الفاطمية من الرسائل ، فحين كانت الرسائل الفاطمية تفيض بالاشارات الى مذهبهم — كالصلاة والتسليم على علي كرم الله وجهه ، وعلى خلفائهم ، وتأكيدهم على أحقيتهم في الخلافة التي ورثوها عن النبوة ، ومغالاتهم في ذات الحاكم الى حد التأليه أحيانا (٢) ، واعتقادهم أن الامامة منصب الهي كالنبوة ، وقولهم : بعلم

---

(١) انظر الأدب الصوفي في مصر ص ٦٥.
(٢) انظر مقدمة أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم للمحقق ص ٢٥.

التأويل ـ الباطن ـ وغير ذلك من معتقداتهم التي مر بنا بعضها ،وحين وجدناهم يطيلون المقدمات لاستيعاب صفات الحاكم والتأكيد على منزلته ، ونسبه ،وخصائصه التي لا يشاركه فيها أحد الا من كان من سلالته .. حتى كان الكاتب يهمل تلك المقدمات بما فيها من نعوت ودعاء ـ عند قراءتها على السلطان أو الخليفة ـ ويقتصر على المتن اختصارا للوقت .(١)

حين نجد ذلك كله في الرسائل الفاطمية ،نجد أن الرسائل الأيوبية تخففت من تلك الاطالة ،واهتمت بمتن الموضوع ،وحذفت كلما يشير الى المذاهب الاسماعيلية ..

كما اختفت تلك الرسائل التي تنشأ في مناسبات أعيادهم الخاصة التي ابتدعوها وما طرأ من تغيير في بعض النظم كالمقدمات ،انما يرجع لهذا السبب ، ولسبب اختلاف نظام حكم الأيوبيين ـ باعتبارهم سلاطين تابعين للخلافة العباسية ـ عن نظام الخلافة الفاطمية المستقلة استقلالا تاما عن الخلافة العباسية في بغداد . فالرسائل الأيوبية تمثل فترة جديدة لها طابعها وظروفها الخاصة المتمثلة في الآتي :

ـ اختلاف الأيوبيين عن الفاطميين في المذهب الديني .. فحين حرص الفاطميون على نشر مذهب الشيعة ،مستعينين على ذلك بوسائل عدة ،منها الأدب حتى خالط من المصريين اللحم والدم كما يقول الفاضل (٢) ، نجد صلاح الدين يبذل جهده لتصحيح عقائد

---

(١) انظر معالم الكتابة ص ٢٠ .
(٢) انظر ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٤٨ .

الناس ، وردهم للعقيدة الصافية .. وقد استخدم فى ذلك وسائل عدة ، منها : انشاء المدارس على مذاهب أهل السنة (١) واستبدال القضاة السنيين بقضاة الشيعة ، واماتة تلك المظاهر التى تنوه بعقائدهم فى الأدب بعامة والرسائل بخاصة ، والقضاء على معظم تراثهم الذى سخّروه فى الدعاية لمذهبهم ، وتعظيم خلفائهم ، وتكذيب زعمهم أنهم من نسل علي (٢) .

— اختلافهم عن الفاطميين فى نظام الحكم ، فحين كان الفاطميون مستقلين عن الخلافة العباسية .. يعهد الخليفة منهم لولده بولاية العهد ويأخذ البيعة للخليفة الجديد .. كان الأيوبيون تابعين — ولو اسميا — لخلافة بغداد .. فلم يؤثر عنهم كتب فى هذين الغرضين الى نهاية القرن السادس الهجرى . فلم يعهد صلاح الدين بالملك من بعده لواحد من أولاده ، وانما قسّم مملكته عليهم ، لعلمه أنهم ينضوون تحت الراية العباسية .

وأهم من هذا وذاك : أن فترة حكم الأيوبيين كانت فترة حرب .. فمنذ استيلاء صلاح الدين على السلطة فى مصر حتى توفى سنة ٥٨٩ هـ وهو يجاهد فى سبيل الله .. وانعكس كل ذلك على أدبهم ..

---

(١) انظر الخطط التوفيقية ١/٦٥ والحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص ١١ .

(٢) انظر الروضتين ١/٢٠١ وظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٤٨٨ . وانظر المحضر الذى كتب فى تكذيب الفاطميين فى ادعائهم النسب فى ولد على رضى الله عنه ، شذرات الذهب ٣/١٦٢ .

مما أحدث فيه تلك الحركة الجديدة والروح الاسلامية والشعور بحاجة الأمة الاسلامية الى التكاتف والتعاون ، لصد عدوان الصليبيين عن البلاد الاسلامية .. فكانت رسائلهم تدور حول البشارة بالفتح ، والتهنئة بالنصر ، ووصف المعارك ، والتحريض على القتال ، واستنهاض الهمم ، و طلب النجدة والعون ..

كما أعاد الأيوبيون الصلة بين بغداد والقاهرة ، وكانت شبه منقطعة ، أو هى منقطعة فعلا أيام الفاطميين .. فقد كثرت الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين و خلفاء بغداد ، فى حين كانت أغلب الرسائل الفاطمية تدور حول البيعة ، والعهد والاقطاع ، والأعياد والاحتفالات الخاصة بهم ، وما شابه ذلك .

وخلاصة القول أن ذلك الاختلاف الذى طرأ على نظم الرسائل الأيوبية كان منشأه اختلاف المذهبين ، واختلاف نظام الحكم و رغبة الحكام الأيوبيين من متابعة الفاطميين فى تعظيم خلفائهم ، ومباينتهم لهم فى عقائدهم ، ومذهبهم الدينى ، وليس طريقة ابتدعها الكتاب من عند أنفسهم لاحداث تجديد فى نظم الرسائل .. وقد اقتصر القلقشندى — فى أمثلته للتفريق بين نظم العهدين — على رسائل التقليد ... و فيها يتضح الفرق بين المذهبين الدينيين أكثر من المذهبين الأسلوبيين ..

و بقى الأسلوب العام للرسالة فى العصرين واحدا يمثله الفاضل و من سار على نهجه من الكتاب الذين تابعوه فى أسلوبه باعتباره ولي نعمتهم أولا — فهم موظفون فى وزارته — وبخاصة أيام

صلاح الدين — ولانتشار سمعته الأدبية بخاصة في هذا الفن ، واعتماد صلاح الدين على انشائه في أموره الهامة ثانيا ..

نعم .. أغرق كتاب الدولة الأيوبية في الصنعة واهتموا كثيرا ببعض أنواع البديع كالجناس والتورية .. كما اعتمدوا كثيرا على حل آيات القرآن .. والأحاديث .. ولكنهم ظلوا يسيرون في نفس الاتجاه الذى سار فيه كتاب الدولة الفاطمية بدليل أن رسائل الفاضل في عهد الأيوبيين لا تختلف — من حيث الأسلوب — عنها في عهد الفاطميين ، الا فيما يتعلق بالمعتقدات والمواضيع وما يتبعها من نظم لكلتا الدولتين .

الباب الرابع

أثر الديوان في تطور الأساليب النثرية

ويشتمل على الفصول التالية :-

الفصل الأول :-

تطور الأساليب وطبعها بطابع الصناعة اللفظية إلى نهاية القرن السادس.

الفصل الثاني :-

أثر الرسائل الديوانية في الأدب.

الفصل الثالث :-

منزلة الرسائل الديوانية وموقف النقاد منها.

الفصل الأول

تطور الأساليب وطبعها بطابع الصناعة اللفظية إلى نهاية القرن السادس.

الفصـــل الأول

تطور الأساليب وطبعها بطابع الصناعة اللفظية الـــى نهايـة القرن السادس

المراد بكلمة "الأسـلوب" الطريـقـة التى ينشىء بها الأديب كتابته .. وقوامه الشكل العام للنص من الألفاظ والجمل والتعابير، والأفكار، والمعانى ، وما يضفيه الأديب على تعبيره من خيال وحسن سبكه .. يستشف القارىء من خلالـه عواطـفه وانفعالاته .

وقد عرف العرب الرسـائل الأدبية منذ فجر الاسلام فقد كانت الكتابة من أهم الوسائل التى اعتمد عليها الرسول صلى الله عليه وسـلم فى نشر دعوته .. كرسائله الى الملوك الأعاجـم (١) ..

ولعل هذا يعد مبدأ نشوء الرسائل الديوانيـة مما دعا القلقشندى الى القول : "بأن ديوان الانشاء وجـد منذ عهد رسول الله صلى اللـه عليه وسلم .. وقد عالجت تلك الرسائل موضوعات جديدة .. كالدعـوة للاسلام وبيان أحكامه وشرائعه .. مما يعدّ تطورا جديدا فى الكتابـة من حيث الموضوعات والمعانى .. غير أن تلك الرسائل كانت مما يمليـه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان دور الكاتب يقف عند كتابة ما يمليه عليه الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر نماذج منها فى "جمهرة رسائل العرب" ١/٣-٩ .

وقد سار الخلفاء الراشدون — رضى الله عنهم — على ذلك مع ملاحظة تعدد الأغراض فى زمنهم ،وازدياد الحاجة الى كثرة الرسائل لاتساع رقعة الاسلام ،وتجدد الأحداث المستدعية لها .

وأسلوب الرسائل لهذا العهد طابعه السهوله والسماحة والارتجال والايجاز ، فلم يكونوا يحتفلون بهاالا من حيث تأدية المعنى المراد بأقصر طريق وأوضح عبارة ،من غير قصد الى تزويق . ولا يعنى هذا أن تلك الرسائل لا ترقى الى مستوى النثر الفنى ، فقد كان القوم بلغاء بالسليقة يحسنون التعبير ،و يصيبون المعنى .. واذا صحت تلك الرسائل المنسوبة لعلي — كرم الله وجهه — في" نهج البلاغة " ،فانها تعد مرحلة متطورة فى الأساليب النثرية ،من حيث عرض الأفكار والاطالة فى ايضاح المعانى ، وحسن التعبير .

ولما تولى بنو أمية الأمر بعد العهد الراشدى .. اتّسع مجال الكتابة تبعا لاتساع رقعة الدولة وترامى أطرافها من ناحية وظهور المذاهب التى صاحبت خلافة معاوية من ناحية أخرى ،اذ لجأت جميع الأطراف المتخاصمة للرسائل باعتبارها الوسيلة الأولى الى جانب الخطابة للتعبير عن نوازعهم وأفكارهم .. الا أن الأسلوب العام لها ، كان امتدادا لأسلوب العهد الراشدى .. من بساطة فى التعبير وعدم تعمل فى الصياغة وقد يخرجون عن الايجاز الى الاطناب أحيانا بسبب ما تتطلبه بعض الموضوعات . فقد ذكر الطبرى : أن عبيد الله بن زياد ، لام كاتبه عمر بن نافع على اطالته فى كتاب الى يزيد فى أمر مسلم بن عقيل . وكره ذلك منه اذ قال له" ما هذا التطويل ؟ وهذه الفصول ؟"(١)

---

(١) تاريخ الطبرى ٥/٣٨٠ .

ومعنى ذلك أن الكتّاب بدءوا ينشئون الرسائل بأنفسهم فى وقت مبكر — ولعل ذلك يحدث فى ظروف خاصة — وأن الكتاب تعددوا بتعدد الولاة . . . وأن أسلوب الرسائل بدأ يسير بخطى وئيدة نحو التجويد والفن ،متأثرا بجميع المؤثرات المحيطة به . . ومنها القرآن الكريم . . وخطب البلغاء . . أمثال علي بن أبى طالب رضى الله عنه ، والحجاج وزياد بن أبيه وقطرى بن الفجاءة وغيرهم من فصحاء العرب . . ولكن أسلوب الكتابة — فى العموم — بقى محافظا على أصالته العربية من حيث الايجاز وجزالة اللفظ وبساطة التعبير وعدم التعمل . . وما جاء فى أسلوب كتابتهم من سجع أو مجاز جاء عفو الخاطر من غير استكراه أو استجلاب . . بل ربما حذفوا ما جاء من السجع عفو الخاطر ،لئلا يحس القارئ بتعمد استجلابه . . فقد روى عن معاوية رضى الله عنه ،أنه أملى على كاتبه "لهو عندى أهون من ذرة أو كلب من كلاب الحرة" ،ثم طلب منه أن يمحو : "من كلاب الحرة" ويكتب : "أو كلب من الكلاب" (١) .

ومع ذلك فقد ظهرت بوادر السجع فى هذا العصر فى بعض كلامهم . . . فقد ورد فى بعض كتب الحجاج سجع . . كما ورد فى الكتب التى ترد عليه ،ردا على رسائله (٢) . . ولكنه سجع يجىء عفو الخاطر

---

(١) النثر الفنى لزكى مبارك ٨٣/١ نقلا عن رسائل الجاحظ ص ١٥٥ .

(٢) انظر رسالة الحجاج لابن الفجاءة ورده عليها فى البيان والتبيين ٣١٠/٢ . وقد نقل الدينورى أن ابن الأشعث حين هم بمكاتبة الحجاج قال لكاتبه ابن القرية : انى أريد أن أكتب للحجاج كتابا مسجعا أعرفه فيه سوء فعاله — الأخبار الطوال ص ٣١٨ .

لا يلتزمونه . . . وقد استمر هذا الأسلوب الى أواخر عصر الأمويين حينما اعتمدوا في دواوينهم على الكتّاب الموالى ، فأخذ التطور يظهر في الأعمال الأدبية على أيديهم بشكل واضح . . يقول القلقشندى:
" ولم يزل أمر المكاتبات في الدولة الأموية جاريا على سنن السلف الى أن ولي الوليد بن عبد الملك — ٨٨ — ٩٦ هـ فجود القراطيس وجلل الخطوط وفخّم المكاتبات وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك ، الا عمر ابن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ ، ويزيد بن الوليد ١٠١ — ١٠٥ هـ ، فانهما جريا في ذلك على طريق السلف ، ثم جرى الأمر من بعدهما على ما سنه الوليد الى أن صار الأمر الى مروان بن محمد — ١٢٧ — ١٣٢ هـ ، آخر خلفائهم وكتب له عبد الحميد بن يحيى وكان من اللسن والبلاغة على ما اشتهر ذكره ، فأطال الكتب وأطنب فيها حيث اقتضى الحال تطويلها والاطناب فيها حتى يقال : انه كتب كتابا عن الخليفة وقر جمل واستمر ذلك فيما بعده "(١) .

على أن التغيير الذى طرأ على الكتابة في عهد الوليد غير محدد المعالم ، ولعل ذلك خاص بالخط وطريقة اعداد الرسائل ونوع الورق الذى يكتب فيه . .

ولا شك أن الكتابة قد تطورت عبر رحلتها منذ فجر الاسلام الى هذا العهد . . . وقد تأثرت بكل المؤثرات الطارئة المحيطة بالأدباء سياسية وحربية ، وازدهار فنون أدبية ، كالخطابة ، وأخرى جديدة ،

---

(١) صبح الأعشى ٦/ ٣٩١ .

كالجدل . . وكالرسائل الدينية والوعظية والتأليف والترجمة ، سواء من حيث الأسلوب أم من حيث الأفكار ، غير أن ذلك التطور كان يسير وئيدا نحو الفن .

وقد برز هذا التطور في المعاني أكثر من ظهوره في الشكل . . كما كان يسير في الخط العام للكتابة العربية الخالصة ،التي تميل الى الايجاز وايثار المعنى على اللفظ وعدم التكلف لأي نوع من أنواع البلاغة أو البديع . . . أو التزام السجع .

وقد يكون من الصعب تحديد السمات والملامح الفنية لكل فترة من المراحل التي اجتازتها الكتابة في هذا العصر ، ولكننا نستطيع أن نتبين تلك الملامح منذ أن تولى عبد الحميد الكتابة في الديوان ،وشاعت رسائله وأعجب بها الناس ، واتخذوها لهم طريقة يكتبون بها . . وتعتبر الفترة الزمنية التي تولى فيها عبد الحميد الكتابة فترة انتقال من ناحية أسلوب الرسالة ،ومن ناحية انتقال مقاليد الديوان الى أيدى الموالي وما تبعه من سقوط دولة بني أمية ،وظهور دولة بني العباس الذين اعتمدوا على الفرس في تنظيم دواوينهم ،فاقترب العرب بذلك خطوة نحو الحضارة الفارسية ،واقتباس نظمها والاستفادة من تراثها ـ بما فيه فن الرسائل ـ ولقد تظافرت عدة أسباب لرقي الكتابة وازدهارها منذ أن تولاها الموالي ،هيأت لهذا التطور والارتقاء . . منها اتساع المعارف في الدولة الاسلامية ،ومنها حركة الترجمة التي بدأت تنقل عن الحضارتين الفارسية واليونانية ،ولا شك أن لذلك أثره في أدب الحضارة الاسلامية ، وأهم تلك الأسباب أن تولى الكتابة في ديوان الانشاء كتّاب يجيدون

اللغة الفارسية أو اليونانية ،اجادتهم للغة العربية . فقد كان سالم مولى هشام بن عبد الملك — ١٠٥ — ١٢٥ هـ ،يجيد اليونانية [١] .. وكان عبد الحميد الكاتب يجيد اللغة الفارسية ،وقد يكون تعلم اليونانية من أستاذه سالم... و من تلك الأسباب تعريب الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان — ٦٥— ٨٦ هـ ، مما جعل الموالى يحذقون اللغة العربية ويجيدونها .. بعد أن حرموا من الكتابة فيها بلغات قومهم ... فلما كتبوا باللغة العربية بقوا متأثرين بأساليب لغاتهم ،ومناهجها .. وقد أدى حرصهم على وظائف الديوان الى تنافسهم فى اجادة فن الكتابة والاعتناء بأساليبهم و تنميقها و تجويدها وتوفير ألوان من القيم الجمالية الفنية لها ،فى حدود الاعتدال و عدم التكلف.

ويمكن اعتبار كتابة عبد الحميد الكاتب ،بداية طور جديد فى أسلوب الرسائل الأدبية ،كما يمكن اعادة بداية هذا التطور الى عهد هشام ابن عبد الملك و هى الفترة التى بدأت الترجمة فيها من اللغات الأجنبية ،وبدأ الموالى يأخذون مكانهم فى ديوان الانشاء ، فقد تولى ديوان الرسائل لهشام مولاه سالم ، قبل مجىء عبد الحميد الذى تتلمذ عليه .. الا أن رسائل سالم لم يصلنا منها سوى قطعة وردت فى تاريخ الطبرى و رجّح بعض الباحثين نسبتها له [٢] .. رغم أن ابن النديم عده من البلغاء العشرة الأوائل وذكر أن رسائله بلغت مائة ورقة [٣] .

---

(١) وترجم منها بضع رسائل لأرسطو ،انظر الفهرست ص ١٧١ .
(٢) انظر الفن ومذاهبه ص ٣٨ ، ٤١ و نشأة الكتابة الفنية ص ١٢١ .
(٣) انظر الفهرست ص ١٧١ وانظر جمهرة رسائل العرب ٢/ ٣٦٩ .

الا أننا لا نعرف مدى تأثيره فى تطور الأساليب لضياع رسائله ، ولا متى تولى الكتابة فى ديوان الانشاء .

ونحن نعرف أن الكتابة بدأت تنضج وتنحو نحو الفن والاجادة ، والخلق والابداع ، بسبب حرية واستقلال الكتّاب ، بانشاء رسائلهم بأنفسهم ، قبل مجيء عبد الحميد ، ولكنها اكتملت وأخذت طابعها المميز على يديه .. ولذلك قال عنه صاحب الفهرست : "وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا وهو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسل"(١) . ولم يقل ذلك عن أستاذه سالم مع أنه اطلع على رسائله ، ولذلك عدت كتابة عبد الحميد مرحلة جديدة من مراحل تطور الأسلوب الفنى . بل لعلنا لا نبالغ اذا قلنا انها قمة نضج الكتابة الفنية واستواء عودها واعتبارها بحق كتابة فنية لأسلوبها الجميل الذى يختلف فى عرضه وشكله ومنحاه عن أى جنس آخر من فروع الأدب . الا أنها ظلت مع ذلك متصلة بمنهجها القديم من حيث الجزالة والقوة وعدم التكلف ، وهذا ما تأكد لدى كثير من الباحثين كزكى مبارك والسباعى بيومى وحسين نصار وغيرهم(٢) ..

فعبد الحميد أول من أطال الرسائل والتحميدات كما ذكر المسعودى : " صاحب الرسائل والبلاغات وهو أول من أطال الرسائل

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٧٠ .

(٢) انظر النثر الفنى ١/ ٧٠ والعصر الاسلامى ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ونشأة الكتابة الفنية ص ٧٥ والنثر الفنى وأثر الجاحظ فيه ص ١٤٠ .

واستعمل التحميدات فى فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده "(١).

فقد تفجرت ينابيع الكتابة على يديه وعدّ من أول من مكن لهذا التطور وهيأ له ، وأقوى من ظفر للنثر العربى بهذه المنزلة(٢) ..
وتحولت الكتابة على يديه من البساطة والاطلاق الى أسلوب له رسوم وأصول وميزات أهمها : التفخيم ، والسجع غير المتكلف ، والتزام الموسيقى الصوتية الناتجة من الازدواج ، والتوازن ، والسجع ، وتفريع الصور العقلية والمعانى ... مما دفعه الى الاطالة التى لم يعهد مثلها النثر الفنى قبل ذلك حتى قيل انه كتب الى ابى مسلم الخراسانى على لسان مروان بن محمد كتابا بلغ من حجمه أنه حمل على جمل .. وصفه عبد الحميد بقوله :
" لقد كتبت اليه كتابا متى قرأه بطل تدبيره ، فان تجمع ذاك والا فالهلاك(٣)(٤).
ولخوف أبى مسلم من تأثير بلاغة عبد الحميد فى نفسه أحرق الكتاب قبل أن يقرأه وكتب على جذاذة منه :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى
عليك ليوث الغاب من كل جانب(٥)

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ٣ / ١٧٨.
(٢) انظر جمهرة رسائل العرب ٢ / ٤٧٦—٤٨٢.
(٣) انظر مقدمة البخلاء ص ٢٦ ، ٢٧.
(٤) انظر جمهرة رسائل العرب ٢ / ٤٨٥ وانظر أمثلة من رسائله فى نفس المرجع ٢ / ٤٧٩—٤٨٢.
(٥) انظر جمهرة رسائل العرب ٢ / ٤٨٥.

ومن هنا ودّع الكتّاب دور البساطة في التعبير والايجاز ومالوا الى الاطناب وبسط المعاني وتفريعها بواسطة الترادف وتكرير المعنى لتأكيد الفكرة وتوضيحها .. والتأنق في صياغتها واستخدام الموازنات الموسيقية وضروب الايقاع النغمي (١) ... فاتسمت بقدر غير قليل من الابداع والجمال والفن .. وأصبحت الرسالة أداة مهمة للتعبير ،وسلاحا ماضيا في أتون الصراعات والاضطرابات التي شهدها العصر . والتي كانت من الحوافز للكتاب ليعبروا عن المعاني العميقة والأفكار الدقيقة .

ولقد اختلف الدارسون حول أصول هذا التطور والنضج الفني الذي آلت اليه الرسائل الأدبية على يدي عبد الحميد ومن جاء بعده .. فردها طه حسين الى تأثير الثقافة اليونانية (٢) ... وردها آخرون الى تأثير الثقافة الفارسية باعتبار عبد الحميد فارسي الأصل ،ولاجادته اللغة الفارسية (٣) . ومنهم من أرجعها الى الثقافة العربية وتأثير أسلوب القرآن الكريم (٤) .. ويكاد يجمع المؤرخون القدامى على ارجاعها الى تأثير عبد الحميد بثقافة قومه .. يقول أبو هلال العسكري :

---

(١) انظر امثلة ذلك في الجشهياري ص٧٣ و جمهرة رسائل العرب٢ / ٣٧٠ ومابعدها .

(٢) انظر من حديث الشعر والنثر ص ٤٢ و مقدمة نقد النثر ص ١٤ وقد ناقشه في ذلك بعض الباحثين وردوا عليه ،انظر العصر الاسلامي لشوقي ضيف ص ٤٧٧ .

(٣) انظر أمراء البيان ١ / ٢٠ وتاريخ الأدب العربي للسباعي بيومي ٢ / ٤٦٤ ومابعدها ،وشوقي ضيف العصر الاسلامي ص ٤٧٥ ،وفجر الاسلام ص١٣٣ . وقد رد أحمد أمين أصل السجع الى النصارى الذين دخلوا الاسلام فقد كانوا يستعملونه في كنائسهم ،انظر ظهر الاسلام ص ٩٦ .

(٤) انظر النثر الفني ١ / ٥٣ ،والفن الشعري ص ٢٩ .

" فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل الى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى " ... وكان عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي "(١) . وهذا كلام صريح على تأثر عبد الحميد بأساليب الفرس في كتابة رسائله.

والحق أن مسألة تأثر عبد الحميد بالثقافة الفارسية مسألة لا تقبل الانكار غير أن ثقافته لم تقتصر على ما استفاده من ثقافة قومه فقط . بل لقد تشبع بالثقافة العربية الخالصة فقد تأثر برسائل وخطب علي كرم الله وجهه .. وقد صرح بذلك حين سئل : " ما الذى مكنك من البلاغة وخرجك فيها ؟ .. فأجاب : حفظ كلام الأصلع "(٢) يقصد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه . بالاضافة الى تأثره بأسلوب القرآن — الذى لعله — أثر في أسلوب الموالي الذين تعلموا اللغة العربية ،أكثر من تأثيره في العرب الذين نزل بلغتهم .. لأنهم كانوا يتحامون تقليده باعتباره معجزة الرسول وكلام الله المتحدى به .. ولهذا لا أرى أنه يستقيم الاستشهاد به على أسبقية النثر أو جعله مصدر المحسنات البديعية التي اصطبغ بها الأدب العربي (٣) .. لأن القرآن الكريم كلام الله

---

(١) انظر ديوان المعاني ٨٩/٢ .. وانظر البيان والتبيين ٣ / ٢٩ ، اذ رأى أن باستطاعته أن يقلد السير والرسائل الفارسية لاجادته لغتها .

(٢) انظر الجهشياري ص ٨٢ .

(٣) انظر النثر الفني لزكي مبارك ١/ ٦ ، ٣٥ ،حيث أرجع البديع اليه .

وليس بانشاء أديب ، وهو مع ذلك فوق طاقة البشر أن يأتوا بمثله اذ لو كان يقع تحت قدرتهم لما كان معجزا . . . ولا ننسى نتاج قرن كامل من الثقافة العربية الاسلامية في التأثير على أساليب وثقافة الموالى من الكتاب ، فقد بلغت الخطب في العصر الأموى من الجودة والبلاغة ، والاطالة والفن ، درجة عظيمة . . . ومن ناحية أخرى لا نستبعد تأثر الكتاب بالثقافة اليونانية التي ترجم عنها سالم وغيره . . ولكن تلك الثقافات الأجنبية كلها ما هي الا عامل من تلك العوامل التي أسهمت اسهاما واضحا في ذلك التطور .

ولذاتية الأديب وشخصيته أثر مهم في أسلوبه ، ولعل عبد الحميد من أولئك الأفذاذ العباقرة الذين استطاعوا بمواهبهم وثقافاتهم الواسعة أن يبتدعوا لهم أسلوبا يعرف بهم ، وينسب اليهم . . . والشيء الذي لا يخفى على من اطّلع على أدب الديوان ، وتابع تطور الأساليب الأدبية عبر العصور ، أن الموالي وخاصة الفرس منهم ، هم الذين أدخلوا على أسلوب الكتابة العربية تجديدات سواء في البدء أم الختام أم الشكل العام من التزام للسجع ومحسنات بديعية ابتداء بعبد الحميد وانتهاء بابن العميد وتلامذته . . ودورهم في ذلك التجديد يشبه دور كتاب عصر النهضة الحديثة الذين تعلموا اللغات واطّلعوا على الآداب العالمية فأخذوا يكتبون بالأسلوب المرسل متجافين عن أسلوب الصناعة اللفظية متأثرين بأساليب الآداب التي تعلموا لغاتها .

فالرسوم التي اتبعها عبد الحميد في الكتابة هي حجر الزاوية الذي بني عليه هيكل الصناعة اللفظية فيما بعد . . مع أنه أفاد الأدب

العربي من حيث قوة العقل وسعة الذهن .. ولا ندّعي أنه أفسد الأسلوب العربي في عصره بالصناعة اللفظية .. فان كتابته كانت قوية جميلة لا أثر فيها للتكلف أو اقتسار الصنعة ... الا أن تأثيره ظهر بعد مدة طويلة ... حين بالغ فيها الكتاب وبخاصة في القرن الرابع ومابعده كما سنرى .

وجاء العصر العباسي وقد أصبح للرسائل رسوم وأصول مرعية .. ميّزتها عن غيرها من فروع الأدب الأخرى ، كالخطابة وغيرها . ولكن ابن المقفع خفف من سيطرة تلك الرسوم على جميع الأساليب بكتاباته وترجماته ... فبالرغم من أنه فارسي الجنس وأنه معاصر لعبد الحميد لم يتابعه في كتابته ، ولم يمتن بزخرفة الألفاظ وصنعة الأساليب .. لأنه كان يرى أن البلاغة في شرف المعنى ووضوح التعبير .. وغلب على كتابته وضوح الأسلوب وانطلاقه ، وعرف أسلوبه بالسهل الممتنع (١) ... وعدّ رائد مدرسة فنية هي مدرسة الترسل الطبيعي التي اعتمدت على الارسال في التعبير والايجاز في القول (٢) . ولعل انشغاله بالترجمة صرفه عن الاعتناء بالسجع والازدواج وغيرهما من ضروب الصنعة اللفظية (٣) .
واستمر الكتاب في هذين الاتجاهين مع اتجاه غالبيتهم الى العناية بالشكل الذي يتصل باللفظ والجملة والأسلوب عامة ، فاستخدموا السجع

---

(١) انظر المدارس الأدبية ص ٦٦ ، ٧١ .
(٢)هـ انظر بلاغة الكتاب ص ١٣٨ .
(٣) انظر الفن ومذاهبه ص ٥١ .

والازدواج ،والتوازن من غير التزام .. الى جانب عنايتهم بالمعنى ..

وجاء أبو عثمان بحر الجاحظ — ١٥٩ — ٢٥٥ هـ ، فمال أسلوبه الى الترسل وتجنب الصناعة اللفظية وغلب على أسلوبه التحليل والتفريع والاستقصاء وكما أحب الانطلاق في أسلوبه ،فقد آثر الحرية في حياته فلم يقبل بالاشتغال في ديوان الانشاء .. وكان في ذلك خير للأدب .. اذ تفرغ للتأليف فكثرت مؤلفاته وغلب أسلوبه على كثير من الأدباء وكثر المقتدون به كابن قتيبة ت ٢١٦ هـ والمبرد ت ٢٨٦ هـ وقدامة بن جعفر ت ٣١٠ هـ والجرجاني ت ٣٩٢ — والعسكري ت ٣٩٥ (١) .

أما أسلوب الرسائل الديوانية فقد ظل يسير على نهج عبد الحميد من استخدام الازدواج وعدم خلوه من السجع مع ملاحظة أن أغلب كتاب الرسائل الديوانية في العصر العباسي كانوا من الموالي الفرس كالبرامكة وبني وهب وبني ثوابة وبني المدبر .. ما عدا الصوليين فقد كانوا أتراكا ...

أما البرامكة فقد ظهروا مع ظهور الخلافة العباسية ،حتى نكبهم الرشيد (٢) ١٧٠—١٩٣ هـ ،وجاء بعدهم بنو صول الأتراك واحتلوا مكانة البرامكة في السيطرة على شئون الدواوين منذ عهد المأمون ١٩٨— ٢١٨ هـ حتى سنة ٢٤٣ هـ (٣) .. وتقلد بنو وهب الوزارة سنة ٢٥٥هـ

---

(١) انظر بلاغة الكتاب ص ١٥٥ .
(٢) انظر في اسباب نكبة الرشيد لهم كتاب اعلام الناس ص ٨١ .
(٣) انظر الأدب في موكب الحضارة ص ٢٨٠ ومعجم الأدباء ١٦٨/١ .

الى سنة ٣٢١ هـ .. وقد ظهرت بوادر الصناعة اللفظية بوضوح في كتابة أحمد بن سليمان بن وهب ت ٢٨٥ [(١)] ... وبدأ ظهور بنى ثوابة في حدود سنة ٢٥٠ هـ الى سنة ٣٤٩هـ [(٢)] ثم تعاقب على الدواوين بنو المدبر وبنو الفرات و بنو مقلة [(٣)] .

وما زال الكتاب في القرنين الثاني والثالث خاصة يبالغون في أناقة تعبيرهم ودقة أذواقهم حتى انفصلوا عن أسلوب الازدواج الى أسلوب الزخرفة الأنيقة أو بعبارة أخرى " أسلوب كله سجع وتنميق " [(٤)] .. كما يقول شوقي ضيف .

وقد ظهرت بوادر الصنعة اللفظية باكرا في كتابة البرامكة بتنميق جعفر بن يحيى لعباراته خاصة في التوقيعات [(٥)] .. كما ظهرت في كتابات بني وهب وخاصة أحمد بن سليمان [(٦)] مما دعا الدكتور مصطفى الشكعة أن يقول عن أسلوب رسائله : " وتتميز مع غيرها من رسائل الكتاب المعاصرين له بالتزام السجع التزاما يكاد يوازي التزام كتاب القرن الرابع ... ولا تقل كثيرا في التزام الزينات الأسلوبية والمحسنات البديعية عما التزمته الكتابة المسماة بالفنية في القرن الرابع ،فالسجع والجناس والطباق والتزيين بأبيات الشعر.. مما يمكن ألا تخطئه عين قارئ ... لانتاج تلك الفترة " [(٧)] .

---

(١) انظر الأدب في موكب الحضارة ص ٣٨١ .

(٢) انظر نفس المرجع ص ٣٩٠ .

(٣) انظر نفس المرجع ص ٣٩٧ .

(٤) انظر الفن ومذاهبه ص ١٣٣ .

(٥) انظر نفس المرجع ص ١٩٦ وانظر أمثلتها في جمهرة رسائل العرب ٤ / ٣٨٤ ومابعدها .

(٦) انظر مثالا لرسائل احمد بن سليمان في جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٤ .

(٧) الأدب في موكب الحضارة ص ٣٨١ .

ونحن نعترف بوجود الصنعة فى كتابة أدباء ما قبل القرن الرابع الهجرى وأوائله ، ولكنها صنعة مقبولة تستخدم السجع ولا تلتزمه كما التزمته رسائل القرن الرابع .. وبعبارة أخرى ،فان رسائل القرن الثالث وأوائل القرن الرابع بالذات تعد مرحلة متقدمة نحو الصناعة اللفظية وتمهيدا لتلك الصنعة المحكمة التى غلبت على أسلوب كتاب النصف الثانى من القرن الرابع ومابعده .

واذا كان السجع يعد أهم مظاهر تلك الصنعة فقد كاد يكون عاما فى أسلوب الكتاب منذ عهد المقتدر ٢٩٥–٣٢٠هـ ، مما دعا الخليفة القاهر ٣٢٠–٣٢٢ هـ أن يطلب من بعض من يقفون على أخبار بنى العباس أن يصفهم ولا يلتزم فى وصفه بالسجع : " ولا تغيب عنى شيئا ، ولا تحسن القصة ولا تسجع فيها "(١) . وكأن الخليفة أدرك بذوقه العربى أن تكلف البديع لا يكون الا على حساب المعنى ،وأن المعنى لا يكون واضحا دقيقا الا اذا تحرر من قيود السجع .

ومع ذلك فقد ظل الكتاب يتنقلون بين لونين من الصياغة الفنية : وهما السجع والازدواج الى القرن الرابع ، ولم نشعر بثقل الصنعة وسيطرتها الا عند كتاب القرن الرابع ،وخاصة لدى دواوين الامارات الفارسية كامارة البويهيين ٣٢١–٤٤٧ هـ والسامانيين ٢٦١ – ٣٨٩ هـ ، فقد هيأت هذه الامارات لنهضة أدبية واسعة اقترنت بمذهب الصناعة اللفظية التى يسميها شوقى ضيف "مذهب التصنع"(٢) . وقوامه الاحتكام الى

---

(١) انظر مروج الذهب ٢ / ٢٢١ .

(٢) انظر الفن ومذاهبه ص ٢٠٣ .

السجع والبديع من جناس وطباق وتصوير والميل بالكتابة الى الزخرفة والموسيقى في العبارة .. وهذا يؤيد من يرى أن الرسوم والقيود والصناعة اللفظية التي انتهت اليها الكتابة مرجعه الى الثقافة الفارسية .... فالبيئة فارسية والحكام المسيطرون على شئون الدولة والكتاب أيضا فرس ... فطبعوا الكتابة العربية بطابعهم وحكموا فيها الذوق الفارسي من ايثار الاطناب على الايجاز واللفظ على المعنى ، مع ميل للزخرفة والزينة والغرام بالحلية .. ليس هذا فحسب بل نقلوا الى الأدب العربي طباع قومهم ونظام حكمهم .. من تقديس للحكام .. واظهار الذل والخضوع لهم واضمحلال شخصيتهم في شخصية حكامهم .. مع استعمال ألقاب التفخيم والتعظيم والتهويل مما يخالف ما جبل عليه العرب من عزة وكرامة وأنفة وحب للحرية ، واحترام للذات (١) .

وتعد كتابة ابن العميد ت ٣٦٠ هـ حلقة جديدة من حلقات تطور الأساليب النثرية . فقد كثر السجع في كتابته واستخدم البديع في زخرفتها .. ولكنه كان واسع الثقافة غنيا بثروته اللفظية مما جعل صنعته صنعة المتمكن من اللغة بحيث يستخدم الألفاظ استخداما فنيا وبعمق المعاني ويدير الفكرة . وقد كان فنانا بطبعه ملما بعلوم شتى ، مخترعا ، مصورا ، يقول مسكويه عنه : " ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة كعلوم الحيل التي يحتاج فيها الى اواخر علوم الهندسة والطبيعة والحركات الغريبة .. وعمل آلات غريبة لفتح

---

(١) انظر بلاغة الكتاب ص ١٧٢ .

القلاع والحيل على الحصون ... واتخاذ أسلحة عجيبة وسهام تنفذ أمدا بعيدا .. ومرائي تحرق على مسافة بعيدة جدا ... ومعرفة بدقائق علم التصوير وتماط له بديع ، ولقد رأيته يتناول — من مجلسه الذى يخلو فيه بثقاته وأهل أنسته — التفاحة وما يجرى مجراها فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قد خطها بظفره" (١)

فهل لنا أن نرجع تلك الزخرفة التى اتسم بها أدبه الى موهبة التصوير تلك وحبه للاختراع وهذا ما لا حظه آدم متز فى أدب تلك الفترة فقد قال :

" ان رسائل القرن الرابع الهجرى هي أنفس ما اشتغل به الفنانون وهى اللغة .. ولو لم تصل الينا آيات الفن الجميلة التى صنعتها أيدى الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن ،لا ستطعنا أن نرى فى هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق وامتلاكهم لناصية البيان فى أصعب صورة وتلاعبهم بذلك تلاعبا " (٢) .

فلما جاء الأدباء يقلدون طريقته — وهم لا يملكون مواهبه — أغرقوا فى الصنعة اللفظية وتنوسي المعنى الى جانب اللفظ .. فاننا لا نجد فى كتابته من التكلف القدر الذى نجده عند معاصريه كالخوارزمى ت٣٨٣هـ والصابى ، ت ٣٨٤ هـ ، والصاحب ت ٣٨٥ هـ .

---

(١) انظر تجارب الأمم ص ٢٧٨ ومابعدها .
(٢) انظر الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٤٤٧ .

وهكذا أصبح البناء — الذى وضع قواعده عبد الحميد — مكتملا على يد ابن العميد وان تأخر اكتماله كل تلك الفترة الطويلة .. ولعل ذلك ما قصده الثعالبى بقوله : " بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ".

على أن هذه الطريقة التى تزعمها ابن العميد لم تكن عامة فى الأسلوب النثرى كله .. وتكاد فى بدايتها تنحصر فى فن الرسائل .. وقد مثلها الخوارزمى والصابى والصاحب بن عباد والميكالي وابن دريد وابن نباتة وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ... وهناك طائفة أخرى من كتاب هذا القرن آثروا الحرية فى الصياغة الفنية فلا نرى فى كتابتهم سجعا ولا ازدواجا الا قليلا كمسكويه والمرزباني وابن فارس والجرجانى والتنوخى ... وطائفة ثالثة .. تؤثر الازدواج وتسجع من حين الى آخر ،كالتوحيدى ،والآمدى ،والشريف الرضى والباقلانى ، والعسكرى والحاتمى وابن شهيد (١) . الا أن هذا لا يشمل الرسائل .

وخلاصة القول أن الصناعة اللفظيــة بما فيها من سجع وبديع وازدواج وتوازن ومحسنات لفظية أخرى بلغت مرحلة جديدة من التطور على يدى كتاب القرن الرابع وضع خطوطها الرئيسية ابن العميد وبلغ بها مقلدوه من معاصريه درجة من التعقيد والزخرف والتحذلق والتكلف ... أخرجت الكتابة من النهج العربى ،والذوق السليم .. وجعلت المعنى تابعا للفظ .. وأصبحت الألفاظ لا تقتصر على تأدية المعانى

---

(١) انظر النثر الفنى لزكى مبارك ١/١٢٧ .

بأقصر الطرق وأوضحها .. بل أصبحت غاية في ذاتها ،تفنن في التلاعب بها الأدباء تفننا بهت الى جانبه المعنى واضمحل .. ذلك التفنن الذى شغل الكتاب عن ابتداع المعانى ،والتعمق فى الأفكار والجدة والاختراع . ومعالجة قضايا ومشاكل الأمة واستشراف مستقبلها (١) ..

ومع استخدام معظم الكتاب لهذه الصناعة اللفظية فهم يختلفون فى كيفية استعمالها فنجدها عند ابن العميد أخف وطئا وأقل تكلفا ما نجده عند الخوارزمى والصاحب مثلا . وقد كانت صنعة بديع الزمان ٣٥٨ — ٣٩٨ هـ ،أخف منهما تكلفا مع تقدمهما عليه زمنا .. ولعل ذلك يرجع الى قوة العقل والاستعداد والمواهب عند كل من ابن العميد وبديع الزمان .

وتعد كتابة الخوارزمي والصاحب ارهاصا وتمهيدا قويا لأسلوب الكتابة في العصور التالية التي سرت فيها موجة هذه الصناعة وعمت حتى شملت كتب التاريخ .. ككتاب "التاجى" للصابى" فى أخبار بني بويه ، و" اليمينى " للعتبى ، وكتب تاريخ الأدب "كاليتيمة" للثعالبي ، وزاد من اشتدادها اختراع المقامات ،كمقامات الهمذاني ومن بعده الحريرى ،اذ عدت هذه المقامات قمة فن الصناعة اللفظية ،والمثل الأعلى للمنشئين فمن لم يستطع معارضتها ،نسج على منوالها فى رسائله ، وخطبه أو حتى فى تآليفه .

---

(١) بل وشغلهم أيضا عن استخدام البلاغة التى تتمثل فى علمى المعاني والبيان .

وجاء أبو العلاء المعرى في القرن الخامس ٣٦٣ — ٤٤٩ هـ ، وزاد في بناء الصنعة ، وزاد في تصميمها ، واستحكامها ، بل زاد على من سبقه باضافة لزوم ما لا يلزم في الشعر . . والالغاز بالاشارات التاريخية والمصطلحات العلمية واللغوية والغريب (١) .

أداه الى ذلك محاولة التفوق على معاصريه ، وفراغه الطويل في " محبسيه " .

فانقلب هذا من حياته الى فنه كما يقول شوقى ضيف (٢) . كما أكد هذه الطريقة الحصكفى ت ٥٥١ هـ الذى توخى في أسلوبه كتابة المقامات . . اذ أخذ منها ما فيها من اغراب وسجع وتعقيد .

ثم قلد الحصكفى في أسلوبه كتّاب القرن السادس الهجرى أمثال القاضى الفاضل والعماد الأصفهاني وضياء الدين بن الأثير ، ذلك الأسلوب المتكلف المغرق في اغرابه ، وتعقيده وتصنعه حتى خرج عن كونه احدى وسائل التعبير وغدا مظهرا من مظاهر العبث اللفظي بين أيدى صغار الكتاب وكبارهم من الأعلام كما يقول عمر موسى باشا (٣) .

---

(١) انظر بلاغة الكتاب ص ١٨٣ ومن كلف المعرى بالسجع أنه ألف عدة كتب تبدأ بكلمة سجع ، كالسجع السلطاني ، وسجع الحمائم ، وسجع الفقيه ، وسجع المضطرين ، انظر كشف الظنون ٢ / ٩٧٩ .

(٢) انظر الفن ومذاهبه ص ٢١٩ .

(٣) انظر أدب الدول المتتابعة ص ٨٣٦ .

فنحن نستخف صنعة كتاب القرن الرابع الى جانب صناعة القرن السادس التي يمثلها الفاضل والعماد .

كما أننا نستخف صنعة الفاضل وطبقته الى جانب صناعة من جاء بعدهم .

ومما يستحق التنبيه ، أن كتّاب هذا العصر كانوا يسيرون على نفس الطريق التي رسمها لهم ابن العميد وطبقته ، من الاعتناء بالسجع والاحتكام اليه ، وتطعيم الكتابة بأكبر قدر ممكن من ألوان المحسنات البديعية ، كالجناس والطباق والاقتباس من القرآن والحديث وحل أبيات الشعر .. الا أن كتاب القرن السادس ظهرت في كتاباتهم وتميزت أنواع من المحسنات : كالتورية والجناس والاستخدام كما رأينا في رسائل الفاضل والعماد وابن الأثير . كما أقبل كتاب هذا القرن على الاكثار من حل أبيات الشعر بل وحل الآيات القرآنية واستخدام معانيها ، بما يوافق أغراض الكاتب . كما ضموا الى رسائلهم كلام الخلفاء من أمثال وحكم ونوادر التاريخ واصطلاحات العلوم .

أما معاني الآيات فواضح أخذهم منها (١) ...

وأما المعاني المأخوذة من حل الأبيات الشعرية فيخفى مصدر أخذهم .. لكثرة الشعر .. الا على من حفظ كل دواوين الشعراء أو

---

(١) انظر أيضا امثلة حل الآيات في جوهر الكنز ص ٦٠٩ ومناقشته لما يجوز من ذلك شرعا وما لا يجوز.

أفلمها .. فقد عمت هذه الظاهرة واستفحلت في هذا القرن ،واعتنى الكتاب بحل المنظوم وأكثروا منه .

فهذا ابن الأثير يؤلف كتابه " الوشى المرقوم فى حل المنظوم " من أجل هذه الغاية ... بل ويبين فيه بطريقة عملية كيف يستفيد الكاتب من معانى الشعراء ،وكيف يولد منها معانى جديدة ،ولذلك قال ابن رشيق : " أجل السرقات نظم النثر وحل الشعر "(١) . وما دار بين القاضى الفاضل وابن الخلال — حين قدم مصر للاشتغال بديوان الانشاء — يزيد الأمر وضوحا ، فقد سأله ابن الخلال ماذا أعددت لفن الكتابة ؟ ،فأجابه : بأنه يحفظ القرآن وكتاب الحماسة ،ثم أمره أن يحل ديوان الحماسة مرتين(٢) .

ولكتاب النصف الثانى من القرن الرابع الفضل في ابتداع هذه الطريقة الا أن كتاب القرن السادس زادوا على من سبقهم واختصوا بحل الآيات القرآنية .. وكأنهم يهتدون بقول أبي الفضل الصورى حيث قال : " ولا شك ان كاتب الانشاء من أحوج الناس الى الاستشهاد بكلام الله تعالى فى أثناء محاوراته و فصول مكاتباته ، والتمثل بنواهيه وأوامره ،والتدبر لقوارعه وزواجره ،وهو حلية الرسائل ،وزينة الانشاءات ،وهو الذى يشد قوى الكلام، ويثبت صحته فى الافهام ،فمتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن ، عارية

---

(١) العمدة ٢/٢٩٣ .
(٢) انظر الوشى المرقوم ص ٩ .

من الفضائل .. لأنه الحجة التي لا تدحض ، والحقيقة التى لا ترفض ، فاذا كان الكاتب غير مسلم لم يكن لديه من ذلك شيء ، وكانت كتابته مغسولة من أفضل الكلام ، وخالية مما يتبرك به أهل الايمان والاسلام ، ومقصرة عن رتبة الكمال ، ومنسوبة الى العجز والاخلال[1] .

بل فضل بعضهم حل الآية والحديث على تضمينها أو اقتباسها .
يقول صاحب كتاب " كنز البراعة " : " أما حل الآيات من القرآن الكريم وكذلك الأحاديث النبوية فينبغى للمنشيء أن لا يأخذ عند حل الآية والحديث جملة اللفظ فان ذلك من باب التضمين ، ولا يأخذ المعنى مجردا عن اللفظ بكماله الا ان أراد بذلك الاستشهاد . بل اذا وقع له معنى ، وكانت آية من الآيات الكريمة أو حديث من الأحاديث النبوية يتضمن ذلك المعنى فليجعل الآية والحديث من سياق كلامه المناسب للمعنى ، فيطرز كلامه بالآية أو الحديث[2] .

وكما قلّت عناية القوم بالمعانى ، فقد قلّت عنايتهم أيضا بأنواع البلاغة — غير البديع — .

وكأن زيادة العناية بالمحسنات البديعية أغلّت بغيرها من ألوان البلاغة .

فقد انحصر ذهن الكاتب فيها .. بحيث لا يتفرغ للنظر في المجازات التي تؤدى المعانى في صور بارعة جميلة .

---

(١) صبح الأعشى ١/٦٣ ومابعدها .
(٢) ص ٦٠٩ .

— وفى نظرى — أن المجاز يحتاج من التفكير والتركيز والابتداع والاختراع ، فوق ما تحتاجه المحسنات البديعية ... ولا يغرنا ما نجده فى رسائل كتاب العصر من مجازات وبخاصة رسائل الفاضل .. لأنه مستفاد من خيالات وصور الشعراء وبخاصة شعر المتنبي فى الحرب ... والشعر — كما نعلم مبني على المجاز — وعناية الشعراء بعلمي المعانى والبيان أكثر . فقد نتج من قلة عناية الكتاب بالمعانى ، قلة الابتكار فى التشبيهات والكنايات والاستعارات وغيرها من أنواع المجاز — التى تخدم المعانى وتلونها أو توضحها وتأتى بها فى صور متعددة جميلة — الا ما نقلوه من تلك الصور من الشعر أو القرآن أو الأحاديث أو ما استفادوه من كلام العرب البلغاء .

وهذه الوظيفة — أعنى خدمة المعاني واخراجها فى صور بديعة رائعة — لا يخدمها علم البديع وبالذات المحسنات اللفظية .. وانما أخل بهذه الوظيفة شدة ولع الكتّاب بأنواع المحسنات البديعية .

ومما يجب ملاحظته ، أن " البديع " الذى أشار اليه الجاحظ فى قوله : " والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان "(١) . ليس المقصود به البديع الذى نعنيه اليوم — أى المحسنات البديعية فقط — .. وانما قصد به : الجدة والطرافة ، واختراع المعانى الجديدة ..

---

(١) البيان والتبيين ٤/ ٥٥ .

ألا تراه يفسر بيت الأشهب بن رميلة :

هم ساعد الدهر الذى يتقى به

وما خير كف لا تنوء بساعد

بقوله : " قوله : " هم ساعد الدهر " ، انما هو مثل .. و هذا الذى تسميه الرواة البديع "(١) .

فقد أطلق على الاستعارة فى " ساعد الدهر " .. بديع .. اذ أن المعنى الطريف أتى منها .. ولذلك أردف بيت الأشهب ببيت الراعي :

هم كاهل الدهر الذى يتقى به

ومنكبه ان كان للدهر منكب (١)

و نظرة الى باقى الأمثلة التى أوردها الجاحظ — كأمثلة على البديع — تبين أن مراده بالبديع ، ألوان البلاغة كلها بما فيها التشبيه والاستعارة والسجع وغيرها ... اذ كان العلماء والأدباء والنقاد فى القرون الأولى بما فيها القرن الثاني والثالث الهجرى ، يقصدون بكلمة " بديع " : ألوان البلاغة كلها .. أو ما تأتى به هذه الألوان من صور غريبة طريفة ، أو جيدة جديدة . سواء كانت تلك الصور أديت .. بواسطة التشبيه أو الاستعارة أو أى نوع من أنواع البديع . وذلك أن علماء البلاغة الى ذلك العهد والى ما بعده كانوا يخلطون بين فروع علوم البلاغة .

وقد تجتمع الاستعارة والمحسن البديعى فى جملة أو بيت شعر فيكونان صورة بديعة طريفة .

---

(١) البيان والتبيين ٤ / ٥٥ .

أما المحسن البديعي اللفظي .. فلا يولد مثل تلك الصور من غير اقترانه بالمجاز .

واجتماع جمال المعنى وطرافته وجدته بحسن اللفظ وجماله لا يتأتى لكل أحد .. واجتمع ذلك في القرآن الكريم ،ولعل ذلك من أوجه اعجازه .

وبعد أن تقرر لدينا أن الجاحظ لم يقصد بكلمة " البديع " ما نفهمه اليوم منها كتعريف لعلم البديع ، بل قصد بها ما هو أعم من ذلك : أى أنها كلمة تعم كل ألوان البلاغة بما فيها البديع .. فان قوله : " البديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان يشير بنا الى سبب علو كعب العرب في البلاغة والفصاحة واللسن .." وأن ذلك يرجع الى اعتماد العرب التعبير المجازى في كلامهم .

ونحن لا ندخل في قضية وجود المجاز وأنواع البلاغة — في اللغات الأخرى من عدمه ،اذ أن ذلك يتطلب معرفة لتلك اللغات ومن ثم مقارنتها باللغة العربية .

ولا أظن الجاحظ قصد — بقوله ذلك — نفى وجود البلاغة في اللغات غير العربية .. بل أراد أن اللغة العربية تفوق اللغات الأخرى في اعتمادها على التعبير المجازى ،وأنه فيها أعم وأوضح .

وحسب هذا الرأى — وهو ما أريد أن أصل اليه — فان الأديب كلما اعتمد في تعبيره على أنواع المجاز جاد كلامه وملح اذا سلم من التكلف ، وكلما قل ذلك فيه ، قلت جودته وضعفت طرافته .

وهذه قضية لا تحتاج منا الى زيادة بيان، اذ أن المعانى التى يؤديها التعبير المجازى أعلى درجة وأجمل، وأمتع من تلك التى تؤديها ألفاظ الحقيقة.

والذى يمعن النظر الى القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام البلغاء، وشعر الفحول من الشعراء يجد أن ما فيها من معانى رائعة وصور بديعة .. أدّيت بواسطة التعابير المجازية.

وأنا لا أنكر خلو رسائل كتاب القرن السادس وما بعده من المجاز — اذ لا يتصور أن يخلو الكلام العربى منه — ولكنى أقول : ان انكباب الكتّاب على المحسنات البديعية — التى تنصب على تحسين الألفاظ — كان على حساب الاعتناء بألوان البلاغة الأخرى .. التى تخدم المعانى، وتجعلها طريفة بديعة. وهذا يأتى نتيجة لقلة عنايتهم بالمعانى، ولهيمنة الكتاب وبخاصة القاضى الفاضل على الحياة الأدبية فى ذلك القرن فقد طبعت الأساليب الأدبية عامة .. بطابع الصناعة اللفظية التى التزمها الكتاب فى رسائلهم، وقل من خرج عنها فقد كانت تقرأ رسائلهم فى المحافل وعلى المنابر، لارتباطها بالأحداث الكبرى فى عصر الحروب الصليبية، ولاشتهار كتابها بالبلاغة بين أدباء عصرهم، وللمنزلة العظيمة التى كان يحتلها بعض الكتاب فى الدولة ..

ولم يقف الأمر بالكتّاب بعد عصر العماد والفاضل، ومعاصريهما عند الحد الذى وصلوا اليه من الاغراق فى الصنعة والتعقيد، والزخرف الذى أحالوه الى أشكال هندسية بل زادوا فى هذه الطريقة أنواعا بديعية وأغرقوا فيها اغراقا نأى بها كثيرا من محجة الصواب ...

وبدت وفي وجهها كثير من الكلف ،وبين طياتها وضح التعسف ، فقلّت جدواها وتضاءل النفع بها ،وما ذلك الا لأنّ العناية باللفظ جنت على العناية بالمعنى فصرفتها عنه ... فأصيب بالخفاء تحت استعارة متكلفة أو تشبيه متعسف أو تورية مصطنعة واما بالتكرار والتفاهة المحطة "(١) . ولعل من أسباب دفعهم الى الاغراق في ذلك الاسلوب عنايتهم الفائقة بعلم البديع ـ الذى كان قبل ذلك تابعا لعلوم البلاغة فأصبح في زمانهم معيار البلاغة ـ وعشقهم للمحسنات البديعية حتى اعتبروها هي البلاغة وحدها وتناسوا علم البلاغة الحقيقى من معانٍ وبيان. يشايعهم في ذلك بعض النقاد ، اذ نجد محمد بن حيدر البغدادى ت ٥١٧ هـ يقول :

" ورأيت قوما يذهبون الى كراهة السجع والازدواج في الكلام من غير أن أعرف لهم في ذلك حجة ،فعلمت أنّهم ذموا ما راموه فلم يصلوا اليه ،وتعاطوه فلم يقدروا عليه "(٢) .

وهناك ظاهرة لها أهميتها في غرام الكتاب المتأخرين بالبديع وحرصهم عليه .. هي اتجاه بعض الشعراء الى نظم القصائد الطوال في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد بنوها على الاحتفال بالبديع .. ولعل أول تلك القصائد قصيدة " البردة " للبوصيرى ٦٠٨–٦٩٦هـ ، ومعارضات الشعراء لها (٣) ، فأطلق على تلك القصائد اسم البديعيات

---

(١) انظر الأدب العربى من عهد الفاطميين الى اليوم ص ٨٨ .

(٢) قانون البلاغة ص٣٠ .

(٣) انظر قصائد المديح المرفوعة الى الرسول صلى الله عليه وسلم .

نسبة الى علم البديع ،ثم تطورت حتى جعلوا كل بيت من القصيدة مثالا لنوع أو أكثر من البديع ابتداء من على بن عثمان الأربلى ت ٦٧٠ هـ وصفى الدين الحلى ت ٧٥٠ هـ — الذى جمع فى قصيدتين ١٥٠ نوعا من البديع ثم تلاه ابن جابر الأندلسى ت ٦٩٨ هـ ،وعلى بن الحسين الموصلى ت ٧٨٩ هـ وعيسى بن حجاج السعدى ت ٨٠٧ هـ ثم الآثارى ت٨٢٨ هـ.(١)

بالاضافة الى عناية المؤلفين بهذه الأنواع البديعية والاشادة بحسنها فى الكلام حتى ألفوا فيها الكتب الطوال بل ألفوا فى نوع منها أو نوعين كتبا مستقلة ككتاب "فض الختام عن التورية والاستخدام" و "جنان الجناس"(٢) للصفدى ت ٧٦٤ هـ ، و" كشف اللثام عن التورية والاستخدام" لابن حجة الحموى ،و"أنيس الجليس فى التجنيس" لعلى بن الحسن الحلبى ت ١٠٦١ هـ(٣) ، و"أجناس التجنيس" لأبى على حسن العراق الحلبى ت ٨٠٣ هـ(٤) ، و" جنى الجناس "للسيوطى ت٩١١هـ،(٥) و "الدر النفيس فى أجناس التجنيس" لابن سرايا الحلبى(٦) .

ولعل أوضح دليل على غرام القوم بالبديع ما ذكره الصفدى فى مقدمة كتابه "جنان الجناس" حيث قال :

---

(١) انظر بديعيات الآثارى ص ٦—٨ .
(٢) طبع بمطبعة الجوائب سنة ١٢٩٩هـ وانظر كشف الظنون ١/ ٦٠٦ و ٢/ ١٢٧٤ .
(٣) انظر كشف الظنون ١/ ١٩٧ .
(٤) انظر نفس المرجع ١/ ١١ .
(٥) انظر نفس المرجع ١/ ٦٠٧ .
(٦) انظر نفس المرجع ١/ ٦٠٧ .

" وبعد فلما كان فن البديع في الزمن المتأخر أحسن بدعة وأوضح لمعة ، وأطلع طلعة ، وأكثر رواية وسمعة ... به تبنى بيوت الشعر في أشرف بقعة ، وتبرز أبكار الأفكار في خلعة بعد خلعة ، وإذا كان الشعر بحرا فهو منه أعذب جرعة ، والمكاتبات حلة مرموقة فهو طراز كل رقعة ، خصوصا نوع التجنيس الذي هو ركن شريعته .. وغاية سجعته "(١) .

---

(١) انظر فض الختام ص ١٠١ .

الفصل الثانى

أثر الرسائل الديوانية فى الأدب .

الفصل الثانـــــى

أثر الرسائل الديوانيـة فـــــــى الأدب

الرسائل الأدبية فرع من فروع الأدب الكبيرة ومنها الشعـــــر والخطب والمقامات والمناظرات والقصص والتراجم والكتب الأدبية .. الخ

أما الشعر فقد ازدهر منذ العصر الجاهلى .. وكان الفن الذى أجاده العرب وعبروا به عن مناحى حياتهم أصدق تعبير [١] .. اذ كانوا أكثر ما يعتمدون عـليه البيان واللسن .

كما ازدهر فن الخطابة فى الجاهلية أيضا وبلغ ذروته فى العصـر الاسلامى ،على أيدى الخلفاء ،أمثال أبى بكر وعمر وعلى ومعاوية رضى الله عنهم ،كما اشتهر بها عدد من البلغاء فى هذا العصر أمثال سحبان وائـل وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وغيرهم .

وهى الفن الثانى الذى تجلّت فيه بلاغة العرب وفصاحتهم وذرابة ألسنتهم .

أما الكتابة الفنيـة ،فقد تأخر ظهورها الى العصر الأموى . يقول صاحب كتاب نقد النثر [٢] المنسوب لقدامة :

---

(١) انظر البيان والتبيين ١ / ٢٤١ ، ٤ / ٨٣ حيث قال : " وكان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب وهم اليه أحوج لرده مآثرهم عليهم . فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم " .

(٢) نشره الدكتور حفنى شرف تحت عنوان : " البرهان فى وجوه البيان " ونسبه لاسحاق بن وهب .

" ولم يزل الشعر ديوان العرب في الجاهلية لأنهم كانوا أميين ، ولم تكن الكتابة فيهم ، الا لأهل الحيرة ومن تعلم منهم "(١) .

ويقول القيرواني : " لما رأت العرب المنثور يند وينفلت من أيديهم ، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم ، تدبروا الأوزان والأعاريض فاخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فجاءهم مستويا "(٢) .

وقد كثر الجدل بين الباحثين حول أيهما أسبق في الوجود ، الشعر أم النثر ، وحول نشأة النثر الفني . ولعل أصح ما قيل في ذلك أن العرب الجاهليين عرفوا النثر كما عرفوا الشعر ، ولكن النثر الذي عرفوه كان نثرا عفويا ، يقولونه سليقة بدون ترو وتجويد . . وقد تمثل في مأثر منهم من الخطب القصار والأمثال الموجزة وغيرها ، الا أنه لا يمكن مقارنته بالشعر في هذه المرحلة . .

وقد ضاع تراث الجاهلية من النثر لغلبة الأمية على أهلها وصعوبة حفظه(٣) ، وعدم تدوينه . . لأن الكتابة وليدة الحضارة والعرب في الجاهلية كانت أقرب الى حياة البداوة .

---

(١) نقد النثر ص ٧٩ ، ويقول الجاحظ : " وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون " البيان والتبيين ٣ / ٢٨ .

(٢) الممتع في صناعة الشعر ص ١٩ .

(٣) انظر قلادة البيان ص ١٠ .

وقد تدرج النثر الأدبي — كما مر بنا في الفصل السابق — خلال العصر الاسلامي نحو الفن والتجويد حتى بلغ مرحلة النضج أو كاد على يد عبد الحميد الكاتب .. وليس غريبا أن نرى فن الكتابة يكتمل أو يكاد على يديه لأنه عالجه في دواوين الانشاء مدة طويلة — منذ عهد عبد الملك ٦٥ — ٨٦ هـ اذا صدقت رواية ابن عبد ربه (١) الى آخر عهد الأمويين ١٣٢ هـ ، وهي فترة كافية لتطوير هذا الفن والسير به نحو التجويد وبخاصة اذا عرفنا أن عبد الحميد وأستاذه سالما كانا ملمين بالثقافة الفارسية واليونانية ... وأن كاتب الديوان في هذه الفترة كان يملك حرية التصرف في انشاء الرسالة بنفسه فضلا عن أنه من صفوة المثقفين البلغاء.

وفي هذه المرحلة يمكن أن نبحث مسألة التأثير والتأثر بين الرسائل وغيرها من فنون الأدب .

وبصفة خاصة بين الشعر والكتابة .. ولنقهد هنا أن القدامى حينما يطلقون كلمة " الكتابة " انما يعنون بها " الرسائل " . يقول القلقشندي : " العرف فيما تقدم من الزمان خص لفظ الكتابة بصناعة الانشاء .. حتى كانت اذا أطلقت لا يراد بها غير كتابة الانشاء ، والكاتب اذا أطلق لا يراد به غير كاتبها ، حتى سمّى العسكريّ كتابه " الصناعتين الشعر والكتابة " يريد كتابة الانشاء " (٢) .

---

(١) انظر العقد الفريد ٣ / ٧ .

(٢) صبح الأعشى ١ / ٥٢ .

وقد أكثر المؤلفون القدامى من الموازنة بين الشعر والكتابة ... فذهب الكثيرون منهم الى تفضيل الكتابة على الشعر (١) ،وذهب آخرون الى تفضيل الشعر على الكتابة (٢) . والذى يعنينا هنا ليس ما بسطه أولئك المؤلفون من الأدلة حول أى الفنيين أفضل .. فقد أطالوا

~~وحصيلة المؤلفون من الأدلة حول أى الفنيين أفضل .. فقد أطالوا~~

وحصيلة ما أوردوه .. أن لكل فن مجاله و جماله وفائدته ،وانما الذى يعنينا هنا هو معرفة أى الفنيين أثر فى الآخر . وحسب ما اتضح لنا أن الشعر سبق الكتابة فى النضج والاكتمال والسيرفى مسالك الفن . فلا بد أن يؤثر السابق فى اللاحق .. فقد أثر الشعر فى الرسائل خاصة .. بأخيلته الجميلة وصوره الرائعة ،وألفاظه المختارة ،وعباراته القوية المسبوكة ... وبأسلوبه الجزل .. و بجمله الموسيقية المنغمة . يدل على ذلك قولهم فى امام المترسلين فى عصره .. "عبد الحميد الكاتب" كان أول من فتق أكمام البلاغة ،وسهل طرقها ، وفك رقاب الشعر" (٣) .

وقول أحد الباحثين عن سر اسهاب عبد الحميد فى رسائله : " ان تلك الاطالة ... أثر من روح الشعر الذى كان يحرك عبد الحميد فى نثره ،ويبدو أن الرسالة الفنية قد أخذت تتجسم فى يده و تتراءى أمام عينيه معلقة نثرية " (٤) .

---

(١) انظر صبح الأعشى ١ / ٥٨ واحكام صنعة الكلام ص ٣٦ .

(٢) انظر المتبعفى صناعة الشعر ص ١٩ ودلائل الاعجاز ص ٩ومابعدها .

(٣) العقد الفريد ٣ / ٧ ،وقال أبو تمام لسليمان بن وهب " كلامك ذوب شعرى " أخبار أبى تمام ص ١٠٤ .

(٤) الفن الشعرى ص ٤٢ .

ولا دراك الكتّاب أنهم بحاجة الى معانى الشعر وأخيلته ،رأيناهم يحلّون الشعر ويستخدمونه فى رسائلهم ويحاولون اجادته وقرضه .. واعتبر الجمع بين الفنين مما يدعو للاعجاب [(١)] .. وكان أغلب الكتاب المشهورين يقولون الشعر كابن العميد والصاحب والخوارزمى وبديع الزمان وغيرهم. الا أنهم لم يبلغوا مبلغ فحول الشعراء. [(٢)] وقد بلغ من كثرتهم أن قال ابن رشيق : " ولو حاولت أن اذكر من علمت من شعراء الكتّاب سوى من ذكرت لبعد الأمد وطالت الشقة " [(٣)] .

كما تأثرت الرسائل بلغة الخطابة ،اسلوبا ومعنى .. وكانت هذه الفنون الثلاثة ـ الشعر ـ الخطابة ـ الكتابة ـ أعمدة الأدب فى العصر الاسلامى ...

وما أن أخذت الكتابة مكانها بين هذه الفنون الأدبية ـ بعد أن أخذت سماتها ،واكتمل نموها ـ حتى بدأت تؤثر كما كانت تتأثر ..

---

(١) يقول بديع الزمان الهمذانى : " البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره " مقامات بديع الزمان ص ٧٥ ، ويقول أبو بكر الخوارزمى : " والكتابة آلة عجيبة وهى من الشاعر أعجب كما أن الشعر صناعة غريبة وهى من الكاتب أغرب " رسائل الخوارزمى ص٢٤ .

(٢) ولعل ذلك راجع الى قول سهل بن هارون " اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان فى واحد ،وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم " البيان والتبيين ١ /٢٤٣ . مع أن ابن رشيق يقول : " الكتّاب أرق الناس فى الشعر طبعا وألطفهم تصنيعا وأحلاهم ألفاظا ،وألطفهم معانى وأقدرهم على تصرف وأبعدهم عن تكلف " العمدة ٢ /١٠٦ .

(٣) العمدة ٢ /١١٠ .

ومن ناحية أخرى ، بدأ تأثير الثقافات الأجنبية — وبخاصة الفارسية منها — يتجلّى في النثر ، وفي الرسائل على الأخص ، اذ أن العرب وصلوا بالشعر والخطابة الى مرحلة الكمال من البلاغة والجودة قبل هذا التأثير . ولا أظن أن أدب الحضارتين الفارسية واليونانية بلغ شأو الأدب العربي في هذين الفنيين خاصة .

ولذلك استغنى العرب عن ترجمة الأدب اليوناني ، الا ما ذكر من ترجمة سالم لبعض رسائلهم (١) .

أما في مجال الكتابة فقد تأثرت الرسائل الديوانية بنظم ورسوم الرسائل الفارسية خاصة (٢) ، لا سيما بعد أن تولاها من يجيد الفارسية من الموالي . . وبعد انتشار الترجمة . وقد مرّ بنا قول أبي هلال العسكري : " ان عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي " (٣) . كما نجد ما يدل على ذلك في قول ابن المدبر (٤) ت (٢٧٩ هـ) يوصي الكاتب

---

(١) انظر الفهرست ص ١٨٢ مع ان ابن النديم لم يبين نوع هذه الرسائل .

(٢) انظر العصر الاسلامي ص ٤٧٥ ، والفن ومذاهبه ص ١٢٤ .

(٣) انظر الفن ومذاهبه ص ١١٦ نقلا عن الصناعتين ص ٦٩ .

(٤) هو ابراهيم بن المدبر وزير من الكتاب المترسلين ، انظر ترجمته في الأعلام ١/ ٦٠ و معجم الأدباء ١/ ٢٢٦ ، وزهر الآداب ١/ ٣٣٠ .

" وانظر في كتب المقامات والخطب و محاورات العرب و معاني العجم، وحدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم، وعهودهم، وتوقيعاتهم وسيرهم ومكايدهم وحروبهم"(١) . وفي هذا دلالة على أن رسائل الفرس وتوقيعاتهم وعهودهم كانت معروفة لدى الكتاب في عصر ابن المدبر .

وأريد أن أصل بهذا التمهيد الى أن الصناعة اللفظية المحكمة — التي غلبت على الأساليب الأدبية فيما بعد — كانت أثرا من آثار الرسائل الديوانية، وثمرة من ثمارها .

وقد بدأ الباحثون المعاصرون وأعادوا في موضوع تأثر الأدب العربي بالأدب الفارسي . . كما اختلفوا في موضوع مصدر هذه الصناعة اللفظية التي طغت على الأساليب وجنت على المعاني . والحق أن تأثر الأدب العربي بآداب اللغات الأخرى، أمر يقره العقل والمنطق . . فقد ظهر هذا التأثير في الرسائل الديوانية . . وقد مرت بنا نصوص صريحة تثبت ذلك. وهو أمر طبيعي، لأن هذا الفن لم ينضج بالصورة التي وجدناه عليها في العصر العباسي على يدي العرب — كما نضج الشعر والخطابة — بل على يدي الموالي . . حينما دعت اليه الحاجة من اتساع الدولة و تمدنها والكتابة — كما قيل — وليدة الحضارة والتمدن —.

---

(١) انظر الرسالة العذراء" ص٩١ . ويقول الجاحظ : " و نحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس، أنها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة، اذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيد الله و عبد الحميد وغيلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير" البيان والتبيين ٣/ ٢٩ .

وقد سبقت الحضارة الفارسية الحضارة الاسلامية بزمن طويل ..
فلما اجتاح العرب فارس ، وأسلم أهلها على أيديهم ، استفاد العرب من نظمهم بما فيها نظام الدواوين التي تعتمد على الكتابة ، وكانت تكتب كما مرّ بنا بلغات أهل البلاد التي توجد فيها .. فلما عربها عبد الملك .. اشتغل فيها الموالى بعد أن حذقوا اللغة العربية ، الا أنها تعتبر بالنسبة لهم اللغة الثانية .. فطبعوا الكتابة بطابعهم .. وهذا مظهر من مظاهر تلاقح الثقافات .. ولا عيب فيه على اللغة العربية أو أهلها لأن هذا قانون الحياة ..

فلما تأثر الأدب العربي في أول أمره بالثقافة الفارسية تأثر الأدب الفارسي بدوره بالأدب العربي بعد مسيرة طويلة جعلته أقوى منه . وأكبر دليل على تأثر الأدب الفارسي بالأدب العربي أن الألفاظ العربية تشكل من ٥٠ — ٨٠ ٪ في بعض الكتب الفارسية (١) .

ثم ان الحضارة الاسلامية اتسعت لأكثر من ثقافة ، فمنها الفارسية ، ومنها اليونانية ، ومنها الهندية ، واستطاعت أن تصهر تلك الثقافات في بوتقة اللغة العربية — وتأخذ منها أخذ الغالب من المغلوب — ، فبعضها استفادت منها المعاني والأفكار ، وبعضها تأثرت به في الأساليب والتراكيب والخيال ، وبعضها استفادت منه علما مجردا كالفلك والفلسفة وغيرهما . وكثر الأدباء والعلماء والمؤلفون ، من الجنسيات غير العربية في جميع فروع العلم .. ولكنهم عبروا وكتبوا باللغة العربية وأصبح انتاجهم

---

(١) انظر تيارات ثقافية ص ٢٧٧ .

بذلك عربيا . . وهذا لا يقدح في قدرة العرب أو يقلل من شأن لغتهم .

ونعود للنقطة التي بدأنا منها . . وهي أن مصدر اشاعة الصناعة اللفظيـة في الأساليب جاء من طريق الرسائل الديوانيـة . وكان المنطق يدعونا الى أن نقول ان شيوع هذه الظاهرة الأسلوبيـة في الرسائل كانت نتيجـة لتأثير الثقافـة الفارسية فيها وبخاصة أنها ظهرت على أيدى كتّـاب من أصل فارسي يجيدون اللغة الفارسية ، وأن البيئة التي شاعت فيها هذه الظاهرة واستحكمت هي فارسية أيضا ، أعني بها شرق الدولة الاسلامية — موطن ابن العميد والصاحب وابن وشمكير والخوارزمي وغيرهم .

وقد ذهب الى هذا الرأي طائفة من الدارسين المحدثين أمثال طـه حسين ، ومحمود غناوى وغيرهم (١) . الا أن زكي مبارك يرى أن هذه الصناعة اللفظية ترجع الى أصول عربية صميمة ، ولا يجوز الحكم بأنها جاءت عن طريق الفرس (٢) . . وشايعه بعض الدارسين المحدثين مستدلا بأن الأدب الفارسي في القرن الرابع الهجري — قرن ازدهار فن البديع وغلبته على أساليب الكتّاب — لم يكن أدب سجع وبديع ، وأن آداب الفرس الدّريـة التي انبعثت في القرن الثالث كانت أكثر الآداب الفارسية تأثيرا في العربية ، وأنه لم يبلغ تأثير اللغة الفهلوية على ما انتهى من ألفاظها ونقل من كتبها — الى اللغة العربية تأثير هذه اللغة الدّرية (٣)

---

(١) انظر من حديث الشعر والنثر ص ٧٩ والأدب في ظل بني بويه ص ٢٩٩ وما بعدها .

(٢) انظر النثر الفني ١/٦ ، ٥٠٠ ، ٥٣٠ .

(٣) انظر الكتابة الفنية ص ٣٩٨ ، يقول عبد الله بن المقفع . . لغات الفارسية الفهلوية والدرية والفارسية والخوزية والسريانية . . والدرية لغة أهل المدائن وبها كان يتكلم من بباب الملك . انظر الفهرست ص ١٩ وانظر البيان والتبيين ١٣/٣ .

وأن النثر الفارسي في عهد الساسانيين (٣٠١-٤٥٠) - كان مرسلا خاليا من الصنعة اللفظية [١]. ولا أدري على أي شيء اعتمد الباحث فيما ذهب اليه من أن الأدب الدرية الخالية من الصنعة اللفظية - كما قال - أكثر تأثيرا في اللغة العربية والأدب العربي من اللغة الفهلوية .. مع أنه ينص على أن آداب هذه اللغة انمحت في القرن الثالث الهجري ..

ونحن نعلم أن تأثير الثقافة الفارسية في الأدب العربي وبخاصة في الرسائل أسبق من هذا التأريخ بزمن طويل ، اذا اعتبرنا أن عبد الحميد وأستاذه سالما أول من أدخل أساليب الفرس على فن الرسائل ثم أن الترجمة بدأت في القرن الثاني الهجري .. والكتاب الذين تولوا كتابة الديوان - ابتداء من عبد الحميد وانتهاء بابن العميد - كانت ثقافتهم ولغتهم الفارسية أقدم من التاريخ الذي حدده الباحث [٢].

أما الأدب الساماني المكتوب باللغة (الدرية) وخلوه من الصناعة اللفظية - كما يقول الباحث - فليس حجة على عدم سريان هذه الظاهرة من الأدب الفارسي للأدب العربي .. اذ أن تأخر نشأة هذا الأدب بالنسبة للأدب العربي لا يؤهله للتأثير في أدب أسبق وأقوى منه . اضافة الى أن الأدب الفارسي كتب بأكثر من لغة [٣].

---

(١) انظر الكتابة الفنية ص ٣٩٨ .

(٢) يقول ابن النديم : ان بعض الرسائل كانت تكتب بالسريانية .. وتقرأ بالفارسية ، انظر الفهرست ص ٢١ .

(٣) انظر الفهرست ص ١٩ والبيان والتبيين ٣/ ١٣ .

فالأدب العربى ليس فى حاجة فى هذا العصر المتأخر أن يتأثر بأدب ناشئ لم يصل الى مرحلة التأثير ، بل العكس هو الذى حدث اذ تأثر الأدب الفارسى فى هذه الفترة بالأدب العربى . فقد حاكى الفرس العرب فى الرسائل الديوانية . . واحتفوا بالصناعة والسجع والمحسنات ، وبدأت الترجمة من اللغة العربية الى الفارسية فقد ترجم كتاب "كليلة ودمنة" من العربية الى الفارسية بعد أن فقد أصله باللغة الفارسية (١) .

وأنا لا أنكر أن البديع بما فيه من سجع وازدواج وجد فى الأدب العربى القديم ، وأن القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد على ذلك وقد نص على ذلك كثير من النقاد القدامى كابن المعتز وابن الأثير وغيرهما (٢) .

الا أن لى ملاحظتين على ذلك :

أولاهما : أن ما وجد من سجع وازدواج فى كلام العرب من خطب وأمثال وشعر . . لم يلتزم فى كل كلامهم . . وكان استعمالهم له بطريقة تختلف عن الطريقة التى استعمله بها ابن العميد وطبقته ومن جاء بعدهم . . فقد استعمله العرب فى الكلام الموجز القصير كالأمثال والحكم والمنافرات ، وبعض الخطب القصيرة ليسهل حفظها . وكانت خطب الرسول صلى الله عليه وسلم من أوجز الكلام ولذلك

---

(١) انظر تيارات ثقافية ص ٢٧٩ ومابعدها .
(٢) انظر البديع ص١ والمثل السائر ١ / ٢٧١ .

قال صلى الله عليه وسلم " وأعطيت جوامع الكلم "(١) .

وكذلك الشأن فى القرآن الكريم فقد كثر السجع والازدواج فى سوره القصار .. ولعل فى ذلك حكمة تشريعية .. اذ كان القوم يعتمدون على الحفظ ، وتكثيف المعنى فى ألفاظ قليلة لها جرس وموسيقى يسهل حفظها واستعادتها .

وثانيتهما : أن تلك النصوص لا تلتزم السجع ولا أى نوع آخر من أنواع البديع بل جعلت الألفاظ خادمة للمعانى فاذا لم يطاوع اللفظ المعنى تغير الوزن وتغيرت السجعة ، ثم إن الأنواع البديعية فى تلك النصوص لم تكن من الكثرة الى الدرجة التى وصلت اليها فى رسائل القرن الرابع ، بل لا يمكننا المقارنة بينها . فقد رأينا تلك الرسائل يكثر فيها اللفظ و يقل المعنى و يلتزم السجع والبديع .. ويتبع فيها المعنى اللفظ و يطاوعه .

كما اختلفت عنها باسهابها .. وزيادة نسبة البديع فيها زيادة تنبو عن الطباع وقد ينفر منها الذوق السليم .. ثم أن وجود السجع فى

---

(١) البيان والتبيين ٤/ ٢٩ .. ولذلك قال الجاحظ : " واذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف ولا خير فى شيء يأتيك به التكلف " نفس المرجع ١/ ١١٥ ، ويقول فى موضع آخر : " الكلام اذا قل وقع وقوعا لا يجوز تغييره واذا طال وجدت فى القوافى ما يكون مجتلبا مستكرها " ١/ ٢٨٨ .

تلك النصوص العربية القديمة لا يمنع تأثر الرسائل بأساليب الآداب الأخرى بما فيها من تنغم و تقاليد وصناعة لفظيــة و ميل الى التهويـــل والتعظيم والمبالغة . .

وأعود فأقول : ان الصناعة اللفظية في شكلها الذى برز فى القرن الرابع سواء كان مصدرها عربيا صميما أم من تأثير اتصال الأدب العربى بالآداب الأخرى أم أنه يرجع الى هذا وذاك ، فان مصدر شيوعها فــى الأدب العربى كان من طريق الرسائل الديوانية . . وأن كتّاب الرسائـــل كانوا متأثرين بالروح والذوق الفارسى لأنّ ما وصلت اليه الرسائل فى هذا العهد ينافى الذوق العربى . فالاسهاب والمبالغة والتهويل واظهـــار الخضوع لم يعرفــه العرب الا بعد مخالطتهم للعجم (١) .

والرسائل الديوانية من جهة ثانية أصبحت فنا مستقلا من فروع الأدب له خصائصه و مميزاته وسماته وطابعه . . منذ أن بدأ عبد الحميد ينشىء رسائله . .

و هى من جهة أخرى بدايــة النثر الفنى فى الأدب العربى ـ اذا استثنينا الخطابة باعتبارها فنا القائيا و ليست كتابيا ـ .

وقد بدأت بوادر الصنعة فيها منذ ذلك الوقت و تطورت حتـــى بلغت الغاية فى القرن الرابع الهجرى على يد ابن العميد وطبقتــه .

---

(١) يقول الجاحظ : " والعجم تمطط الألفاظ فتفيض و تبسط حتى تدخل فى وزن اللحن فتضـــع موزونا على غير موزون " البيان والتبيين ١ / ٣٨٥ .

ومن الملاحظ أن أكثر الباحثين اليوم — عند دراستهم للنثر الفنى — جروا على عدم التفريق بين كتابة الرسائل وغيرها من فروع النثر — حينما يتحدثون عن المدارس الفنية أو عن تطور الأساليب .

وليس الأمر كذلك ، فقد اتخذت بقية الأنواع الأدبية النثرية كالترجمة والتأليف والقصص والجدل خطا غير خط الرسائل فى أسلوبها أو قل ان الرسائل هى التى امتازت عنها فى أسلوبها ومنهجها (١) . وأكبر دليل على ذلك أن كتب ابن المقفع — وهو فارسى الأصل والثقافة ورفيق عبد الحميد — لم تلتزم بخصائص رسائل الكتاب لعلمه أن فن الرسائل غير فن الترجمة والتأليف ، وبدليل أن ما سوى الرسائل من النثر الفنى بقى سليما من طغيان الصناعة اللفظية الى ما بعد القرن الرابع تقريبا . وبقى الكتاب خارج البلاط السلطانى يكتبون بأسلوب مرسل ولا يلتفتون الى تلك المحسنات ابتداء من ابن المقفع ومرورا بالجاحظ وانتهاء بالتوحيدى — المعاصر لابن العميد — ومثل فن الرسائل فى تميزه عن غيره من الفنون الأدبية ، فن المقامات اذ لا يمكن تجريدها من ثوبها المطعم بالحلى والألوان والتزامها لأنواع المحسنات اللفظية — التى هى ثمرة من ثمرات الرسائل الديوانية — ولو جردت منها لما كانت مقامات ولهذا قال العسكرى : " يتأنق الكاتب فى رسالته والخطيب فى خطبته والشاعر فى القصيدة ويبالغون فى تجويدها ويغالون فى ترتيبها

---

(١) ولذلك قال الجاحظ فى بشار بن برد : " كان شاعرا راجزا خطيبا ، وصاحب منثور ومزدوج وله رسائل معروفة " البيان والتبيين ١ / ٤٩ ، وكأن المزدوج متميز عن المنثور .

ليدلّوا على براعتهم وحذقهم بصناعتهم"[1] ـ فألحق الرسالة بالخطبة والقصيدة فيما تحتاج اليه من صناعة وتجويد .. دون غيرها من أنـــواع النثر .

وقال الجرجانى : " والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع فانها تروى وتتناقل تناقل الأشعار ،ومحلها محل النسيب والتشبيب"[2] . وهذا الحكم يصدق أيضا على الرسالة التى حلت محل الخطابة فى العصور المتأخرة[3] .

وعملية تـأثير الثقافة والأدب الفارسى فى الأدب العربى فى بدايته ثم تأثره به بعد أن اكتملت مقوماتـه وتوسعت أغراضه ،وبسطت معانيـه ، يمكن أن تصدق أيضا على عمليـة تأثر الرسائل بغيرها من الأنواع الأدبية فى اللغة العربيـة ثم تأثيـرها فيها فيما بعد ..

فالرسائل فى مراحلها الأولى استمدت عناصر قوتها من الشعر والخطابة والأحـــاديث والقرآن الكريم وعلم الكلام ، اضافة الى تأثرها بالثقافات الأجنبية ـ كما مرّ بنا ـ فلما قامت على ساقها واستوى ثمرها ، وتميزت بخصائصها عن بقيـة الأنواع الأدبية ـ بعناية من تولاهـــا من الفصحاء والبلغاء ،وأهل الثقافات الواسعة ـ اتجهت لها الأنظـــار

---

(١) صبح الأعشى ٢ / ٢١٠ـ٢١١ .
(٢) أسرار البلاغة ص ٦ .
(٣) انظر تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٢١٥ .

وخلبت الأعين بجمال أسلوبها .. وأثرت في النفوس بفضل احتفال أربابها باختيار ألفاظها وتطعيمها بالأبيات النادرة والأمثال السائرة والاقتباسات الجيدة من القرآن والحديث — وبدأت تؤثر بدورها في تلك الأجناس الأدبية ، بعد أن علا شأن من يتولاها حتى احتلوا المكانة العليا في الدولة ، وأصبح منهم الولاة والوزراء بل أصبحوا محط آمال الأدباء ، يرجون نوالهم ويأخذون عطاياهم .. حتى رأينا فحول الشعراء يفدون إليهم ويقفون بأعتابهم ويشيدون بمآثرهم ويتزلفونهم كما كانوا يفدون على الخلفاء (١) .

فانتشرت رسائلهم وعلا شأنها في الأدب وتناقلها الناس وفتن بها المتأدبون ، وأخذوا يقلدونها وظهرت على الشعر والخطابة .. لمكانة أهلها ، ولتقدير الناس لما فيها من تجديد ، وتجويد وثقافة وفن .. واشتغل بها طائفة خارج الدواوين الرسمية اذ أصبحت فنا راقيا يتكسب به الأدباء كما كان الشعراء يتكسبون بشعرهم (٢) .. فكان أول تأثير لها في اسلوب الرسائل الاخوانية التي سارت على نهجها في

---

(١) يقول الصولي في أبي تمام : " وقد طعنوا على أبي تمام .. وهو يأخذ بما طعنوا عليه الرغائب من علماء الملوك ورؤساء الكتاب الذين هم أعلم الناس بالكلام منثوره ومنظومه " أخبار أبي تمام ص ١٧٥ . ويقول صاحب كتاب " مواد البيان " : " ان الكتاب هم أهل المتقدمة ... وسفالق الشعراء خدامهم ومتعرضون لصلاتهم وبين من يعطي ومن يأخذ بون بعيد " ص ٢٢ .

(٢) انظر الأدب في العصر الأيوبي ص ٤٩ وقادة البيان ص ٢١ .

الصياغة والتزام الصناعة ، يقول آدم متز : " ثم انتقل استعمال الأساليب المحلاة بالسجع من الرسائل السلطانية الى الرسائل الاخوانية "[1] . ولكنها انحطت عنها فى أغراضها حينما بدأ منشئوها يستخدمونها لأغراضهم الخاصة من تملق ذوى المكانة لينالوا اعطياتهم[2] .

وكان من تأثيرها ظهور وانتشار فن التوقيعات الذى استخدمه كبار الوزراء والكتاب فى الرد على الرسائل الواردة على الديوان .. فأغنت عن الرسائل الطوال التى يضيع الوقت فى تحبيرها وقراءتها .. وقد كثرت وانتشرت فى عهد البرامكة حتى أصبحت فنا كفن الرسائل الا أنها تمتاز عنها بالايجاز البليغ الذى يقربها الى فن الأمثال والحكم .. ولم يظهر عليها التكلف رغم التزام السجع فيها لقصرها وكثافة معانيها وقلة ألفاظها .

وقد أدى اتساعها فى هذا العهد الى الاعتقاد أنها منقولة عن الفارسية[3] .. رغم وجودها منذ عهد الخلفاء[4] الا أنها لم تتسع وتزدهر و تصبح فنا يقصد الا فى عهد البرامكة .

وكان من تأثير الرسائل أيضا ظهور المقامات التى برزت

---

(١) الحضارة الاسلامية ١/٤٥٠ .
(٢) انظر النثر الفنى لزكى مبارك ٢/٣٣٥ .
(٣) انظر تيارات ثقافية بين العرب والفرس ص ٢٦٥ والعصر العباسى الأول ص ٤٨٩ .
(٤) انظر نماذجها فى "تيارات ثقافية" ص ٢٦٧ .

فى القرن الرابع الهجرى .. فقد أراد مبتكروها أن يسايروا أذواق العصر وأن يرضوا أذواق أصحاب البديع بالمبالغة فى استخدام الصناعة اللفظية ، والتلاعب بألفاظ اللغة ،واستظهار أنواع الثقافات فيها .. ومع أن الصناعة اللفظية فيها زادت على ما عرف فى رسائل الكتاب فانّ موضوعاتها الهزلية القصصية خففت من ثقل صناعتها على النفس وجعلت قيمتها الفنية أظهر ، واهتمام الناس بها أكثر .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أنها منقولة أيضا عن الأدب الفارسى [١] .. اذ هى مبنية على أحاديث ابن دريد التى عارض بها أدب الفرس [١] .

كما بدأ الشعر بدوره يتأثر بالرسائل اذ ضاقت المسافة بينهما " فأصبح الشعر رسائل معقودة و الرسائل شعر محلول " كما يقول ابن طباطبا [٢] ت ٣٢٢هـ.

كما أخذ النقاد ينصحون الشعراء باتباع نهج أصحاب الرسائل فى بناء قصائدهم ، يقول ابن طباطبا : " و يسلك منهاج أصحاب الرسائل فى بلاغتهم و تصرفهم فى مكاتباتهم فان للشعر فصولاً كفصول الرسائل " [٣] .

و لعل بعض ما تسرب الى شعر بعض شعراء العباسيين من بديع

---

(١) انظر تيارات ثقافية ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .
(٢) انظر عيار الشعر ص ٧٨ .
(٣) انظر نفس المرجع ص ٦ — ٧ .

أثقلوا به قصائدهم ،انما جاءهم بسبب تأثرهم بأساليب الرسائل [١] .
ولذلك قال الشاعر دعبل الخزاعى فى أبى تمام الذى أكثر من الصنعة فى شعره وأوغل : " لم يكن أبو تمام شاعرا وانما كان خطيبا وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر " [٢] .

وكتب الحسن بن وهب الصولى رسالة الى أبى تمام قال فيها :
" أنت ـ حفظك الله ـ تحتذى من البيان فى النظام مثل ما نقصد نحن فى النثر من الافهام " [٣] .

ولما كان القرن الرابع أحكم ابن العميد صنعة الرسائل لطول ممارسته لهذا الفن ، فقد تولى الوزارة لبنى بويه ـ ٢٤ ـ عاما [٤] ..
ويظهر أن لطول مدة ممارسة الكاتب لصناعته أثرا فى تطويرها وصبغها بصبغة جديدة وترك بصماته عليها .. ويظهر أن كل من يتولى هذا المنصب يحاول أن يضيف الى فن الرسائل شيئا جديدا يذكر به وينسب اليه . فقد رأينا كيف استطاع عبد الحميد أن يطور هذا الفن حينما اتسع لديه الوقت وامتد به الزمن فى ممارسته .. وكذلك الأمر مع

---

(١) انظر البديع ص١ .
(٢) أخبار ابى تمام ص ٢٤٥ ومن الأدلة على تأثر الأنواع الأدبية بالرسائل قول أبى عبيد الله الكاتب فى خطبة عبيد الله بن الحسن حين وفد على المهدى : " ما أحسن ما تكلم به على أنه أخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان ، فلقح بينهما كلاما " فأخبر بذلك عبيد الله فقال : " لا والله ان اخطأ حرفا واحدا " . البيان والتبيين ١/ ٢٩٥ .
(٣) زهر الآداب ٣/ ٨٩١ .
(٤) انظر الأعلام ٦/ ٩٨ .

ابن العميد .. فان استمراره فى الكتابة ، ربع قرن جعله قادرا على احداث شىء جديد فيها ، وكان هذا الشىء الجديد هو التزام السجع وطغيان الصناعة اللفظية على رسائله .. فقد سنّ فى الكتابة سنة تحسب عليه لا له .. ولذلك قال عنه ابن ثوابه : " أول من أفسد الكلام أبو الفضل لأنه تخيل مذهب الجاحظ وظن أنه ان تبعه لحقه وان تلاه أدركه فوقع بعيدا من الجاحظ قريبا من نفسه "(١) . ومع ذلك فقد كان ابن العميد أرق معاصريه طبعا وأقلهم سجعا وأكثرهم التفاتا الى المعانى .. الا أن طائفة من الكتاب أمثال الخوارزمى والصاحب وقابوس والبديع وغيرهم قلدوه .. فبلغوا من الصناعة اللفظية والتكلف ما لم يبلغه .

ومن هنا بدأت الكتابة تؤثر بأسلوبها المصنوع فى فنون الأدب كلها حتى بلغ تأثيرها الى الكتابة العلمية كما فى كتب التراجم والتاريخ وأكبر مثال على ذلك كتب الثعالبى ، وهكذا طغت سيطرتها على الكتّاب خارج ديوان الانشاء اذ سلك معظمهم طريقها فى كتابته الخاصة ومؤلفاته الأدبية ، كالعمرى .. ولم نبلغ القرن السادس الهجرى حتى رأينا الأدب يغرق فى بحرها وأصبحنا نستغرب اذا وجدنا بعض المؤلفين الذين لا يلتزمون بها فى أسلوبهم كابن الأثير وأسامة بن منقذ ..

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١/٦٦ . ومثل هذا القول قيل فى مسلم بن الوليد فقد قال ابن مهرويه : " أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا المعنى الذى سماه الناس بالبديع ثم جاء الطائى فتحير الناس " انظر معاهد التنصيص ٣/٥٦ .

وإذا كنا في أواخر القرن الرابع نعدّ الذين التزموا بها من المؤلفين لقلتهم فقد أصبحنا في القرن السادس نعد الذين لا يلتزمون بها .

وقد أكّد قوة سيطرتها شيوع ظاهرة المقامات وإعجاب الناس بها .. وظهور شخصية الفاضل الكبيرة في القرن السادس الهجري وتمكنه من الوزارة والكتابة لمدة تقارب المدة التي مكثها ابن العميد في وزارة آل بويه . وقد بلغ الفاضل من الرفعة والمكانة السياسية والثقافية ما مكنه من الهيمنة على أدباء عصره .. فكانت رسائله وشعره مثالا أعلى للبلاغة يحتذ به أكثر الكتاب .

وقد عرفنا أن الفاضل المؤسس الثاني لطريقة ابن العميد ، بل رأيناه يزيدها تطويرا حتى جنح بها الى التعقيد والتزويق والتكلف ، ساعده على ذلك طول المدة التي قضاها في الاشتغال بالكتابة .. ثم تبعه مقلدون بالغوا في استعمال تلك الصنعة أكثر من مبالغته وأغرقوا فيها الى درجة بدت كتابة الفاضل الى جانبها مقبولة .. حتى وجدنا من يقول عنها : " تمكن في العلم وقدرة على اللغة وبراعة في الأدب ، وسعة في العقل ، ولذلك لم تظهر مساوئ طريقته في كتابته ، ولكنها ظهرت من بعد حين أغرم بها الكتاب و فتنوا بها و قيدوا أنفسهم بقيودها .. ولكن قلة أخذهم بأسباب العلم وتملكهم زمام البلاغة أتاح لمساوئها أن تظهر فتستطيل الألفاظ على المعاني فتجني عليها "(١) .

---

(١) الأدب العربي من عهد الفاطميين الى اليوم ص ٣٢ ،

والحق أن رسائل الفاضل كغيرها من رسائل كتاب عصره قد أفسدتها الصنعة وقيدتها بأغلالها .. ولكن الباحث كلما توغل فى الزمن بعد عصر الفاضل واطلع على رسائل كتّابه الموغلة فى الصناعة المحلاة بأنواع البديع استثقلها حتى تهون عنده صناعة السابقين عليهم فى الزمن — فبعض الشر أهون من بعض —.

وقد بلغ من قوة تأثيرها أن استمرت سيطرة هذه الصناعة اللفظية حتى مطلع العصر الحديث ، حيث هاجمها النقاد والكتاب المجددون الذين اطلعوا على الآداب العالمية اذ أطلقوا على أدب الصنعة " أدب الفقاقيع " (١) .. ودارت حولها معارك أدبية ومناقشات حامية انتهت بانحسارها وترك مكانها للأسلوب المرسل الذى نكتب به اليوم. . (١)

وعلى أية حال ، فقد كان تأثير الرسائل الديوانية فى الأدب يتدرج ويتسع كلما تقدم به الزمن .. وكان من نتائج تأثيرها احداث حركة نقدية نشطة ، تمثلت فى ظهور كتب نقدية اعتنت بالنثر الفنى عنايتها بالشعر .. فقد كان النقاد فى القديم يكادون يقصرون عنايتهم على معالجة فن الشعر (٢) .. ومن تلك الكتب ، كتاب " الصناعتين " و " اليتيمة " ، بل رأينا بعض المؤلفات تقصر عنايتها على فن الرسائل وحده .. وقد ذكرت طائفة منها فى الفصل الثانى من

---

(١) انظر فى ذلك المعارك الأدبية ص ٢١٨.
(٢) انظر النثر الفنى لزكى مبارك ١/ ١٧.

الباب الثالث ،كما كان من تأثيرها .. بروز فن القصائد البديعيات والاعتناء بعلم البديع خاصة .. وقد ذكرت طائفة من الكتب التى اعتنت بهذا الفن فى الموضع السابق .

وتعتبر الكتب التى ألفت فى العناية بفن الرسائل والمترسلين ثروة أدبية كبيرة لما احتوت عليه من أطايب الشعر ،وجيد الرسائل والخطب ،وما جمع فيها من الأحاديث والآيات ،والأمثال والصيغ البليغة من النثر.. والألفاظ المنتقاة .. ولمعالجة مؤلفيها لكثير من القضايا التى تفيد البلاغة والنقد واللغة ... ولعل موسوعة صبح الأعشى ثمرة من ثمرات الاهتمام بالرسائل الديوانية ،وهناك مجموعة جيدة من المخطوطات حول هذا الفن لا تقل قيمة عن" صبح الأعشى" "كالرأى الصائب فى اثبات ما لا بد منه للكاتب " لعلى بن العماد الكاتب ، و" تسهيل السبيل الى تعليم الترسيل " لمحمد بن أبى نصر الحميدى ت ٤٨٨ هـ ، و" مواد البيان " لعلى بن خلف الكاتب ، وغيرهما من المخطوطات عدا المطبوعات منها .

الفصل الثالث

منزلة الرسائل الديوانية وموقف النقاد منها.

الفصل الثالـــث

منزلة الرســائل الديـوانيـة وموقف النقاد منهـــــا

لقد علت منزلة الرسائل منذ أن أصبحت فنا له رسوم وأصول ومميزات، .. وقد سبق أن تحدثت عن منزلة الكاتب .. وأن الكتابة هي السلم الذي يرقى عليه الأديب للوزارة ..

كما تحدثت في الفصل السابق عن تأثيرها في الأدب . فرأينا أنهـــا لعبت دورا في اثراء الأدب واخصابه وأن كثيرا من الظواهر الأسلوبية قد صرت الى الأدب العربي عن طريقها .. وأن تنافس الأدباء على مناصب ديوان الانشاء، واعتناءهم بتجويد رسائلهم وتهذيبها كان من عوامل رقي الأدب، واتساعه ... وتعميق الثقافة بين المتكلمين بالعربية .. اذ كان ديوان الانشاء سببا في حمل الكثيرين على الاجادة والتزود من الأدب. فنهض، ونهضت اللغة، وظهر على اثر ذلك جماعة من أعلام الكتابة والشعر النابهين والعلماء المتمكنين .. كما كان سببا في خلق أجيال من الكتّـاب الأدباء الذين توارثوا الظهور فيه جيلا بعد جيل "(١) .

وكانت الرسائل الديوانية وسيلة خطيرة ومهمة للدولـة قد لا تقـل أهمية عن الجيوش والعتاد ..

---

(١) انظر الآداب الاقليمية ص ١١٢ .

فبالاضافة الى أهميتها الادارية ، والسياسية والتاريخية ،كانت تلعب دورا بارزا فى التأثير على الرأى العام . وقد مرّبنا قول صلاح الدين : " ما فتحت البلاد بالعساكر وانما فتحتها بكلام الفاضل "(١) ..
وقد بلغ من شدة تقدير الناس لبلاغة الرسائل وتأثيرها فيهم .. أنه لما أصاب أهل مكة سيل سنة ٢٠٨ هـ ــ جرف أموالهم ومات بسببه خلق كثير ــ بعث المأمون لهم بأموال كثيرة ،وكتب لهم كتابا حسن العبارة ،فكان كتابه " أسرّ الى أهل مكة من الأموال التى أنفذها اليهم "(٢) .

ومن أجل ذلك جمعت دواوين تلك الرسائل كما جمعت دواوين الشعر .. ولعل أقدم رسائل جمعت ، رسائل على رضى الله عنه .. جمعها ابراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال ت ٢٨٣ هـ ضمن كتابه " رسائل أمير المؤمنين وأخباره وحروبه "(٣) .. ولعل الشريف الرضى ت ٤٠٤هـ ــ نقل عنه ما نسبه من رسائل لعلى رضى الله عنه فى " نهج البلاغة " ، غير أن تشيع ابن هلال يجعلنا لا نطمئن الى ما نسبه لعلى كرم الله وجهه .. لغلوّ الامامية فيه ..

---

(١) شذرات الذهب ٤/٣٢٧ ،وقد قال احد الخارجين على ركن الدولة ابن بويه ان رسالة ابن العميد نابت عن الكتائب فى عرك أديمى واستصلاحى (اليتيمة ٣/١٦٩) .

(٢) انظر المساوىء والمحاسن للبيهقى ص ٤٤٥ .
وانظر شذرات الذهب ٢/٢٠ .

(٣) انظر معجم الأدباء ٢/٣٣٢ ومابعدها وقد ذكر ياقوت لابراهيم هذا ٤٩ مؤلفا .

وقد مرّ بنا أن رسائل عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم كانت مجموعة زمن ابن النديم ت ٣٨٥هـ

وقد ألف أحمد بن سعد أبو الحسين الكاتب (كان حيا سنة ٣٢٤هـ) كتاب "الاختيارات من الرسائل" (١) .. كما كان لكل كاتب مشهور ديوان رسائل .. كديوان رسائل أحمد بن محمد بن ثوابه ت ٢٧٧هـ (٢) .. وديوان رسائل ابن أخيه أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابه (٢) .. وديوان رسائل أحمد بن سليمان بن وهب ت ٢٨٥ (٣)، وديوان رسائل ابراهيم الصولى ت ٢٤٣ (٤) .. وغيرهم كثير .. غير أنه لم يصلنا من دواوين الرسائل ومجموعاتها في القرنين الثاني والثالث الهجريين سوى ما وجدناه متفرقا في كتب التاريخ والأدب كمعجم الأدباء لياقوت، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وصبح الأعشى للقلقشندى ونهاية الأرب للنويرى، وغيرها .. وانه ليتملكنا العجب، كيف ضاعت تلك الثروة الأدبية من النثر الفنى الجميل؟ فى حين وصلتنا دواوين شعر تلك الفترة من الزمن .. ولعل بعضها لا يزال مدفونا في مكتبات العالم ينتظر من يبحثه ..

ولقد صدق على نثر هذه القرون قول عبد الصمد الرقاشي :
" ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ،

---

(١) انظر معجم الأدباء ٣/ ٣٨، ٣٩، وكذلك ألف الاصبهانى ت. ٣٥٠هـ "فقر البلغاء" وله مختار الرسائل، انظر كشف الظنون ٢/ ١٢٨٠.
(٢) انظر معجم الأدباء ٤/ ١٤٦.
(٣) انظر نفس المرجع ٣/ ٥٥.
(٤) انظر نفس المرجع ١/ ١٩٨.

فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من المنظوم عشره "(١) .. وقد نقتنع بهذا القول قبل التدوين .. أما بعده فالأمر يختلف .. فالذى لا يقدر على حفظه يمكن كتابته .. ولعل انصباب عناية النقاد على الشعر ونقده والموازنة بين فحوله ، واهمال النثر سبب من أسباب حفظ الشعر وضياع أغلب النثر (٢) ..

ولقد وصلتنا بعض دواوين رسائل القرن الرابع الهجرى ، كرسائل الصابى ، والصاحب ، وقابوس بن وشمكير ت ٤٠٣ هـ ، ولكن هذه الدواوين للأسف لا تمثل الرسائل الفنية فى صفائها وقوتها وبلاغتها ، فقد أدركتها تلك الصناعة اللفظية التى أحالت الأدب الى معارض فنية من الألفاظ المنمقة والمحسنات البديعية وأهمل فيها التعمق فى المعانى والابتكار فى الأفكار .. واذا كان ما ضاع من رسائل القرون الماضية يماثل ما وجدناه من نماذجها فى بعض مصادر الأدب من حيث الجودة فان الحسرة تتملكنا لضياعها .. لجمال أسلوبها وبلاغتها وحسن سبكها ، وروعة معانيها وتنوع أفكارها .. ذلك أنها لم تدركها تلك المحسنات البديعية المتكلفة الثقيلة التى وجدناها فى دواوين الرسائل التى وصلتنا ..

ولو وصلتنا دواوين عبد الحميد ، وابن وهب وابن الزيات وابن ثوابة لتضاءلت الى جانبها رسائل الصابى ، والصاحب ولتغيرت نظرتنا لفن الرسائل الديوانية .. ومن يرد معرفة قيمة ومنزلة الرسائل الأدبية

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٨٧ ، وانظر العمدة ١ / ٢٠ .
(٢) انظر النثر الفنى لزكى مبارك ١ / ١٧ .

فليطلع على رسائل البلغاء من أولئك في مظانها .. فمع قلتها و تفرقهـــا في المصادر المختلفة فانها تعطينا صورة تقريبية عن المستوى الفني الذى وصل اليه فن الرسائل في ذلك الزمن .. ومع ذلك كله .. لا ننسى أن دورنا كباحثين ودارسين للأدب لا يسمح لنا أن نعطي الأشياء حجما أكبـــر من حجمها ،أو أن نصفها بغير وصفها .. فمع أن الرسائل الديوانيـة حققت منزلة مرموقـة بين فنون الأدب — بسبب بلاغة كتابها الذين أختيروا من صفوة الأدباء ،و لتوفر الجمال الفني والقوة في أسلوبها — الا أن وظيفتها ،و محدودية أغراضها ،و تبعيتها للملوك والسلاطين جعلتهـــا أقل امتاعا للشعور ،واثارة للتفكير والانفعال من الأدب الخالص كالشعر مثــلا .

فلا يمكن مقارنة ديوان رسائل الصاحب بن عباد بديوان المتنبـــى مثلا . و هذا لا يعني التقليل من قيمتها الأدبية والفنية ،فلقد أخـذت مكانا متقدما بين الفنون الأدبية على مر العصور ولكن المسألة نسبية ..

وضياع أكثر رسائل البلغاء في عصور ازدهار الكتابة الفنيـة — كالقرن الثالث مثلا — يجعل المقارنة غير عادلة .. فلقد انحدر الشعر بعـد طغيان الصناعة اللفظية عليه كما انحدرت الرسائل . ونظرة الى أدب القرنين الخامس والسادس تجعلنا نحتار في أيهما أعلى منزلة من الآخر ؟ أألرسائل أم القصائد ؟

فمع أن الشعر أكثر قبولا للبديع والمحسنات لكونه لغة الوجـدان والشعور ،ولاعتماده على الوزن والتنغيم والصنعة فيه أخف منها في النثر — اذ النثر لغة العقل الذى يتطلب الوضوح والبيان — فان داء الصنعة

أفسده كما أفسد النثر .. ولذلك قال صاحب الموازنة : " أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ت ٢٠٨ هـ ثم تبعه أبو تمام ت ٢٣٠ هـ ، واستحسن مذهبه وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف (١) فسلك طريقا وعرا واستكره الألفاظ والمعاني ففسد شعره وذهبت طلاوته ونشف ماؤه " (٢) .

ونحن نقول : ان فساد الصناعة اللفظية في النثر أوضح ، لأن المطلوب من الكاتب المفكر أن يشغله التفكير في المعاني عن تلمس تلك الحلىّ من المحسنات التي تعطل حركة الفكر والعقل .

ولما كانت قضية الصناعة اللفظية تعدّ من أهم مقاييس النقاد ، ومدار الحكم على قيمة الأثر الأدبي .. ولما كثر الخلاف فيها من مؤيد ومعارض فقد رأيت أن استعرض آراء الطرفين ، وأحاول أن أتلمس سبب اقبال الأدباء عليها وافتتانهم بها وانصرافهم عن المعاني ..

ولعل قول الجاحظ : " المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجميّ والعربي والبدوي والقروي ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير

---

(١) يقصد بها الاستعارة والطباق والجناس.

(٢) الموازنة ١/١٧ وقال صاحب كتاب العمدة : " هو أول من تكلف البديع " يعني مسلما " من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ١/١٣١ — ويقول الجاحظ " الراعي كثير البديع في شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابي يذهب في شعره في البديع مذهب بشار " البيان والتبيين ٤/٥٦ . وقالوا " أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد وابن هرمة " العمدة ١/١٣١ .

اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ،وفى صحة الطبع وجودة السبك ،فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير "(١) أول دعوة للعناية بالألفاظ على حساب المعانى .. وقد أكد أبو هلال العسكرى هذا الاتجاه ،فنراه يقول : " ليس الشأن فى ايراد المعانى لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ،وانما فى جودة اللفظ وصفائه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ،ومائه مع صحة السبك،والتركيب ، والخلوّ من أود النظم ،والتأليف .. وليس يطلب من المعنى الا أن يكون صوابا ،ولا يقنع من اللفظ بذلك .. ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة ،والأشعار الرائقة ،ما عملت لافهام المعانى فقط .. لأنّ الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الافهام ،وانما يدل حسن واحكام صنعته ،ورونق ألفاظه ،وجودة مطالعه وحسن مقاطعه ،وبديع مباديه ،وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشئه ،وأكثر هذه الأوصاف ترجع الى الألفاظ دون المعانى "(٢).

وهذه قضية قديمة بين النقاد ، أعنى قضية اللفظ والمعنى ،والحق أن المعانى أشرف وأعظم من أن ينظر لها بهذه النظرة الضيقة . فكما يحتاج اللفظ الى الجودة وصحة السبك ، والخلو من أود النظم ،يحتاج المعنى الى العمق ،وابتكار الأفكار ووضوحها .

---

(١) الحيوان ٣/١٣١–١٣٢.

(٢) الصناعتين ص٦٣ ، ٦٤ .. وانظر فى ذلك العمدة ١/١٢٤ ومابعدها .

وقد فصل الجرجانى هذه القضية فى كتابه "دلائل الاعجاز"(١).
وانما غرضى أن أبين أن مثل هذه الأقوال هى التى أضلت الأدباء ،وجعلتهم يظهرون عنايتهم ويوجهون مواهبهم الى اللفظ على حساب المعنى ...
ولعل التزام الكتاب المتأخرين للسجع فى كلامهم كان نتيجة لمثل قول أبى هلال :" وقد أعجب العرب السجع حتى استعملوه فى منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوما فى منظوم ،وسجعا فى سجع"(٢).
وقوله : " والسجع على وجوه فمنها أن يكون الجزآن متوازيين متعادلين ، لا يزيد أحدهما على الآخر ، مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه .. ومنها أن تكون ألفاظ الجزئين المزدوجين مسجوعة فيكون الكلام سجعا فى سجع"(٣).

وقوله : " ولا بد للكاتب فى أكثر أنواع مكاتباته من شعبة من الاطناب يستعملها اذا أراد المزاوجة بين الفصلين ،ولا يعاب ذلك منه"(٤).
وقال : " لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن الكريم"(٥).

واذا كان أبو هلال يدعو للسجع ويشترط عدم التكلف(٦) ، فقد

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ص ١٩٨ ومابعدها.
(٢) انظر الصناعتين ص ٢٧٠.
(٣) نفس المرجع ص ٢٦٨ ، ٢٦٩.
(٤) نفس المرجع ص ٢٠١.
(٥) نفس المرجع ص ٢٦٦.
(٦) نفس المرجع ص ٢٦٧.

جاء بعده من النقاد من يرى أن تكلف السجع لا يقدح في النثر، لأنه بمنزلة القافية والوزن في الشعر. يقول الكلاعي (من نقاد القرن السادس)[1]: " والذي عندي أن النظم والنثر أخوان، فكما لا يقدح في النظم تكلف الوزن والقافية، كذلك لا يقدح في النثر تكلف السجع"[2].

ويؤيد ابن الأثير ت ٦٣٧هـ .. رأي العسكري في السجع فهو يقول: " ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع وانما تضمن القرآن غير المسجوع، لأن ورود غير المسجوع أبلغ في باب الاعجاز من ورود المسجوع، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين معا"[3].

وقال في موضع آخر: " ألا ترى أن الكلام اذا كان مسجوعا لذ لسامعه فحفظه، واذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه في حالة السجع"[4].

ولولا أننا وجدنا طائفة من النقاد لا يستسيغون التزام السجع والاغراق في الصناعة اللفظية .. لقلنا ان القوم معذورون، لأنهم يتحدثون عن ذوق عصرهم ولا مشاحة في الأذواق ..

ومن ناحية أخرى يدعونا الانصاف أن نذكر هنا أن العسكري، وابن الأثير، اشترطا شروطا في التزام السجع لو التزمها الكتاب، أو قل: لوأنها

---

(١) احكام صنعة الكلام ص٩٠.
(٢) نفس المرجع ص ٢٣٦.
(٣) المثل السائر ١/ ٢٧٧—٢٧٨.
(٤) نفس المرجع ٢/ ٦٦.

ممكنة التطبيق لخفّت الصناعة في أيديهم كقول أبي هلال : " فكل ذلك يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف ، والخلو من التعسف "(١) .

وكقوله : " واعلم أن الذى يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع ، فان جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر ، وتعقيد ، وكثيرا ما يقع ذلك في السجع وقلما يسلم اذا طال من استكراه وتنافر "(٢) .

واشترط ابن الأثير : " أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها .. وأن يكون السجع بريئا من التكلف ، خاليا من التعسف ، جاريا مجرى الطبع "(٣) .

الا أن الكتّاب والأدباء بعامة لم يستطيعوا التزام هذه الشروط لأنها كما قال ابن الأثير : " مقام تزل عنه الأقدام ولا يستطيعه الا الواحد من أرباب هذا الفن "(٤) . ولذلك عاب ابن الأثير كتابة الصابى وابن العميد وابن عباد لعدم تحقق هذه الشروط فيها(٥) .

وقد قامت طائفة أخرى من النقاد في وجه هذه الموجة العاتية

---

(١) الصناعتين ص ٢٦٧ .
(٢) نفس المرجع ص ١٦٥ .
(٣) المثل السائر ١ / ٢٧٦ .
(٤) نفس المرجع ١ / ٢٧٦ .
(٥) انظر نفس المرجع ص ١ / ١٧٨ .

من الصنعة البديعية وفي مقدمتها السجع ، الذي طغى على أساليب الكتّاب . . فقد أدركوا أن ذلك مخالف للذوق والروح العربية الأصيلة . .
ومن هؤلاء " اسحاق بن ابراهيم الكاتب (١) صاحب كتاب " نقد النثر " المنسوب خطأ لقدامة بن جعفر (١) ، حيث قال : " ومن أوصاف البلاغة السجع في موضعه ، وعند سماحة القريحة به ، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه ، وأما أن يلتزمه الانسان في جميع قوله ورسائله ، وخطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله وعي من قائله " (٢) .

وقال عبد القاهر الجرجاني ت (٤٧١هـ) " ومن هنا رأيت العلماء يذمّون من يحمله تطلب السجع والتجنيس على أن يضيم لهما المعنى ، ويدخل الخلل عليه من أجلهما ، أو على أن يتعسف في الاستعارة بسببهما " (٣) .
ويقول في التجنيس: " ولذلك ذمّ الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس اليه ، اذ الألفاظ خدم المعاني . . ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ولزموا سجية الطبع ، أمكن في العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذي التحصيل ، وأسلم من التفاوت ، وأكشف عن

---

(١) هو أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب من كتاب القرن الرابع ، راجع البرهان في وجوه البيان ص ٣٢ ومابعدها . وهو الكتاب الذي نسبه طه حسين وزميله الى قدامة بن جعفر وسمياه " نقد النثر " والبرهان فيه زيادات كثيرة عن نقد النثر .
(٢) نقد النثر ص ١١٧ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٤٠١–٤٠٢ .

الأغراض ،وأبعد من التعمد الذى هو ضرب من الخداع بالتزويق .. كمن ثقّل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها"(١) .

وقال على بن عيسى الرمانى ت ٣٨٤ هـ " البلاغة ما حطّ التكلف عنه وبنى على التبيين ،وكانت الفائدة أغلب عليه من القافية "(٢) .

وقال جعفر بن يحيى البرمكى ت ١٨٧هـ : " البلاغة أن تكون تحيط بمعناك وتحكى عن مغزاك ،وتخرجه من الشّركة ،ولا يستعين السامع عليه بطول الفكرة .. ويكون سليما من التكلف ،بريئا من الصنعة بعيدا عن التقعر ،غنيا عن التأويل "(٣) .

واذا كان تعلق الأدباء بالصناعة اللفظية والتزام السجع فيما أنشأوا راجعا الى توجيه أولئك النقاد أمثال الجاحظ والعسكرى ، الذين يجعلون الفضل ومناط البلاغة للفظ دون المعنى ، أو يجعلون المعنى فى المرتبة الثانية بعد اللفظ على أحسن حال . فقد غلب أصحاب هذا الرأى على أصحاب الآراء الأخرى(٤) ، الذين رأوا العناية بالمعنى أولى وأن الألفاظ خدم للمعانى .. وأن كلام المتقدمين من الأدباء انما بلغ الذروة من البلاغة وفضل كلام المتأخرين ،لتركهم التكلف والعناية

---

(١) أسرار البلاغة ص ٥ — ٦ .
(٢) زهر الآداب جـ١/ ١٤٠ .
(٣) قانون البلاغة ص ٧٦ .
(٤) يقول ابن رشيق :" وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى" العمدة ١/ ١٢٧ .

بالمحسنات اللفظية بما فيها السجع والجناس واتبعوا ما هداهم اليـــــه الطبع السليم. بدليل أن الكتاب ذهبوا فى الصناعة اللفظية كل مذهـب حتى قال فيهم الشاعر :

أكتاب ديوان الرسائل مالكـم تجعلتم بل مصّوا بالتجمـل (١)

ومن الآراء المعتدلة فى استعمال المحسنات قول ابن الأصبع ت ٦٥٤هـ : " ولا تجعل كلامك كله مبنيا على السجع ، فتظهر عليه الكلفة ويتبين فيه أثر المشـقة ، وتتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفـظ النازل .. فان جاء الكلام مسجوعا عفو الخاطر من غير قصد ، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان ،وان عز ذلك فاتركه وان اختلفت أسجاعه .. فقد كان المتقدمون لا يحتفلون بالسجع جملة ،ولا يقصدونه الا ما أتـت به الفصاحـة فى أثناء الكلام واتفق من غير قصد ،ولا اكتساب وانما كانـت كلماتهم ،متوازنـة ،وألفاظهم متساوية ،ومعانيهم ناصعة ،وعباراتهـم رائقـة ،وفصولهم متقابلـة ،وجمل كلامهم متماثلة .. وتلك طريقـة على ـ كرم الله وجهه ـ ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام كابن المقفـع ويزيد بن هارون ،وابراهيم بن العباس ،والحسن بن سهل وعمرو بـن مسعدة ،وأبى عثمان الجاحظ ،وغيرهم من العظماء والبلغاء " (٢).

ولكن هذه الحدود ـ وان كانت واضحة فى أذهان النقاد ـ

---

(١) اليتيمة ٤/٧٧.

(٢) صبح الأعشى ٢/٣٢٦-٣٢٧.

أعنى أن يأتوا بالسجع عفو الخاطر .. وأن يكون معنى جملة السجعة الثانية يختلف عن الأولى وأن يكون اللفظ تابعا للمعنى — الا أنها صعبة التطبيق بالنسبة للكتاب فقد جمع لهم النقاد بين النقيضين .. زينوا لهم استخدام السجع والازدواج .. وحذروهم من التكلف والاستكراه .. وهضم المعنى فى سبيل اللفظ .

فالسجع والمحسنات البديعية الأخرى لا تأتى عفو الخاطر الا لبلغاء العرب .. الفصحاء سليقة .. مع عدم التزامهم بها فى كلامهم .. أما الكتاب فى العصور المتأخرة .. فلا تأتي الا بالاستجلاب والاكتساب ، وهذا هو التكلف والتعسف بعينه . وكيف يريد أبو هلال أن يكون الكلام كله سجعا فى سجع .. ولا يظهر عليه التكلف ؟ ومع علمهم بأن التزام السجع يلزم منه الاستكراه والتنافر غالبا كما قال أبو هلال .. وأن التزام السجع وتنوع المعنى مقام تزل عنه الأقدام كما قال ابن الأثير .. فانهم زينوا للكتّاب السير فى هذا السبيل مع علمهم بما فيه من مخاطر التكلف .. ولو حذروهم من استعماله .. الا ما جاء عفو الخاطر لكان أجدى على الأدب والأدباء .

وقد علل بعض النقاد كلف الأدباء بالصناعة اللفظية ، والتزامهم بالسجع ، برغبتهم فى أن تشيع خطبهم ورسائلهم ويسهل حفظها .. اذ أن الكلام المرسل صعب الحفظ .. يقول الجرجانى : " والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع فانها تروى وتتناقل تناقل الأشعار .. ومحلها محل النسيب والتشبيب "(١) . ولما سئل

(١) أسرار البلاغة ص ٦ .

عبد الصمد الرقاشي لم تؤثر السجع على المنثور ؟ وتلزم نفسك القوافي واقامة الوزن ؟ قال : " ان كلامي لو كنت لا آمل فيه الاسماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ اليه أسرع ،والآذان لسماعه أنشط ،وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت" (١).

وفي تعليل ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف : " وليس هذا شيئا غريبا في تاريخ الحضارات ولا في تاريخ الآداب في الأمم المختلفة بل هو الشيء الطبيعي اذ نرى الأمم حينما ترقى عقليا وحضاريا تتحول من الأحوال الطبيعية في التعبير الى أحوال جديدة كلها تعقيد وتصعيب ، في الآراء والأساليب ،وقد حدث ذلك عند اليونان في القرنين الرابع والخامس للميلاد" (٢).

وقد شعر القدامى من النقاد بما أصاب الكتابة من مسخ وانحراف عن الأسلوب الطبيعي قبل أن يدرك ذلك المتأخرون ،فقد قال ابن الأثير — رغم التزامه في رسائله بالأسلوب الذى انتقده ورغم استحسانه للسجع — : " وقد رأيت جماعة من متخلفي هذه الصناعة يجعلون همهم مقصورا على الألفاظ التي لا حاصل وراءها ولا كبير معنى تحتها ، واذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أى وجه كان من الفثاثة والبرد يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم .. ولا يشك أنه صار كاتبا مفلقا . واذا نظر الى

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٨٧.

(٢) الفن ومذاهبه ص ١٦١—١٦٢.

كتاب زماننا وجدوا كذلك ... واذا أنكر عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة ،وعدوا الى طريق المعانى يقولون : لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة فانهم انما اعتنوا بالألفاظ ولم يعتنوا بالمعانى اعتناءكم بها "(١).

وقال فى الرد عليهم : " اعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فان المعانى أقوى عندها وأكرم عليها "(٢).

وقال ابن خلدون : " وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية ... وصار هذا المنثور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا الا فى الوزن . واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها فى المخاطبات السلطانية .. وقصروا الاستعمال كله على هذا الفن الذى ارتضوه ، وخلطوا الأساليب فيه ،وهجروا المرسل وتناسوه ،وخصوصا أهل المشرق .... وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل ، جارية على هذا الأسلوب .. وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب .... الى أن يقول : " والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل ، وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا فى

---

(١) المثل السائر ٢/٦٣ ، ٦٥.
(٢) نفس المرجع ٢/ ٦٥ .

الا قل النادر .. وحيث ترسله الملكه ارسالا من غير تكلف له ...
وأما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر فمذموم .. وما حمل عليه أهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم وقصورهم ،لذلك عن اعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال .. فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة وانفساح خطوبه ،وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على مقتضى الحال فيه .. ويجبرونه بذلك القدر من التزيين من الأسجاع والألقاب البديعية ويغفلون عما سوى ذلك" (١) .

ونلاحظ أن النقاد القدامى يعتبرون فترة ما قبل ابن العميد وطبقته هى الفترة المثالية لأساليب النثر الفنى وهذا ما نص عليه ابن أبى الأصبع فى كلامه السابق وعبد القاهر الجرجانى .

وأحب أن أقول هنا .. أن هذه الصناعة التى التزم بها الكتّاب واعترض عليها النقاد قديما وحديثا — كما سنرى — رغم ما فيها من تكلف وثقل ورغم اهانة المعنى بجانبها واستصغاره عندهم — تدل على مقدرة ودراية وطول ممارسة .. وتتطلب جهدا وثقافة واسعة كما تتطلب معرفة بأنواع المحسنات البديعية التى زاد عددها عن مائة وخمسين نوعا . ولو حاول أحدنا اليوم استخدام هذه الصناعة لوجد فى الأمر صعوبة وجهدا . فهى من الناحية الشكلية ، والنغمة الموسيقية ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٠٢ .

واختيار الألفاظ وتناسقها، وتقابل الجمل وازدواجها، وما حوته من أمثال، وأشعار، وحكم، وآيات، وأحاديث، واشارات تاريخية، تعتبر فنا لغويا ولفظيا رائعا، وبناء هندسيا جميلا .. الا أن أكبر مطعن فيها أن هدف منشئيها يقف عند هذه الصناعة الجميلة، والشكل الظاهرى، دون أى عناية بالمعانى والأفكار .. والأدب له رسالة أكبر من ذلك . فبالاضافة الى ما يثيره فينا من الامتاع والجمال، يثير فينا أيضا الخواطر الحية، والأفكار الجيدة والمعانى المبتكرة السامية، ويزيدنا معرفة بالحياة والناس والمجتمع من حولنا، ويطلعنا على أسرار النفس الانسانية، كما يحببنا فى الفضائل ويكرهنا فى الرذائل بما ينقله الينا من تجارب، وما يوجهه من ايحاءات تثير مشاعرنا وتنمى عواطفنا ..

وقد اختلفت مواقف نقاد عصرنا تجاه الرسائل الديوانية وأسلوبها المصنوع .. وأكثر أحكامهم لا تنصب على الرسائل وحدها بل تعم النثر كله .. يقول صاحب كتاب الرسائل والمقامات : " أصبح الترسل فنا له قواعده وأصوله وملابساته حتى خرج عن طوق عامة الناس، فتصدى له الأدباء الكبار والكتاب المنشئون من أصحاب الوزارات والادارات كابن العميد والصاحب، أو من الذين وهبوا القدرة والذوق والتأنق، كالخوارزمى وبديع الزمان والحريرى .. ولما كان التأنق ضروريا لكل من أراد ارسال رسالة، فقد نشأ كتّاب اتخذوا كتابة الرسائل للآخرين صناعة يتقاضون عليها الأجر وكانت الغاية من الرسالة اظهار المقدرة الفنية من ناحية البلاغة وابراز ما يحفظ المنشىء من أمثال العرب وأشعارهم، وما يعرف من علومهم فى الصرف والنحو والعروض — الشعر — والفقه، بصرف النظر عن الغرض الأساسى الذى انشئت الرسالة من أجله، حتى إن بعض الرسائل لم يكن

لها غرض خارج من اظهار هذا التأنق اللغوى و هذه الثروة الكلامية المجموعة فى الذاكرة "(١).

ويقول :" ووقفوا همهم على أن يؤثروا فى القارئ أو السامع من طريق رصف الكلمات رصفا هندسيا متناسقا ينسى القارئ معه طلب المعانى بانشغاله بهذا البناء الهندسى الجميل من الكلمات المتوازنة والمعانى المتقابلة ،مما أداهم للاطناب ،فالمنشئ يدير لك الفكرة الواحدة أو المعنى الواحد فى عدة سطور ولو عبرت عنه فى لغة سهلة لوضحته فى سطر أو أقل "(٢).

ويقول صاحب كتاب " أدب الدول المتتابعة " :" التصنع فى النثر العربى كان يعد دلالة على المقدرة الفنية فى صوغ الأساليب وتعقيدها ،وتقاس مكانة الأديب ومقدرته بما يتفوق فيه من هذا المجال"(٣).

ويقول أحمد حسن الزيات :: " كان لذلك الانقلاب العباسى أثر عظيم فى العقول والميول ظهر على أقلام الكاتبين وألسنتهم فقد استنبطوا عيون المعانى ،وتخيروا شريف الألفاظ مما لم يكن حوشيا ولا سوقيا وفتحوا أبواب البديع ،وعنوا بالتنميق والتنسيق "... "وكتاب الرسائل هم أساطين البلاغة ،وأساتذو البيان ،وموضوع أدب اللغة ،

---

(١) الرسائل والمقامات ص ١٥—١٦.

(٢) نفس المرجع ص ١٥—١٦.

(٣) ص ٢١٧.

لأن كتابة غيرهم لا تعتمد على فن ،ولا تقوم على ذوق" (١) .. ويقابل هذا الرأى ، رأى لأحمد أمين ،حيث يقول عن كتابة أبى اسحاق الصابى ": " وأنا شخصيا أستسمج كتابته وكتابة الخوارزمى ،ومن نحا نحوهما ،وأرى أنها جعجعة ولا طحنا ... ، وألفاظ جوفا ولا معنى" (٢) . ويقول : " والصابى والخوارزمى أثقل من البديع وهو أخف منهما روحا .. وهكذا أقرأ هذه الرسائل كلها فينقبض صدرى ولا ينطلق لسانى ،وأصرف فى الرسالة ساعة أو ساعتين ثم لا أخرج منها بشئ فى اليدين ،وزاد الطين بله الصاحب بن عباد المعاصر لهم ، فقد كان يعزل الوالى أو يوليه ليحصل من ذلك على سجعة (٣) ... فلما أتى بعد ذلك القاضى الفاضل والعماد الاصفهانى ، تمت هذه الكارثة ،كارثة التعقيد بالسجع وألوان البديع وأثرت هذه المدرسة فى كل كتّاب القرون التى أتت بعد ذلك الى النهضة الحديثة اتجاه كلى الى السجع والبديع وفراغ كلى من كل معنى بديع ،وهذا من غير شك أصاب العقول .. فلم تأت بمعنى جديد وقلما تأتى برأى سديد" (٤) .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ص ٢١٥ .

(٢) ظهر الاسلام ٢/ ٩٧ .

(٣) من غريب ما يروى عنه .. قال التوحيدى : قلت لابن المسيبى :أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟قال : يبلغ به ذلك ،لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ويحتاج من أجلها الى غرم ثقيل وكلفة صعبة و تجشم أمور وركوب أهوال لما كان يخف عليه أن يفرج عنها و يخليها " معجم الأدباء ٦/ ٢٠٧ .

(٤) ظهر الاسلام ٢/ ٩٨-٩٩ .

وسبب اختلاف رأى أحمد أمين من رأى الزيات ، أن الزيات يتحدث من كتاب القرون الأولى حين كان الذوق العربى هو السائد على الأساليب بينما أحمد أمين يتكلم من كتاب القرن الرابع الذين أخرجوا الكتابة من منهجها الطبيعى الى هذا الأسلوب المصنوع المزخرف .

مع أن د . مصطفى الشكعة يرى حتى فى رسائل القرن الرابع جمالا وفنا راقيا فهو يقول : " والقرن الرابع هو العصر الذهبى لكتابة الرسائل دون منازع ولقد أغرم الناس بزخرفتها وما أضفى عليها من ألوان بديعية وظلال متناسقة ، وكانت كلها أسجاعا و محسنات تبدو كأنها العرائس المجلوة ، وقد تفنن الكاتب فى الباسها الأثواب الجميلة ، وقد طرزها بالدر ووشاها بالحرير " (١) ..

وللدكتور زكى مبارك رأى لعله وسط بين الرأيين — وان كان لا يقتصر على الرسائل وحدها — فقد قال : " ألف كتّاب القرن الرابع فى بعض الموضوعات التى كانت خاصة بالشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر ، والوصف ، وذلك لأنهم نقلوا الى النثر محاسن الشعر من الاستعارة والتشبيه والخيال ، والنثر اذا أخذ خصائص الشعر أصبح أقدر منه على الوصف .. لخلوه من قيد الوزن والقافية " (٢) .. وقد نسى د . زكى مبارك أن النثر فى هذا القرن — وبخاصة الرسائل — كان

---

(١) بديع الزمان الهمذانى ، رائد القصة العربية والمقالات الصحفية ص ٧٢ .
(٢) النثر الفنى لزكى مبارك ١ / ١٣٠ .

مقيدا بالسجع وأنواع المحسنات البديعية الأخرى اذ لم يعد مرسلا طليقا .. ويقول د. زكى مبارك فى موضع آخر : " أصبح النثر فى القرن الرابع أداة لتقييد الخواطر النفسية والملاحظات الفنية بحيث يرى القارئ من جمال الصنعة ودقة الأسلوب ما يغنيه عن التفكير فى قصائد الشعراء الذين سبقهم هؤلاء الكتاب الى تصيد ما يقضى به العقل ، ويوحى به القلب ، ويشير اليه الخيال "(١) ..

ونرى أن د. زكى مبارك يجامل الكتاب بقوله هذا .. ولكنه يعود فيستدرك فى مكان آخر من كتابه حيث قال :" نرى أن السجع قيد يعطل حركة الفكر والعقل فى كثير من الأحيان "(٢) .. وقال : " كتّاب العصر الحاضر انصرفوا انصرافا تاما عن السجع وذلك منشؤه أنهم ملوا هذا الزخرف ، وضجروا منه ، ورأوه علامة على فقر الكاتب وعجزه عن الظفر بالحلية الجوهرية ، حلية المعنى الرائع ، والغرض النبيل "(٢) .

ويرى أحمد الشايب أن الغلو تأخر الى ما بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وأن كتابة القرن الرابع صناعة مقبولة تدل على قدرة أدبية واحاطة باللغة اذ يقول : " قد عرفت مما سبق أن هذه الصنعة البديعية قد انتهت الى غايتها المقبولة على يدى كتاب القرن الرابع الهجرى أمثال بديع الزمان والخوارزمى والصاحب بن عباد وابن العميد ، هؤلاء

---

(١) النثر الفنى لزكى مبارك ١/ ٣٠ .
(٢) نفس المرجع ١/ ١٢٢ .

الذين عرفوا بالسجع والجناس والطباق .. وقد استطاعوا لاحاطتهم اللغوية وقدرتهم الأدبية أن يجعلوا أساليبهم مقبولة و يحققوا آثار هذه الصناعة الا أن كثيرا ممن خلفهم على هذا الفن — وبخاصة بعد سقوط بغداد و في عصر المماليك لم يظفروا بمكانة السابقين في اللغة والأدب ثم غلوا في البديع وقد نشأ عن ذلك فساد الأساليب وركاكتها والتضحية بالمعاني في سبيل الألفاظ" (١) .

وقال د . بدوى طبانة :" وقد كان لقياس الأدب بالمقياس البديعي أثر بعيد في نفوس الأدباء ، فأخذوا يبذلون جهودهم ،ويحصرون مذاهبهم في استخدام تلك الألوان البديعية ،ويكدون أذهانهم في محاولة الاهتداء الى غيرها فاصطبغ الشعر والنثر بصبغة البديع وغالى الأدباء في استخدام فنونه الكثيرة والمباهاة بكثرتها و تعددها في أشعارهم وخطبهم وكتبهم، وكان لهذا أثر بعيد في الأدب الذى طغت عليه الصناعة طغيانا ظاهرا وخفيت معه المعاني حتى كاد يكون صدى لا أصل له وجسدا لا روح فيه (٢) .

ولو أردت استعراض مواقف كل النقاد من الرسائل والأساليب لطال بنا الوقوف ولاتسع المجال .و يمكن أن نخرج بنتيجة أخيرة رغم اختلاف آرائهم وتباينها ،هى أن الرسائل الديوانية الى عهد ابن العميد كانت ذات قيمة أدبية عالية سواء من حيث جمال أساليبها ،أم من

---

(١) الأسلوب ص١٨٢ .
(٢) دراسات في نقد الأدب ص ٢٨١ .

حيث عمق معانيها وجدتها ووضوحها .. ويكاد يجمع النقاد على استجادتها في هذه الفترة ..

أما رسائل القرن الرابع فقد كثر خلافهم حول قيمتها الفنية فمن نظر الى جمال المظهر ، وحسن السبك ، واختيار الألفاظ ،وتوازن الجمل ،والمقدرة على استخدام أنواع البديع حكم لها با لجمال والفن .. ومن نظر الى خفاء المعاني و سطحيتها و تكرر الأفكار وقدمها ، حكم عليها بالجمود والتكلف ..

أما رسائل القرون المتأخرة ، فقد قل الخلاف في الحكم عليها .. اذ رأوا أنها أصبحت مظاهر لاستعراض المحفوظ ،والتلاعب بالألفاظ ، واستجلاب ما قدروا عليه من أنواع المحسنات البديعية ، والتزام السجع ، والاسهاب والتكرار ، مما أفضى بهم الى التكلف ،حيث أصبحت المعاني تابعة للفظ فجاءت باهتة هزيلة . على أن هذا الحكم ان صدق على الرسائل .. فلا يصدق على كل ما كتب في هذه القرون ، خاصة في مجال التأليف .. فحين نرى بعض المؤلفين يلتزمون أسلوب الرسائل المتكلف كالعماد والعتبي والثعالبي ، نجد آخرين يكتبون مؤلفاتهم بالأسلوب المرسل ويولون المعاني جل اهتمامهم كمؤلفات عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ هـ ،وأسامة بن منقذ ت ٥٨٤ هـ ،وياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ ،وضياء الدين بن الأثير ٦٣٧ هـ ...


UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

الخاتمة

الخاتمـــــــة

تناولت هذه الدراسة ديوان الانشاء باعتباره مصدر اشعاع أدبى أسهم فى اثراء الأدب ورقيه ،واشاعته . كما أثر ـ بما يصدر عنه من رسائل بليغة تولى انشاءها بلغاء الأدباء ـ فى تطور الأساليب النثرية ،وجعلها أكثر نضجا وفنية ،وقدرة على التعبير عن المتطلبات الجديدة للدولة الاسلامية الفتية . تلك الرسائل التى تدرجت فى الاجادة والبلاغة حتى رقت على أيدى كبار الكتاب الى مراتب النضج والكمال ، وحتى أصبحت من أهم الأنواع الأدبية ، لكثرتها واشاعتها ،وكثرة المشتغلين بها ،ولاعتماد الخلفاء والولاة عليها فى التعبير عما ينوب الدولة من الموضوعات المتعددة ،ولاحتضان الحكام لها والعناية بمنشئيها ،حتى تسنموا أهم مناصب الدولة بفضلها .. اذ أصبحت العمود الثالث من أعمدة الأدب العربى ،أعنى بها الخطب والشعر والرسائل ، مما دعانى أن أتعرض لقضية بداية النثر الفنى فى الأدب العربى ،وهل ذاع منذ العصر الجاهلى أم أنه وليد العصر الاسلامى ؟

كما تعرضت لمناقشة أقوال المؤرخين الذين رأوا أنه وليد العصر الاسلامى وأقوال المعارضين لهم.

وخرجت من ذلك بنتيجة هى : أن الجاهليين عرفوا نوعا من الكتابة التى أعانتهم على قضاء حوائجهم ،ولكنها محصورة فى نفر منهم .. وأنها لا ترقى الى النصوص الأدبية الفنية التى يعنى بها ويقصد بها الاجادة والامتاع والتأثير .. كما كان يعنى بالخطابة أو الشعر ..

اضافة الى أن ما ورد الينا من نثر الجاهليين — على قلته — كان عن طريق الرواية والمشافهة ، وانحصر — تقريبا — في الخطب والأمثال والحكم — لأن الكتابة الفنية تتطلب التدوين الذى لم يعرفه الجاهليون ..

ان الأهمية التى حظيت بها الرسائل الديوانية ، والتى تأخر ظهورها الى العصر الاسلامى .. جاءت نتيجة للدور الذى قامت به ازاء متطلبات الحكم والادارة .. سياسية ودينية وعلمية . ولأن دواوين الانشاء كانت مدارس أو جامعات يتخرج فيها كبار الكتاب — كما رأينا — أصبح لها دورها الكبير فى تطوير الأساليب ، ورقيها بعد أن تولى الكتابة فيها بلغاء الأدباء ، واحتفلوا بأسلوب رسائلهم ، وذهبوا يختارون ألفاظها ، ويدققون فى اختراع الاستعارات الجميلة ، والكنايات الطريفة ، كما أخذوا يطعمونها بما جاد من الشعر ، وطح من الأمثال والحكم واقتبسوا لها الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، فبهرت الكتّاب ، فضلا عن القراء وعشاق الأدب .

واستطاع كتّاب الديوان احتلال المنزلة الأولى فى الأدب ، كما احتلوا المراكز المهمة فى الدولة ، فشدوا اليهم طموحات الأدباء والناشئين ، واشتد التنافس فيما بينهم ، عن طريق التزود بالثقافات وتحصيل العلوم ، والتمرس بالأساليب واختراع طرق راقية جديدة فى الكتابة والتعبير .

ولذلك تطرقت هذه الدراسة لنشأة الديوان وتطوره ، اذ لم يكن للعرب قبل الاسلام دراية بالدواوين .. وانما احتاجوا لانشائها حين أصبح لهم دولة منظمة مترامية الأطراف تتطلب وجودها ، لضبط شئونها ، فكان أول ديوان وضع فى الاسلام ديوان الجيش فى عهد

عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما كثر المال الوارد عليه .

أما ديوان الرسائل فلم ينظم الا فى عهد معاوية — على أقرب التقديرات — خلافا لما رآه بعض المؤرخين من أنه عرف زمن الرسول صلى الله عليه وسلم . . بناء على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان له كتاب يكتبون الرسائل الى الملوك . . غير أن دور أولئك الكتاب يقف عند كتابة ما يملى عليهم حتى أوائل عهد الدولة الأموية . . وفى هذه الفترة كانت الرسائل حاجة ادارية ، ولم تكن فنا مقصودا .

أما فى زمن الدولة الأموية ، فقد زادت عناية الخلفاء بديوان الرسائل ، وتعددت أعماله ، وزادت مسئولياته ، واتسعت الدولة ، وبدأت تستفيد من نظم الحضارات المجاورة . .

ولعل أول اشارة تفيد تنظيم هذا الديوان قول الجهشيارى : " وكان يكتب لمعاوية على كتابة الرسائل عبد الله بن أوس الغسانى "(١) .

كما كان لمعاوية زيادة عناية بالدواوين تمثلت فى انشائه لديوان الخاتم ووضع البريد لأول مرة فى الاسلام . فلما كان عهد عبد الملك بن مروان ، عرّب الدواوين . . من اللغات الفارسية والرومية والقبطية . . فأصبحت جميع الدواوين فى عهده ، تكتب بالعربية . فزادت عناية الموالى بتعلم اللغة العربية وآدابها ، لاحتلال بعض مناصب الديوان . . حتى تمكنوا من تسنم رياسته فى عهد هشام ابن عبد الملك . . حيث تولاه مولاه أبو العلاء سالم وتلميذه عبد الحميد من بعده . . فخطوا بالكتابة الديوانية خطوات واسعة ، وابتدعا فيها

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٤ .

أساليب جديدة لم يعهدها العرب ، وجعلا لها رسوما وتقاليد لم تكن لها من قبل ، وبلغا بالكتابة منزلة لا يصل اليها الا ذوو الأنفس الطموحة ،والهمم العالية ، من أهل المواهب والقدرات غير العادية .

وفى عهد الرشيد مست الحاجة الى انشاء ديوان خاص للتوقيعات عرف "بديوان التوقيع" ،وأسندت رياسته الى جعفر بن يحيى البرمكى لبلاغته وطول ممارسته لهذا الفن ،وبلغت على يديه مبلغا عظيما ، جعل الأدباء يتهافتون على توقيعاته حتى قيل : انها كانت تباع كل قصة بدينار .

وقد غلبت شخصية الموالى على ديوان الانشاء منذ عهد هشام ابن عبد الملك تقريبا ،وبالأحرى منذ أن تولى الكتابة فيه سالم وتلميذه عبد الحميد الكاتب وابن المقفع . أولئك الأعاجم الذين حذقوا هذه الصناعة ،وجعلوا لها رسوما وأصولا يصعب على أى انسان أن يتقنها الا بجهد ومراس ، وتحصيل كثير ودرس طويل .

وكانوا فيما ابتدعوه من ظواهر أسلوبية فى النثر الفنى متأثرين بأدب لغاتهم ،وطول ممارستهم لهذا الفن ،وكثرة محصولهم من الثقافات المتنوعة .

ورغم أن ديوان الانشاء عرف مبكرا فى عاصمة الخلافة الأموية بدمشق ثم انتقل مع العباسيين الى عاصمتهم الجديدة ببغداد ، فقد تأخر وجوده فى مصر الى العهد الطولونى — ٢٥٤ — ٢٩٣ هـ لأن ديوان الانشاء لا يكون عادة الا حيث يكون مقر الملك المستقل ، ولم يتحقق ذلك فى مصر الا على يد أحمد بن طولون ،حين استقل بها عن الخلافة العباسية .

وكان أول من ولي رياسته ابن عبد كان الذى يعد من الكتاب البلغاء ،ثم تعاقب على رياسته كبار الكتاب مما كان له الأثر البين في رفع شأن الكتابة والأدب في مصر .

وكانت دولة الأخشيديين في مصر — ٢٩٣ — ٣٦٢ هـ امتدادا لدولة الطولونيين من حيث الاهتمام بديوان الانشاء واختيار بلغاء الكتاب لرياسته .

ولما استولى الفاطميون — ٣٦٢ — ٥٦٧ هـ على الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الانشاء وكتّابه ، لينافسوا العباسيين فيما بلغوه بهذا الفن . . فقد أولوه مزيد عناية حتى فاق في منزلته . . منزلة موطنه الأصلي في بغداد . وبلغ من شهرة القاضي الفاضل ، آخر كتابهم أن غطت على شهرة من سواه من الكتاب في زمانه .

كما تعرضت هذه الدراسة لصفات كاتب الانشاء ،وما اشترط فيه من آداب وثقافة عالية ،واطلاع على مختلف العلوم حتى قال ابن الأثير : " ذكر علماء هذا الفن أن كاتب الانشاء له أن يتشبث بكل فن حتى ما تقوله الماشطة عند جلوة العروس ،وما تقوله النادبة في المآتم ، وما يقوله المنادى في السوق ،فانه محتاج اليه ، مضطر الى معرفته ، فما ظنك بما فوق هذا وذاك ،لأنّ مواد الكتابة غير محصورة في عدد معلوم "(١) .

كما اشترطوا فيه كثيرا من الشروط العائدة الى الفهم ،والذكاء والفطنة والأخلاق ،والمظهر وحسن السمت ، . . الخ . ولهذا بلغت

---

(١) المثل السائر ١/ ٧٣ .

منزلة كاتب الانشاء درجة عالية في الأدب وفي المجتمع حتى أصبحت الكتابة سلما الى الوزارة ، وحتى كانت حاجة الملوك الى الكتّاب أكثر من حاجة الكتاب الى الملوك .

كما تناولت اختصاصاتهم الرسمية في ديوان الانشاء ، أما منزلة كاتب الانشاء بين الأدباء ، فقد احتل الصدارة في العصور المتأخرة ، واحتاج الشعراء أن يقفوا على أبواب الكتاب ، لمدحهم ونيل أعطياتهم .

وكان الكتاب يجيدون قول الشعر الى جانب اجادتهم فن الترسل ، فتنافس الأدباء منصب الديوان ، ذلك المنصب الذى قالوا عنه : انه " أشرف المناصب بعد الخلافة "(١) .

فكان لهذا كله .. الفضل في نهضة الأدب ، حيث أن هذا المركز لا ينال الا بكثرة التحصيل والمران الطويل والموهبة والبلاغة ، وسعة الاطلاع .

كما تناولت هذه الدراسة أشهر كتّاب الديوان في القرن السادس الهجرى .. وأفردت لكل من القاضى الفاضل ، والعماد الأصبهانى ، وضياء الدين بن الأثير دراسة وافية ، شملت : حياة كل منهم وأدبه ، وفنه ، والخصائص التي امتاز بها أسلوب كل منهم عن غيره ، كما عالجت ما اشتهر بين الدارسين من أن للفاضل مدرسة أسلوبية تنسب اليه ، واختلاف المؤرخين في ذلك .

وتوصلت الى أن طغيان الصناعة اللفظية على أساليب الكتّاب

---

(١) العقد الفريد ٣/١٦ .

فى هذا العصر جعل من الصعب التفريق بين أسلوب كاتب وآخر، وانما يمكن أن نقول ان القاضى الفاضل ، اشتهر بعنايته بالتورية والجناس ، كما بالغ العماد فى استخدام الجناس ،أما ابن الأثير فقد كان أخف صنعة من نظيريه ، وقد تخلص من قيود تلك الصناعة فى مؤلفاته ، بل هاجم كتّاب زمانه لكلفهم بها وتموبلهم عليها .

واشتركوا فى كثرة الاقتباس من القرآن الكريم وحل آياته .

واستعرضت نماذج رسائل الكتّاب فى هذا القرن مقسمة على أغراضها ،مع دراستها والتعليق عليها . وكانت ثمرة البحث فى توضيح ما للرسائل الديوانية على مرور العصور من أثر فى تطور الأساليب .
وقد خرجت من ذلك بنتائج أهمها :

أن عبد الحميد ومن قلده فى طريقته الكتابية — وان كان لهم فضل شيوع الرسائل ، وازدهارها وتطورها ،ونضجها ،وجعلها مجالا لاجالة التفكير وتشعب القول — فان طريقتهم نقلت الكتابة العربية — فيما بعد — من الأسلوب السهل الموجز البليغ العفوى ، الذى يؤثر المعنى على اللفظ ، وعدم التكلف لأى نوع من أنواع البديع ، الى الاسهاب والصناعة والتنميق التى لم تظهر مساوءها فى عصرهم ، بل تأخرت الى عصر ابن العميد ومن جاء بعده من الكتاب الذين احتكموا الى السجع وجعلوا الرسائل معرضا للزينة اللفظية على حساب المعانى ، وزاد من اتساع هذه الطريقة ظهور المقامات التى تعد وليدة تطور الأساليب والتى اتخذها القوم مثالا يحتذونه ويقلدونه .

ثم كان لكتابة أبى العلاء المعرى أكبر الأثر فى تأكيد هذه الصناعة حيث ألزم نفسه بما لا يلزم ،واستهدف الغريب ،وأغرم

بالسجع ،والألغاز بالمصطلحات العلمية والاشارات التاريخية ، وكذلك فعل تلميذه الحصكفي . وتوّجها الحريري بمقاماته المشهورة.

كما عالجت هذه الدراسة قضية التطور والنضج الفني والظواهر الأسلوبية التي آلت اليها كتابة الرسائل ،وأقوال المؤرخين والنقاد في تأصيل تلك الصناعة ،ورجحت أنها مستفادة من الآداب الفارسية ، ان لم تكن مصدرها الأهم ، فهي أحد مصادرها ،لأن الموالي من الفرس هم الذين نضجت تلك الصناعة على أيديهم ، وأدخلوها الى أسلوب الكتابة ،ولأنها اكتملت واستحكمت في بيئة فارسية ـ أعني بها شرق الدولة الاسلامية موطن ابن العميد والصاحب وغيرهم ـ الا أن ذلك لا يدعونا الى انكار تأثر أولئك الكتّاب بمؤثرات أخرى ، كالثقافة العربية المستمدة من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وخطب بلغاء العرب ،وكلا مهم .

كما أننا لا نستبعد تأثرهم بالثقافة اليونانية ،الا أن ذلك ما هو الا عامل من تلك العوامل التي أسهمت في ذلك التطور ، وبروز تلك الظواهر ، و من تلك النتائج :

أن مصدر اشاعة الصناعة اللفظية في الأساليب جاء عن طريق الرسائل الديوانية ، التي كان لها الصدارة في ذلك الزمن ، كما أن بناء المقامات يعد نتيجة للغلوّ فيما انتهجه الكتّاب من الصناعة اللفظية ،وأثرا من آثار أسلوبها.

وان من يتعرض لدراسة النثر الفني ،من حيث تطور الأساليب أو المدارس الفنية ، يجب أن يفرق بين أسلوب الرسائل وأسلوب

غيرها من أنواع النثر كالترجمة والتأليف ، والقصص والجدل .. لأن الرسائل امتازت عن تلك الأنواع بأسلوبها ومنهجها ، وأصبحت فرعا مستقلا ، له أصوله ورسومه ، قبل أن تصبح المقامات لها طابعها الخاص.

ولم يهيمن أسلوب الرسائل المصنع على بقية الأنواع الأدبية الا منذ نهاية القرن الرابع الهجرى تقريبا . وأن كتّاب القرن السادس الهجرى لم يأتوا بمدرسة جديدة فى الأساليب النثرية بل ساروا على سنن من قبلهم ولكنهم بالغوا فى الصناعة اللفظية ، وامتازوا عمن سبقهم بكثرة الاقتباس من القرآن وحل آياته الكريمة ، والالحاح على الجناس والتورية .

كما تناولت هذه الدراسة أثر الرسائل الديوانية فى فروع الأدب الأخرى مما استدعى معالجة قضية المفاضلة بين الشعر والنثر ، واتضح أن لكل فن مجاله وجماله وفائدته ، وأن الرسائل كما تأثرت بالخطب والشعر فى أول أمرها فقد بدأت تؤثر فى فروع الأدب الأخرى بعد أن قامت على سوقها واستوى ثمرها .

وكانت خاتمة المطاف بيان منزلة تلك الرسائل وموقف النقاد منها ، وبالتالى رأيهم فى أسلوبها الذى غلبت عليه الصناعة اللفظية وبخاصة السجع . فكان من القدامى من حمد تلك الصناعة وأشاد بها ، كقول أحدهم : " ورأيت قوما يذهبون الى كراهة السجع والازدواج فى الكلام ، من غير أن أعرف لهم فى ذلك حجة ، فعلمت أنهم ذموا ما راموه فلم يصلوا اليه ، وتعاطوه فلم يقدروا عليه "[1] .

---

(١) قانون البلاغة ص ٣٠ .

وكلن منهم من عارضها وهاجمها ورأى أنها " ضرب من الخداع بالتزويق .. كمن ثقّل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها "(١).

وقد أدت بهم هذه المناقشات الى الترجيح والموازنة بين اللفظ والمعنى ، الذى لم يصلوا فيه الى نتيجة ، حتى جاء الجرجانى فوازن بينهما .

أما آراء المتأخرين من النقاد ، فقد كانت منصبة على أن هذه الصناعة ما هى الا حجاب يحول بين القارىء والأفكار ، بل هى دليل على جدب عقول منشئيها من الكتّاب ، الذين تكلفوا تلك الصناعة ليموهوا على القارىء ، ويخدعوه عما تحويه رسائلهم من تفاهة المعانى وسطحية الأفكار .

ومن امتدحها منهم ، فانما نظر الى مقدرة منشئيها على ذلك النسق الهندسى الذى بنوا رسائلهم عليه ، وتلك الزينة والنقوش الجميلة ، والمقدرة على اختيار الألفاظ ، وتناسقها ، وتحكمهم فى المحسنات البديعية التى أجادوا تطعيم كتاباتهم بها ، بالاضافة الى اجادتهم فى الاقتباس من القرآن الكريم ، واستخدام معانى الشعر أو تضمينه ، وتحلية رسائلهم بكل طريف من الحكم وبكل سائر من الأمثال ..

---

(١) أسرار البلاغة ص ٥ — ٦ .



المصادر والمراجع

أ ـ المخطوطات :

(ت)

١ـ التذكرة / لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدى ـ ت ٧٦٤ هـ ـ دار الكتب المصرية جـ ١٣ تحت رقم ٤٢٠ ،أدب .

٢ـ تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل بتمثيل المماثلات ،وتصنيف المخاطبات / لأبى عبدالله محمد بن أبى نصر الحميدى ت ٤٨٨هـ ـ فى أحمد الثالث باستانبول تحت رقم ٢٣٥١ .

(ر)

٣ـ الرأى الصائب فى اثبات ما لا بد منه للكاتب / لأبى الفضل بن أبى الحسن على بن العماد الكاتب ـ مصور بمعهد المخطوطات العربية عن مخطوطة أحمد الثالث رقم / ٢٥٨٣ .

٤ـ رسائل ابن الأثير (كتاب الرسائل) / لمجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد بن عبدالكريم فى أحمد الثالث باستانبول تحت رقم / ٢٦٣٠ .

٥ـ رسائل الحصكفى / يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد ت ٥٥٣ هـ فى دار الكتب المصرية تحت رقم / ٥٢٦ ـ أدب .

٦ـ رسوم دار الخلافة /لأبى الحسن هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابى ، فى دار الكتب المصرية تحت رقم / ع ٨١١٤ .

(ف)

٧ـ فصوص الفصول وعقود العقول / جمع ابن سناء الملك عبدالله بن جعفر فى مكتبة الأزهر تحت رقم ٥٢٢ أباظة ـ ٧١١٨ .

(ل)

٨ ـ لمع القوانين المضيئة فى دواوين الديار المصرية / لعثمان بن ابراهيم النابلسى ـ فى دار الكتب المصرية تحت رقم /٢٠٢٢ تاريخ .

(م)

٩ـ المختار من انشاء الفاضل / وهو المسمى "بالفاضل من انشاء الفاضل"/ جمع ابن نباتة المصرى ـ فى مكتبة الأزهر تحت رقم ٤٦٩ أباظة ٧٠٦٥ .

١٠ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار / لابن فضل الله العمرى ـ مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم /٢٥٦٨ تاريخ .

١١ـ المفتاح المنشا في حديقة الانشاء / لضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧ هـ في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم / ٧٨٣ ـ أدب .

١٢ـ من ترسل القاضي الفاضل ، الجزء الأول ، مصور في معهد المخطوطات العربية عن مكتبة بشير آغا باستانبول تحت رقم / ١٢٦ .

١٣ـ مواد البيان / لأبي الحسن علي بن خلف بن علي الكاتب ، في مكتبة الفاتح باستانبول تحت رقم / ٤١٢٨ ـ السليمانية .

ب — المطبوعات :

(أ)

١ — ابن سناء الملك (من سلسلة أعلام العرب كتاب رقم ٩٦) لمحمد نصر — الهيئة العامة للتأليف والنشر بمصر ١٩٧١م.
٢ — ابن نباتة المصرى أمير شعراء المشرق / للدكتور عمر موسى باشا — دار المعارف بمصر ١٩٦٣م.
٣ — أتابكة الموصل (التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل) / لعز الدين بن الأثير ، تحقيق عبد القادر طليمات ١٣٨٢هـ — ١٩٦٣م.
٤ — اتحاف الورى باخبار أم القرى / لعمر بن فهد بن محمد ت ٨٨٥ هـ تحقيق فهيم شلتوت — مكتبة الخانجى القاهرة ١٣٧٥هـ .
٥ — اتعاظ الحنفاء (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) / لأحمد ابن على بن عبد القادر المقريزى — مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤هـ.
٦ — الأحكام السلطانية والولايات الدينية / لأبى الحسن على بن محمد الماوردى ت ٤٥٠ هـ — مطبعة البابى الحلبى الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م.
٧ — احكام صنعة الكلام / لذى الوزارتين أبى القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعى ،تحقيق محمد رضوان الداية — دار الثقافة بيروت ١٩٦٦م.
٨ — أخبار أبى تمام / لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ،تحقيق د . خليل عساكر وزملائه — نشر المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، بدون تاريخ .
٩ — أخبار الحمقى والمغفلين / لعبد الرحمن بن على بن الجوزى — المكتب التجارى للطباعة والنشر بيروت — بدون تاريخ .
١٠ — الأخبار الطوال / لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى . . تحقيق عبد المنعم عامر ،دار احياء الكتب العربية ،الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٠م .
١١ — أخبار ملوك بنى عبيد / لأبى عبد الله محمد بن على بن حماد . . تحقيق د / التهامى نقرة وزميله — مطبعة نهضة مصر القاهرة بدون تاريخ .
١٢ — اختصار دولة آل سلجوق — انظر دولة آل سلجوق .
١٣ — الآداب الاقليمية فى العصر العباسى الثانى /للدكتور حامد حنفى داود — مطبعة السنة المحمدية القاهرة ١٩٧٦م.

١٤ـ أدب الحروب الصليبية / للدكتور عبد اللطيف حمزة ـ مطبعة الاعتماد ١٩٤٩م.

١٥ـ أدب الدول المتتابعة / عصر الزنكيين والمماليك / للدكتور عمر موسى باشا ـ دار الفكر الحديث بمصر طبعة أولى ١٩٦٧م.

١٦ـ أدب السياسة في العصر الأموي /للدكتور أحمد الحوفي ـ دار نهضة مصر الطبعة الخامسة بدون تاريخ .

١٧ـ الأدب الصوفي في مصر / للدكتور على صافي حسن ـ دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ .

١٨ـ الأدب العربي من عهد الفاطميين الى اليوم / لمحمود رزق سليم ـ مطبعة صلاح الدين الاسكندرى بمصر طبعة أولى ١٣٥٧هـ.

١٩ـ الأدب العربي بمصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الأيوبي / لمحمود مصطفى ـ دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٢٠ـ الأدب في العصر الأيوبي / للدكتور محمد زغلول سلام ـ دار المعارف بمصر بدون تاريخ .

٢١ـ الأدب في موكب الحضارة الاسلامية /للدكتور مصطفى الشكعة ـ دار الكتاب اللبناني ـ الطبعة الثانية ١٩٧٤م.

٢٢ـ أدب الكاتب / لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ت ٢٧٦ هـ تحقيق محمد عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الرابعة ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م.

٢٣ـ أدب الكتاب / لأبي محمد بن يحيى الصولي ت ٣٣٥ هـ ـ المطبعة السلفية بمصر ١٣٤١هـ.

٢٤ـ الأدب في ظل بني بويه / لمحمود غناوى الزهيرى ـ مطبعة الأمانة بمصر ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م.

٢٥ـ أساس البلاغة / لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ـ دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

٢٦ـ الأسلوب / لأحمد الشايب ـ مطبعة السعادة بمصر الطبعة السادسة ١٩٦٦م.

٢٧ـ الاشارة الى من نال الوزارة / لأبي القاسم على بن منجب الشهير بابن الصيرفي ـ طبعة المعهد العلمي الفرنسي القاهرة ١٩٢٤م.

٢٨ـ اعتاب الكتاب /لأبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبار ، تحقيق د / صالح الأشتر ـ المطبعة الهاشمية بدمشق الطبعة الأولى ١٩٦١م.

٢٩ـ اعجاز القرآن / لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني . . تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار المعارف بمصر بدون تاريخ .
٣٠ـ اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس / لمحمد ذياب ـ مكتبة محمد على صبيح بمصر بدون تاريخ .
٣١ـ الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين / لأحمد بن على الحريري ت ٩٢٦ هـ ـ تحقيق سهيل ذكار ـ نشر عبد الهادي حرصوني ، دمشق ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .
٣٢ـ الأغاني /لأبي الفرج الأصفهاني ـ دار احياء التراث بيروت ، ١٣٩٢هـ .
٣٣ـ الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار /للدكتور حسين الباشا دار النهضة العربية ١٩٧٨م .
٣٤ـ الالمام بالأعلام / لمحمد قاسم النويري الاسكندراني ت ٧٧٥ هـ ، تحقيق د / عزيز سريال ـ مطبعة دائرة المعارف بمصر ١٣٩٠هـ .
٣٥ـ الأمالي / لأبي على اسماعيل بن القاسم القالي ـ دار الكتاب العربي بيروت لبنان بدون تاريخ .
٣٦ـ امالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) لعلى بن الحسين المرتضى الموسوي ت ٤٣٦ ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي طبعة أولى ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م .
٣٧ـ الامتاع والمؤانسة / لأبي حيان التوحيدي ـ منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت بدون تاريخ .
٣٨ـ أمراء البيان لمحمد كرد على ـ دار الكتب بيروت ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م

(ب)

٣٩ـ البخلاء / لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، مصر ١٩٧١م .
٤٠ـ بدائع السلك في طبائع الملك / لأبي عبد الله بن الأزرق/ ت ٨٩٦ هـ تحقيق د / على سامي النشار ـ دار الحرية للطباعة بغداد ، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .
٤١ـ البداية والنهاية /لأبي الفداء الحافظ بن كثير ت ٧٧٤ هـ ـ دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .
٤٢ـ البديع / لأبي العباس عبد الله بن المعتز ـ نشر المستشرق أغناطيوس كراتشقوفسكي ، دمشق بدون تاريخ .

٤٣ــ بديع الانشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات / لمرعي يوسف المقدسي ت ١٠٣٣هـ ــ مطبعة الجوائب بالاستانة ، الطبعة الثانية ١٢٩٩هـ.
٤٤ــ بديعيات الآثاري / نظم شعبان بن محمد الآثاري ت ٨٢٨ هـ ، تحقيق هلال ناجي ــ مطبعة وزارة الأوقاف ــ بغداد ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م.
٤٥ــ بديع الزمان الهمذاني ، رائدة القصة العربية والمقالة الصحفية / للدكتور مصطفى الشكعة ــ مكتبة الأنجلو مصرية طبعة ثانية ١٩٧٥م.
٤٦ــ بديع القرآن / لابن أبي الاصبع المصري ت ٦٥٤ هـ . تحقيق حفني شرف ــ دار نهضة مصر الطبعة الثانية بدون تاريخ .
٤٧ــ البرهان في وجوه البيان / لأبي الحسن اسحاق بن ابراهيم بن وهب الكاتب ــ تحقيق حفني شرف ــ مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٦٩م.
٤٨ــ بلاغة الكتاب / للدكتور محمد نبيه حجاب ــ الطبعة الفنية الحديثة ، طبعة أولى مصر ١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٥م.

(ت)

٤٩ــ تاريخ الأدب العربي / لبروكلمان ــ دار المعارف بمصر جـ٥ ١٩٧٥م جـ٦ ١٩٧٧م.
٥٠ــ تاريخ الأدب العربي / للزيات ــ نهضة مصر الطبعة الخامسة والعشرين بدون تاريخ .
٥١ــ تاريخ الأدب العربي / للسباعي بيومي بك ــ مطبعة البيان العربي القاهرة ١٩٥٢م.
٥٢ــ تاريخ الأدب العربي ١ ــ عصر الدول والامارات / للدكتور شوقي ضيف دار المعارف بمصر
٥٣ــ ٢ ــ العصر الاسلامي / = = = = = = = = =
٥٤ــ ٣ ــ العصر الجاهلي / = = = = = = = = =
٥٥ــ ٤ ــ العصر العباسي الأول / = = = = = = = =
٥٦ــ تاريخ الخلفاء / لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي . تحقيق محمد عبد الحميد ــ مطبعة الفجالة الجديدة الطبعة الرابعة القاهرة ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.
٥٧ــ تاريخ دولة آل سلجوق / لمحمد بن محمد الأصبهاني ــ اختصار البنداري ــ دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٨م.

٥٨ ـ تاريخ الدول والملوك / لابن الفرات ت ٨٠٧ هـ المجلد الرابع ـ تحقيق د / حسن محمد الشماع .
٥٩ ـ تاريخ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك / لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ ـ تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٧١م .
٦٠ ـ تاريخ النقد العربي من القرن الخامس الى العاشر الهجري / للدكتور محمد زغلول سلام ـ دار المعارف بمصر بدون تاريخ .
٦١ ـ تجارب الأمم / لأبي علي أحمد بن محمد مسكويه ـ مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م .
٦٢ ـ التراتيب الادارية / لمحمد بن عبد الحي الكتاني ـ دار احياء التراث العربي بيروت ، بدون تاريخ .
٦٣ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع ـ الذيل على الروضتين ـ لأبي شامة المقدسي ت ٦٦٥ هـ ـ عني بنشره عزت العطار ـ دار الجيل الطبعة الثانية بيروت ١٩١٤م .
٦٤ ـ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي / لأنيس المقدسي ـ دار العلم للملايين الطبعة الخامسة بيروت ١٩٧٤م .
٦٥ ـ التعريف بالمصطلح الشريف / لعلي بن عبد الله بن العمري ـ مطبعة العاصمة بمصر ١٣١٢هـ .
٦٦ ـ تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والآثار / للفضلي ـ طبعت منه قطعة في ليدن ١٣٩٢هـ .
٦٧ ـ تيارات ثقافية بين العرب والفرس / للدكتور أحمد محمد الحوفي دار نهضة مصر القاهرة ١٩٦٨م .

(ث)

٦٨ ـ ثلاث رسائل للجاحظ ـ المطبعة السلفية الطبعة الثانية مصر ١٣٨٢هـ .
٦٩ ـ ثمرات الأوراق / لتقي الدين أبي بكر بن علي بن حجة الحموي ، ت ٨٣٧ هـ ، تصحيح أبي الفضل محمد ابراهيم ـ مطبعة السنة المحمدية الطبعة الأولى القاهرة ١٩٧١م .

(ج)

٧٠ ـ جامع محاسن أصفهان / للمافروخي ـ طبع طهران .
٧١ ـ جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة / لأحمد زكي صفوت ـ طبع مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م .

٧٢ـ جوهر الكنز ـ تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوى البراعة / لنجم الدين أحمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبى ت ٧٣٧ هـ تحقيق د / زغلول سلام ـ منشأة المعارف الاسكندرية ، بدون تاريخ .

(ح)

٧٣ـ الحركة الصليبية / للدكتور عبد الفتاح عاشور ـ الأنجلو مصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م ، والبابى الحلبى طبعة أولى ١٩٦٧م .
٧٤ـ الحروب الصليبية ـ لأرنست باركر ترجمة د / السيد الباز ـ دار النهضة العربية الطبعة الثانية بيروت ، بدون تاريخ .
٧٥ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة / لجلال الدين السيوطى ـ مطبعة ادارة الوطن مصر ١٢٩٩ هـ .
٧٦ـ حسن التوسل الى صناعة الترسل / لمحمود الحلبى ، تحقيق أكرم عثمان ـ دار الحرية بغداد ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .
٧٧ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى / لآدم متز ، ترجمة محمد أبو ريدة ـ دار الكتاب العربى الطبعة الرابعة بيروت ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .
٧٨ـ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية / للدكتور أحمد أحمد بدوى ـ دار نهضة مصر الطبعة الثانية ١٩٧٩م .
٧٩ـ الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية / للدكتور أحمد بدوى ـ نهضة مصر القاهرة ١٩٧٢م .

(خ)

٨٠ـ الخراج وصناعة الكتابة / لقدامة بن جعفر تحقيق د / محمد الزبيدى دار الرشيد للنشر العراق ١٩٨١م .
٨١ـ خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام / للعماد الأصبهانى ـ المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٦٨م .
٨٢ـ خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر / للعماد الاصبهانى ـ نشر أحمد أمين وزملائه القاهرة ١٩٥١م .
٨٣ـ خزانة الأدب / لأبى بكر على بن حجة الحموى ـ المطبعة العامرة القاهرة ١٢٩١هـ .
٨٤ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة / لعلى مبارك ـ مطبعة دار الكتب بمصر ١٩٦٩م .
٨٥ـ خطط المقريزى ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ـ لأحمد بن على المقريزى ـ مطبعة النيل مصر ١٣٢٤هـ .

٨٦ــ الخلافة في الحضارة الاسلامية / للدكتور أحمد رمضان أحمد ــ دار البيان العربي الطبعة الأولى جدة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.

(د)

٨٧ــ دراسات في النقد الأدبي / للدكتور بدوي طبانة ــ دار الثقافة الطبعة السادسة بيروت ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م.

٨٨ــ دار الطراز في عمل الموشحات / لابن سناء الملك ــ تحقيق د / جودت الركابي ــ دار الفكر بدمشق ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م.

٨٩ ــ الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم / اختيار محي الدين بن عبد الظاهر تحقيق د / أحمد بدوي ــ مطبعة الرسالة مصر بدون تاريخ .

٩٠ــ دلائل الاعجاز / لعبد القاهر الجرجاني ــ مطبعة المنار الطبعة الثانية ١٣٣١هـ.

٩١ــ ديوان الفاضل / عبد الرحيم بن علي البيساني تحقيق د / أحمد بدوي وزميله ــ مطابع دار الكتاب العربي طبعة أولى مصر ١٩٦١م.

٩٢ ــ ديوان المعاني / لأبي هلال العسكري ــ مكتبة المقدسي القاهرة ١٣٥٢هـ.

(ذ)

٩٣ــ ذيل الروضتين ــ انظر تراجم رجال القرنين .

(ر)

٩٤ــ رحلة ابن جبير / لابن جبير ــ دار صادر بيروت ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م.

٩٥ــ الرسالة العذراء / لابراهيم بن محمد بن المدبر ت ٢٧٩ هـ . تحقيق د / زكي مبارك ــ مطبعة دار الكتب المصرية طبعة ثانية ١٣٥٠هـ ١٩٣١م .

٩٦ــ رسائل أبي بكر الخوارزمي / لمحمد بن العباس ــ المطبعة العثمانية مصر ١٣١٢هـ.

٩٧ــ رسائل ابن الأثير / لضياء الدين بن الأثير تحقيق د / نوري القيسي وهلال ناجي ــ دار الكتب جامعة الموصل العراق ،بدون تاريخ .

٩٨ــ رسائل ابن الأثير / لضياء الدين بن الأثير ، تحقيق أنيس المقدسي مطابع دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٩م.

٩٩ــ الرسائل والمقامات / لعمر فروخ ــ بيروت ١٣٦١هـ.

١٠٠ــ الروضتين في أخبار الدولتين / لأبي محمد عبد الرحمن المقدسي ، دار الجيل بيروت ،بدون تاريخ .

١٠١ــ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات / للميرزا محمد باقر الموسوي . تحقيق أسد الله اسماعيل ــ طبعة طهران ١٣٩٢هـ .

(ز)

١٠٢ــ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك / لخليل بن شاهين الظاهري ــ باريس ١٨٩٤م.

١٠٣ــ زهر الآداب وثمر الألباب / لأبي اسحاق ابراهيم بن على الحصري ت ٤٥٣ هـ شرح د / زكي مبارك ــ دار الجيل طبعة رابعة بيروت ١٩٧٢م.

(س)

١٠٤ــ سنا البرق الشامي / للفتح بن على البنداري . تحقيق د / فتحية النبراوي ــ مطبعة الجبلاوي ١٩٧٩م.

(ش)

١٠٥ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب / لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ت ١٠٨٩هـ . تحقيق لجنة احياء التراث العربي دار السراج بيروت بدون تاريخ .

(ص)

١٠٦ــ صبح الأعشى في صناعة الانشاء /لأبي العباس أحمد بن على القلقشندي ت ٨٢١ هـ ــ طبع كوستاتسوماس وشركاه القاهرة ،بدون تاريخ .

١٠٧ــ الصحاح ــ تاج اللغة وصحاح العربية ــ لاسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفار عطار ــ الطبعة الثانية القاهرة ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م.

١٠٨ــ صحيح مسلم / للامام مسلم ــ مصور عن طبعة استانبول ١٣٢٩هـ .

١٠٩ــ الصناعتين . . الكتابة والشعر/ لأبي هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ ، تحقيق على محمد وزميله ــ عيسى البابي الحلبي مصر بدون تاريخ .

١١٠ــ صناعة الكتابة /لفكتور الكك وأسعد على . الطبعة الأولى بيروت ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م.

(ض)

١١١ــ ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر / للقلقشندي ــ القاهرة ١٣٢٤هـ ــ ١٩٠٦م .

١١٢- ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد / للدكتور محمد زغلول سلام مطبعة الرسالة القاهرة ، بدون تاريخ .

(ظ)

١١٣- ظهر الاسلام / لأحمد أمين - مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، الطبعة الرابعة ١٩٦٦م.

١١٤- ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها / للدكتور عبد المنعم ماجد - دار المعارف الطبعة الثانية مصر ١٩٧٦م.

(ع)

١١٥- عروبة العلماء المنسوبين الى البلدان الأعجمية / للدكتور ناجي معروف دار الحرية للطباعة بغداد ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

١١٦- العقد الفريد / لأحمد بن عبد ربه - المطبعة الأزهرية الطبعة الثانية مصر ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م.

١١٧- عمارة اليمني / للدكتور (ذو النون) المصري - دار الاتحاد العربي للطباعة مصر ١٩٦٦م.

١١٨- عنوان المعارف وذكر الخلائف / للصاحب بن عباد ت ٣٨٥ هـ ، تحقيق محمد حسن آل ياسين - مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٦م.

١١٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده / لابن رشيق القيرواني ت ٤٥٦ هـ تحقيق محمد عبد الحميد - دار الجيل الطبعة الرابعة بيروت ١٩٧٢م.

١٢٠- عيار الشعر / لأبي الحسن محمد بن أحمد العلوي بن طباطبا ، تحقيق طه الحاجري و د / محمد زغلول سلام - القاهرة ١٩٥٦م.

١٢١- عيون الأنباء في طبقات الاطباء / لموفق الدين احمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبعة ت ٦٨٨ هـ - المطبعة الوهبية ، طبعة أولى القاهرة ١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م.

(ف)

١٢٢- الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية / لسليمان العجلي ت ١٢٠٤ هـ - مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر بدون تاريخ .

١٢٣- فجر الاسلام / لأحمد أمين - دار الشباب للطباعة ، الطبعة الثانية عشرة - مصر ١٩٧٨م.

١٢٤- الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية / لأبي جعفر بن الطقطقي ت ٧٠٩ هـ - طبع صادر بيروت .

١٢٥ ـ الفروق في اللغة / لأبي هلال العسكري ـ دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
١٢٦ ـ فض الختام عن التورية والاستخدام / لصلاح الدين خليل الصفدي ، تحقيق د / المحمدي ـ دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
١٢٧ ـ الفلك الدائر بهامش المثل السائر ـ انظر المثل السائر .
١٢٨ ـ الفن الشعري في نثر عبد الحميد / للدكتور سعيد منصور ـ منشأة المعارف الاسكندرية ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
١٢٩ ـ الفن ومذاهبه / للدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر الطبعة السابعة .
١٣٠ ـ الفهرست / لابن النديم ـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ، بدون تاريخ .
١٣١ ـ فوات الوفيات / لمحمد بن شاكر الكتبي ـ تحقيق احسان عباس ـ دار صادر بيروت ١٩٧٤م.
١٣٢ ـ في الأدب الجاهلي / للدكتور طه حسين ـ دار المعارف بمصر الطبعة العاشرة ١٩٦٩م.
١٣٣ ـ في أدب مصر الفاطمية / للدكتور محمد كامل حسين ـ دار المعارف مصر ١٩٧٠م.
١٣٤ ـ الفيح القسي في الفتح القدسي / للعماد الكاتب . تحقيق محمد محمود صبيح ، بدون تاريخ .

(ق)

١٣٥ ـ قادة البيان في كافة الأزمان / لسليمان الأغاني ـ شركة الطباعة الفنية المتحدة بمصر ، بدون تاريخ .
١٣٦ ـ القاموس المحيط / للفيروزابادي ـ المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت بدون تاريخ .
١٣٧ ـ قانون البلاغة في نقد النثر والشعر / لأبي طاهر محمد بن حيدر البغدادي ت ٥١٧ هـ . تحقيق محسن غياض عجيل ، مؤسسة الرسالة طبعة أولى بيروت ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
١٣٨ ـ قانون ديوان الرسائل / لعلي بن منجب بن الصيرفي ـ تعليق علي بهجت ـ مطبعة الواعظ الطبعة الأولى مصر ١٩٠٥م.
١٣٩ ـ قصائد المديح المرفوعة الى الرسول ـ مطبعة البابي الحلبي بمصر ، ١٣٥٧هـ .

١٤٠ــ قوانين الدواوين /للأسعد بن مماتي ت ٦٠٦ هـ . تحقيق عزيز سريال ــ مطبعة مصر ١٩٤٣م.

(ك)

١٤١ــ الكامل في التاريخ / لابن الأثير ــ دار الكتاب العربي بيروت ، بدون تاريخ .

١٤٢ــ الكتابة الفنية في مشرق الدولة الاسلامية في القرن الثالث الهجرى ، للدكتور حسني ناعسة ــ مؤسسة الرسالة طبعة اولى بيروت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

١٤٣ــ كتاب التعريفات / لعلي بن محمد الجرجاني ــ طبع لبنان ١٩٧٨م.

١٤٤ــ كشاف اصطلاحات الفنون / لمحمد على الفاروقي ــ تحقيق لطفي عبد البديع ــ النهضة المصرية ١٣٨٢هـ ــ ١٩٦٣م.

١٤٥ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون / لحاجي خليفة ــ دار العلوم الحديثة بيروت بدون تاريخ .

١٤٦ــ كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب / لضياء الدين بن الأثير تحقيق د / نوري القيسي وزملائه ، جامعة الموصل العراق ١٩٨٢م.

(ل)

١٤٧ــ لسان العرب / لابن منظور ت ٧١١ هـ ــ مصر.

(م)

١٤٨ــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر / لضياء الدين بن الأثير . تحقيق د / أحمد الحوفي وزميله ــ نهضة مصر الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م.

١٤٩ــ مجمع الأمثال / لأبي الفضل محمد بن أحمد الميداني ت٥١٨ هـ . تحقيق محمد عبد الحميد ــ مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٥م.

١٥٠ــ المحاسن والمساوىء / لابراهيم بن محمد البيهقي ــ دار صادر بيروت ١٣٨٠هـ ــ ١٩٦٠م.

١٥١ــ المدارس الأدبية ــ مدرسة ابن المقفع و مدرسة الجاحظ / لمحمد الصادق عفيفي ــ دار الفكر القاهرة ١٩٧١م.

١٥٢ــ مرآة الجنان وعدة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان / لأبي محمد بن أسعد اليافعي ت ٧٦٨ هـ ــ الأعلمي للمطبوعات طبعة ثانية بيروت ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م.

١٥٣ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر / لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى ت ٣٤٦ هـ . تحقيق محمد عبد الحميد ـ طبع دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
١٥٤ـ المقامات الأدبية / لأبى محمد القاسم بن على الحريرى ـ مطبعة مصطفى البابى الحلبى الطبعة الثانية مصر ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م.
١٥٥ـ مقامات بديع الزمان الهمذانى ـ المطبعة الكاثوليكية بيروت ،بدون تاريخ .
١٥٦ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص / لعبد الرحيم بن أحمد العباسى ت ٩٦٣ هـ . تحقيق محمد عبد الحميد ـ عالم الكتب بيروت ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٧م.
١٥٧ـ معجم الأدباء لياقوت الحموى ـ دار الفكر الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
١٥٨ـ معجم البلدان / لياقوت الحموى ـ دار الكتاب العربى ، بدون تاريخ .
١٥٩ـ المعجم المفهرس للقرآن الكريم / لمحمد فؤاد عبد الباقى ـ دار مطابع الشعب ،بدون تاريخ.
١٦٠ـ المعرب من الكلام الأعجمى / لأبى منصور الجواليقى ت ٥٤٠ هـ تحقيق محمد شاكر ـ مطبعة دار الكتب المصرية الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.
١٦١ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب / لمحمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧ هـ . تحقيق د / الشيال ـ دار العلم القاهرة ، بدون تاريخ .
١٦٢ـ مقاتل الطالبيين / لعلى بن الحسين بن الهيثم الكاتب ت ٣٥٦هـ المطبعة الحيدرية العراق ١٣٥٣هـ.
١٦٣ـ مقدمة ابن خلدون / لعبد الرحمن بن خلدون ـ دار التحرير للطباعة القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.
١٦٤ـ الممتع فى صنعة الشعر / لعبد الكريم النهشلى القيروانى . تحقيق محمد زغلول ـ دار غريب للطباعة القاهرة ،بدون تاريخ .
١٦٥ـ من حديث الشعر والنثر / للدكتور طه حسين ـ دار المعارف بمصر الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٥م.

١٦٦ــ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري /للآمدي ٣٧٠ هـ . تحقيق السيد صقر ــ دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م.
١٦٧ــ موسوعة التاريخ الاسلامي /للدكتور أحمد شلبي ــ مطبعة النهضة المصرية طبعة رابعة ١٩٧٩م.

(ن)

١٦٨ــ النابغة الذبياني / للدكتور محمد زكي العشماوي ــ دار المعارف بمصر طبعة ثانية ١٩٦٨م.
١٦٩ــ النثر الفني في القرن الرابع الهجري / للدكتور زكي مبارك ــ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة بدون تاريخ .
١٧٠ــ النثر الفني وأثر الجاحظ فيه /للدكتور عبد الحكيم بلبع ــ مطبعة الاستقلال بمصر ، الطبعة الثالثة ١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م.
١٧١ــ نثر النظم وحل العقد / للثعالبي ــ المطبعة الأدبية بمصر طبعة أولى ١٣١٧هـ .
١٧٢ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / ليوسف بن تغرى بردى الأتابكي ــ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب نشر المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة ، بدون تاريخ .
١٧٣ــ نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي / للدكتور حسين نصار ــ مطبعة السنة المحمدية القاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٦م.
١٧٤ــ نصرة الثائر على المثل السائر / لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ت ٧٦٤ هـ ــ تحقيق محمد علي سلطاني ــ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٢م.
١٧٥ــ نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر / تحقيق د / طه حسين ،وعبد الحميد العبادي ــ مطبعة مصر ١٩٣٨م.
١٧٦ــ نهاية الأرب في فنون الأدب / لأحمد بن عبد الوهاب النويري ت ٧٣٢ هـ ــ مصور عن طبعة دار الكتب للتأليف والترجمة والنشر ، بدون تاريخ .
١٧٧ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية / لبهاء الدين بن شداد ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة طبعة أولى ١٩٦٤م.

(هـ)

١٧٨ــ هدية العارفين ــ أسماء المؤلفين وآثار المصنفين / للبغدادي ــ دار العلوم الحديثة بيروت ١٩٥٥م.

(و)

١٧٩ــ الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي / للدكتور محمد حمدي المناوي ــ دار المعارف بمصر ،بدون تاريخ .
١٨٠ــ الوزراء / لأبي الحسن الهلال بن المحسن الصابي . تحقيق عبد الستار فراج ــ عيسى البابي الحلبي مصر ١٩٥٨م.
١٨١ــ الوزراء والكتاب / للجهشياري ــ تحقيق مصطفى السقا وزملائه ــ مطبعة البابي الحلبي مصر طبعة أولى ١٩٣٨م.
١٨٢ــ الوسائل الى معرفة الأوائل / لجلال الدين السيوطي ت٩١١ . تحقيق د /ابراهيم العدوى ، د / على محمد عمر ــ نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ،بدون تاريخ .
١٨٣ــ الوشى المرقوم فى حل المنظوم / لضياء الدين بن الأثير ــ مطبعة ثمرات الفنون ١٢٩٨هـ.
١٨٤ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / لابن خلكان ت ٦٨١ هـ ــ دار صادر بيروت ١٩٧٢م.

(ى)

١٨٥ــ يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر / لعبد الملك بن محمد الثعالبي ت ٤٢٩ هـ تحقيق محمد عبد الحميد ــ مطبعة السعادة الطبعة الثانية القاهرة ١٣٧٥هـ ــ ١٩٥٦م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحـــة

***
***